القول المفيد على كتاب التوحيد

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

اعتنى به جمعًا وترتيبًا وتصويبًا، وعزا آياته
وخرّج أحاديثه، ووضع فهارسه، وأشرف على طبعه

د. سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل
د. خالد بن علي بن محمد المشيقح

الجزء الثاني

دار العاصمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

القول المفيد

على

كتاب التوحيد

الطبعة الأولى ١٤١٥هـ

دار العاصمة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

باب ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾[1].

السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحر لآخر الليل؛ لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السَّحور لما يؤكل في آخر الليل؛ لأنه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً.

وأما في الشرع فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عُقَد ورُقى، أي قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد لتضر المسحور قال تعالى: ﴿**واتبعوا ماتتلوا الشياطين**﴾ إلى قوله: ﴿**يعلمون الناس السحر**﴾[2].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور: بإضعافه شيئا فشيئا حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله فربما يصل إلى الجنون، والعياذ بالله.

(١، ٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

. . . .

فالسحر قسمان :

أ ـ شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، لأنه في الغالب لا يتهيأ للإنسان إلا بالشرك.

ب ـ عدوان، وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وبهذا التقسيم الذي ذكرناه نتوصل به إلى مسألة مهمة: وهي هل يكفر الساحر أو لا يكفر؟.

مسألة: كفر الساحر :

اختلف في هذا أهل العلم فمنهم من قال: إنه يكفر.

ومنهم من قال: إنه لا يكفر.

ولكن التقسيم السابق الذي ذكرناه يتبين به حكم هذه المسألة، فمن كان سحره بواسطة الشياطين فإنه يكفر، ومن كان سحره بالأدوية والعقاقير ونحوها فلا يكفر ولكن يعتبر عاصياً معتديا، ومن هذا ما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام من سحرة فرعون، ألقوا الحبال والعصي، فكان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وأنها حيات، وهي في الحقيقة ليست بحيات، ولكنها حبال وعصي، إلا أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم.

فالمهم أن السحر يؤثر بلا شك، لكنه لا يقلب الأعيان إلى أعيان أخرى؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وإنما يخيل للمسحور أن هذا الشيء انقلب وهذا الشيء تحرك أو مشى، وما أشبه ذلك كما جرى لموسى عليه الصلاة والسلام أمام سحرة آل فرعون، حيث كان يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى.

إذا قال قائل: ما وجه إدخال باب السحر في كتاب التوحيد؟.

نقول: **مناسبة الباب لكتاب التوحيد :**

وقوله: «يؤمنون بالجبت والطاغوت»[1] قال عمر: «الجبت السحر والطاغوت الشيطان»[2]

لأن من أقسام السحر ما لا يأتي غالباً إلا بالشرك، فالشياطين لا تخدم الإنسان غالباً إلا لمصلحة، ومعلوم أن مصلحة الشيطان أن يغوي بني آدم فيدخلهم في الشرك والمعاصي.

قوله: **ولقد علموا لمن اشتراه»**.

معنى اشتراه: أي تعلمه.

قوله: «ما له في الآخرة من خلاق».

أي ماله من نصيب، وكل من ليس له في الآخرة من خلاق فمقتضاه أن عمله حابط باطل، لكن إما أن ينتفي النصيب انتفاء كلياً فيكون العمل كفراً، أو ينتفي كمال النصيب فيكون فسقاً.

قوله: «**يؤمنون بالجبت والطاغوت**» أي السحر.

واليهود كانوا من أكثر الناس تعلماً للسحر وممارسة له، ولهذا فإن ساحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم اليهودي[3]، وهم الذين تعلموا السحر وادعوا أن سليمان عليه السلام علمهم إياه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم في كتاب التفسير/باب **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾** ووصله ابن جرير في تفسير ٣/١٣، ٥/٨٣.
وقال ابن حجر في الفتح ٨/٢٥٢: «ووصله عبد بن حميد في تفسيره، ومسدد في مسنده، وعبد الرحمن بن رسته في كتاب الإيمان كلهم من طريق أبي إسحاق عن حسان بن فائد عن عمر مثله وإسناده قوي...» ووصله أيضاً ابن أبي حاتم، وأبو القاسم البغوي كما في تفسير ابن كثير ١/٣١١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب/باب هل يستخرج السحر ٤/٤٨ ومسلم في كتاب السلام/باب السحر ٤/١٧١٩.

وقال جابر: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»[1].

قولـه: «**الـطاغوت**» أجمع ما قيل فيه: هو ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

ومعنى «من معبود» أي بعلمه ورضاه، هكذا قال ابن القيم رحمه الله وقد سبق في أول الكتاب[2] التعليق على هذا القول عند قوله: «**واجتنبوا الطاغوت**».

الشاهـد:

قوله: «**بالجبت**» حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسير الطاغوت بالشيطان فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحياناً بمثال يحتذى عليه مثل قوله تعالى: ﴿**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله**﴾[3].

قال بعض المفسرين: الـظالم لنفسـه الـذي لا يصـلي إلا بعد خروج الوقت، والمقتصد الذي يصلي في آخر الوقت، والسابق بالخيرات الذي يصلي في أول الوقت.

وهذا مثال من الأمثلة وليس ما تدل عليه الآية على وجه الشمول، ولهذا فسرها بعضهم بأن الظالم لنفسه الذي لا يخرج الزكاة، والمقتصد من يخرج الزكاة ولا يتصدق، والسابق بالخيرات من يخرج الزكاة ويتصدق.

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم في الموضع السابق.
وقال ابن حجر في الفتح ٢٥٢/٨: «وصله ابن أبي حاتم طريق وهب بن منبه»، ووصله أيضاً ابن جرير في تفسيره ١٣/٣.

(٢) سبق ٢٣/١.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله،**

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال؛ لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت كما قال تعالى: **﴿وعبد الطاغوت﴾**[1] والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يُعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا وفعلوا ما ليس لهم به حق.

قوله: **«الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد»**.

هذا أيضاً من باب التفسير بالمثال حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن: قيل هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وكان هؤلاء الكهان تنزل عليهم الشياطين بما استرقوا من السمع من السماء، وكان كل حي من أحياء العرب لهم كاهن يستخدم الشياطين، فتسترق له السمع فتأتي بخبر السماء إليه.

وكانوا يتحاكمون إليهم في الجاهلية.

والطواغيت ليسوا محصورين في هؤلاء فتفسير جابر رضي الله عنه تفسير بالمثال كتفسير عمر رضي الله عنه.

قوله: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**.

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا». وهي أبلغ من قوله: لا تفعلوا؛ لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

. . . .

«واجتنبوا» أي اتركوا، بل أشد من مجرد الترك؛ لأن الإنسان قد يترك الشيء وهو قريب منه، فإذا قيل اجتنبه يعني اتركه مع البعد.

وقوله: **«السبع الموبقات»**.

هذا لا يقتضي الحصر فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك حديث: **«السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»**[1] فهناك غيرهم، ومثله: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة»**[2] وأمثلة هذا كثيرة، وإن قلنا بدلالة حديث أبي هريرة على الحصر لكونه وقع بـ «أل» المعرفة، فإنه حصرها؛ لأن هذه أعظم الكبائر.

قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن»:

الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهما طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن. فأخبرهم، إلا ما علموا أن الحكمة في إخفائه وعلى هذه القاعدة [أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم].

---

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**» أخرجه البخاري في الأذان/باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١/٢١٩ ومسلم في الزكاة/باب فضل إخفاء الصدقة ٢/٧١٥.

(٢) حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال أبو ذر: خابوا** =

. . . .

حاول بعض النـــاس أن يصحـــح حديث سرد الأســماء التسعــة والتسعـين[1]. فهو ليس في الصحيحين، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ، وصدق رحمه الله بدليل الاختلاف الكبير فيها.

فمن حاول تصحيح هذا الحديث قال إن هذا أمر عظيم، ومن أحصاها دخل الجنة فلا يمكن للصحابة أن يفوتوه، فلا يسألوا عن تعيينها، فدل هذا على أنها قد عينت من قبله ﷺ.

وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب».
أخرجه مسلم في الإيمان/باب غلظ تحريم إسبال الإزار ١/١٠٢.

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات/باب أسماء الله ٩/١٧٣ وقال: «غريب» وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم ١/١٦، والبيهقي في السنن ١٠/٢٧، وفي الأسماء والصفات ص(٥)، والبغوي في شرح السنة ٥/٣٢، ٣٣ قال البيهقي في الأسماء والصفات ص٨: «ويحتمل أن يكون التفسير- أي تفسير الأسماء - وقع من بعض الرواه، وكذلك في حديث الوليد بن مسلم ولهذا الاحتمال ترك البخاري ومسلم إخراج حديث الوليد في الصحيح».
وقال شيخ الإسلام ٢٢/٣٨٢: «وحفاظ أهل الحديث يقولون هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث، وفيها حديث أضعف من هذا رواه ابن ماجه».
وقال ابن حزم في المحلى ٨/٣١: «وقد جاءت أحاديث في إحصاء التسعة والتسعين أسماء مضطربة لا يصح منها شيء أصلا، فإنما تؤخذ من نص القرآن ومما صحّ عن النبي ﷺ».
وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩، وفتح الباري ١١/٢١٥.
وأخرجه أيضاً ابن ماجه بزيادة ونقصان في بعض الأسماء في الدعاء/باب أسماء الله عز وجل ٢/١٢٦٩.
وقال البوصيري في الزوائد: «إسناد طريق ابن ماجه ضعيف لضعف عبد الملك الصنعاني».
وأخرجه أيضاً الحاكم ١/١٧، والبيهقي في الأسماء والصفات ص(٧) وضعفه الذهبي، وكذا البيهقي بعبد العزيز بن الحصين بن الترجمان، وكذا ابن حجر في تلخيص الحبير ٤/١٧٢.

. . . .

لكن يجاب عن ذلك بأنه لا يلزم تعيينها.

ولو كان الأمر كذلك لكانت هذه الأسماء التسع والتسعين معلومة للعالم أشد من علم الشمس، ولنقلت في الصحيحين وغيرهما، لأن هذا مما تدعو الحاجة إليه، وتلح بحفظه والعناية به، فكيف لا يأتي إلا عن طرق واهية وعلى صور مختلفة. فالنبي ﷺ لم يبينها لحكمة بالغة، وهي أن يطلبها الناس ويتحروها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى يعلم الحريص من غير الحريص.

كما ولم يبين النبي ﷺ ساعة الجمعة، والعلماء اختلفوا في حديث أبي موسى الذي في مسلم حيث قال فيه: «إنها ما بين أن يخرج الإمام إلى أن تقضى الصلاة»[1]. فإن بعضهم صححه وبعضهم ضعفه. لكن هو عندي صحيح، لأن علة التضعيف فيه واهية والحال تؤيد صحته، لأن الناس مجتمعون أكبر اجتماع في البلد على صلاة مفروضة، فيكون هذا الوقت في هذا الحال حرياً بإجابة الدعاء، وكذلك ليلة القدر لم يبينها النبي ﷺ مع أنها من أهم ما يكون.

وقوله: «**الموبقات**»:

أي المهلكات قال تعالى: ﴿**وجعلنا بينهم موبقا**﴾[2] أي: مكان هلاك.

قوله: «قالوا يا رسول الله وما هن».

في هذا إجمال أولاً ثم تفصيل، والفائدة من الإجمال أولاً ثم التفصيل ثانياً

---

(١) حديث أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أسمعت أباك يحدث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة؟ قال: قلت: نعم سمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة**».

أخرجه مسلم في الجمعة/باب في الساعة التي في يوم الجمعة ٢/٦٨٤.

وانظر فتح الباري ٢/٤١٧ ـ ٤٢٢، ١١/١٩٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

. . . .

هي تطلع المخاطب لبيان هذا المجمل؛ لأنه إذا جاء مبينا من أول وهلة لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

قوله: «**وما هن**» «ما» اسم استفهام مبتدأ، و«هن» خبر المبتدأ.

وقيل: بالعكس «ما»: خبر مقدم وجوبا، لأن الاستفهام له الصدارة و«هن» مبتدأ مؤخر.

لأن «هن» ضمير معرفة و«ما» نكرة، والقاعدة المتبعة أنه يخبر بالنكرة عن المعرفة ولا عكس.

ويمكن أن يقال: إن «هن» ضمير يعود على «ما»، وهي نكرة، والعائد على النكرة نكرة كما قالوا في قوله: رُبَّهُ رجل صالح فأدخلوا «رب» على الضمير مع أنها لا تدخل إلا على نكرة قال ابن مالك:

واخصص بمذ ومنذ وقتا وبرب   منكـراً . . . .

قوله: «**قال: الشرك بالله**».

قدمه لأنه أعظم الموبقات، فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه، أو صفاته.

فمن اعتقد أن مع الله خالقاً أو معينا فهو مشرك، أو أن أحداً سوى الله يستحق أن يعبد فهو مشرك، وإن لم يعبده، فإن عبده فهو أعظم، أو أن لله مثيلاً في صفاته فهو مشرك، أو أن الله استوى على العرش كاستواء الملك على عرش مملكته فهو مشرك، أو أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزول الإنسان إلى أسفل بيته من أعلى فهو مشرك.

قال تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1] وقال تعالى: ﴿**أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

. . . .

وما للظالمين من أنصار»[1] .

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من الجناية والجرم بقوله : **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[2] .

فالذي خلقك وأوجدك وأمدك وأعدك ورزقك كيف تجعل له ندا؟ فلو أن أحداً من الناس أحسن بما دون ذلك فجعلت له نظيراً، لكان هذا الأمر بالنسبة إليه كفراً وجحوداً.

قوله : **«والسحـــر»** :

أي : من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين أن يكون ذلك بواسطة الشياطين، أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم فهو داخل في الشرك بالله .

وإن كان دون ذلـك فهو أيضاً جرم عظيم ؛ لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم ، فهو يفسـد على المسحور أمر دينه ودنياه ، ويقلقه فيصبح كالبهائم ، بل أسوأ من ذلك ؛ لأن البهيمة خلقت هكذا على طبيعتها ، أمـا الآدمي فإنه إذا صرف عن طبيعته وفطرته لحقه من الضيق والقلق ما لا يعلمه إلا رب العباد ، ولهذا كان السحر يلي الشرك بالله عز وجل .

---

(١) سورة المائدة، الآية : ٧٢.

(٢) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك. . . »الحديث.

أخرجه البخاري في التفسير/باب قوله تعالى : **﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾** ٣/ ١٩٠، ومسلم في الإيمان/باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٩٠.

والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[1].

قوله: «**وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق**».

القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار، وما أشبهها.

وقوله: «**التي حرم الله**»

مفعول (حرّم) محذوف تقديره حرم قتلها، ويجوز أن يكون التقدير حرمها الله، وأيا كان فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: «**إلا بالحق**»:

أي بالعدل؛ لأن هذا حكم، والحق إذا ذكر بإزاء الأحكام فالمراد به العدل، والعدل هو ما أمر الله به ورسوله قال تعالى: «**إن الله يأمر بالعدل**»[2]. ,

والنفس المحرمة أربعة أنفس هي: نفس المؤمن، والذمي، والمعاهد، والمستأمن.

فالمؤمن لإيمانه، والذمي لذمته، والمعاهد لعهده، والمستأمن لتأمينه.

والفرق بين الثلاثة: الذمي، والمعاهد، والمستأمن: أن الذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة أي عهد، على أن يقيم في بلادنا، وأن نحميه مع بذل الجزية.

وأما المعاهد: فيقيم في بلاده، لكن بيننا وبينه عهد أن لا يحاربنا، وأن لا نحاربه.

وأما المستأمن بكسر الميم طالب الأمان، فهو: الذي ليس بيننا وبينه عهد، لكننا أمناه في وقت محدود كرجل حربي دخل إلينا بأمان للتجارة، أو ليفهم الإسلام، قال تعالى: ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه**﴾[3] وهناك فرق آخر وهو: أن العهد يجوز من

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٥/٣٩٣ فتح) ومسلم في الإيمان ١/٩٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠. (٣) سورة التوبة، الآية: ٦.

جميع الكفار، والذمة لا تجوز إلا من اليهود والنصارى والمجوس دون بقية الكفار، وهذا هو المشهور من المذهب. والصحيح: أنها تجوز من جميع الكفار.

هذه الأنفس الأربعة قتلها حرام، لكنها ليست على حد سواء في التحريم، فنفس المؤمن أعظم، ثم الذمي، ثم المعاهد، ثم المستأمن.

وهل المستأمن مثل المعاهد أو أعلى؟ أشك في ذلك؛ لأن المستأمن من له عهد خاص بخلاف المعاهدين، فالمعاهدون يتولى العهد أهل الحل والعقد منهم، فليس بيننا وبينهم عقود تأمينات خاصة، وأيا كان فالحديث عام.

وقوله: «**إلا بالحق**»:

أي: مما يوجب القتل، مثل: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

قوله: «**وأكل الربا**»:

الربا في اللغة الزيادة ومنه قوله تعالى: ﴿**فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾[1] يعني زادت.

وفي الشرع: تفاضل بين أشياء ونسأ بين أشياء.

أي تفاضل بين أشياء حرم الشرع التفاضل فيها، وتأخير في أشياء حرم الشرع التأخير فيها.

والربا: ربا فضل، وربا نسيئة، وهو يجرى في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح**»[2] فهذه هي الأموال الربوية بنص الحديث وإجماع المسلمين، وهذه الأصناف الستة إن بعت منها جنساً بمثله جرى فيه ربا

---

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة/باب الصرف ٣/١٢١١ من حديث عبادة بن الصامت.

. . . .

الفضل وربا النسيئة، أي: لو زدت واحداً على آخر فهو ربا، أو سويته لكن أخرت القبض فهو ربا، وربما يجتمع النوعان كما لو بعت ذهبا بذهب متفاضلاً والقبض متـأخـر، فإذا بعت جنسـاً بجنسـه فلابـد من أمـرين: التساوي، والتقابض في مجلس العقد.

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة أي: اتفق المقصود فإنه يجري ربا النسيئـة دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساوياً مع التأخير هذا ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»[1].

وقولنا: اتفقا في الغرض والمقصود احترازاً مما إذا اختلف الغرض منها.

فالذهب مثلاً ثمن للأشياء، والفضة ثمن للأشياء، والبر قوت.

وعلى هذا يجوز بيع صاع مُن البر بدينار من الذهب مع التفرق وعدم التساوي لاختلاف القصد، لأن هذا يقصد به النقد والثمنية، وهذا يقصد به القوت.

فإن قيل الحديث يدل على أنه لا يصح إلا بالقبض فما هو الجواب:

نقول: حقيقة إن هذا الأمر مشكل، إذ مقتضى الحديث أنك إذا بعت ذهبا ببر وجب التقابض لقوله ﷺ: «**فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**»[2].

ولكننـا نجيب عن هذا فنقول: قد دلت السنة من وجه آخر على أن القبض ليس بشرط فيما إذا كان أحدهما ثمنا، قال ابن عباس قدم النبي ﷺ المـدينـة: وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين فقال: «**مَنْ أسلف في شيء**

(١، ٢) سبق من حديث عبادة بن الصامت.

. . . .

فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»[1].

وعلى هذا فحديث: «**فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد**» لا عموم لمفهومه فلا يشترط القبض في كل صورة من هذه الصور، وإنما يشترط القبض إذا اتفقا في الغرض كذهب بفضة، أو بر بشعير.

واختلف العلماء فيما عدا هذه الأصناف الستة، فالظاهرية قالوا: لا يجرى الربا إلا في هذه الأصناف الستة؛ لأنهم لا يرون القياس فيقتصر على ما جاء به النص فيجوز عندهم مبادلة أرز بذرة متفاضلاً مع تأخر القبض؛ لأنهما لا يدخلان في المنصوص عليه.

وأما أهل القياس من المذاهب الأربعة فإنهم: عدوا الحكم إلى غيرها، إلا أن بعضاً منهم لم يعد الحكم إلى غيرها وهو من أهل القياس، مثل ابن عقيل رحمه الله فإنه قال: لا يجري الربا إلا في هذه الأصناف الستة لا لأنه لا قياس، ولكن لأن العلماء اختلفوا واضطربوا في العلة التي من أجلها كان الربا، فلما اضطربوا في العلة ألغينا جميع هذه العلل، وأبقينا النص على ما هو عليه.

والصحيح: أن الربا يجري في غير الأصناف الستة، وأن العلة هي الكيل أو الأدخار مع الطعم وهو أن يكون قوتاً مدخراً، وهذا بالنسبة للبر والتمر والشعير.

وبالنسبة للذهب والفضة: العلة هي الجنس والثمنية، فقولنا: «الجنس» لأجل أن يشمل الحلي إذا بيع بعضه ببعض فيجري فيه الربا، مع أنه ليس بثمن، والثمنية مثل الدراهم والدنانير والأوراق النقدية المعروفة، فإنها بمنزلة الذهب والفضة.

---

(١) أخرجه البخاري في السلم/باب السلم في وزن معلوم ٢/١٢٤، ومسلم في المساقاة/باب السلم ٣/١٢٢٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

. . . .

وأما الملح فقال شيخ الإسلام إنه يصلح به الطعام، فالعلة ليس أنه قوت، وهو من ضرورياته، ولهذا لو طحنت براً ولم يكن فيه ملح لم يبق إلا أياماً يسيرة، فيفسد، فإذا كان فيه الملح منعه من الفساد، فيقول لما كان يصلح به القوت جعل له حكمه.

وقوله: «**وأكل الربا**»:

ذكر النبي ﷺ الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿**وأخذهم الربا وقد نهوا عنه**﴾[1] ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه، سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «**وأكل مال اليتيم**»:

اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه سواء كان ذكراً أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه فليس يتيماً لا شرعاً ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد أي انفرد عن الكاسب له؛ لأن أباه هو الذي يكسب له.

وخص اليتيم لأنه لا أحد يدافع عنه، ولأنه أولى أن يرحم، ولهذا جعل الله له حق في الفيء، وإذا كان أحق أن يرحم؛ فكيف يسطو هذا الرجل الظالم على ماله فيأكله.

ويقال في أكل مال اليتيم ما قيل في أكل الربا فليس خاصاً في الأكل، بل حتى لو استعمله في السكن أو الفرش أو الكتب وغيرها فهو داخل في ذلك.

وأكل مال غير اليتيم ليس من الكبائر؛ لأن اليتيم له شأن خاص ولهذا توعد الله من يأكل أموال اليتامى قال تعالى: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦١.

ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾[1].

قوله: «**والتولي يوم الزحف**»:

التـولي: بمعنى الإدبـار والإعـراض، ويوم الزحف أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف؛ لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفاً كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويداً رويداً.

والتـولي يوم الـزحف من كبـائر الذنوب؛ لأنه يتضمن الإعراض عن الجهاد في سبيل الله، وكسر قلوب المسلمين، وتقوية أعداء الله، وهذا يؤدي إلى هزيمة المسلمين.

لكن هذا الحديث خصصته الآية وهي قوله تعالى: **﴿ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله﴾**[2].

فالله سبحانه استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحرفاً لقتال، أي: متهيئاً له كمن ينصرف ليصلح من شأنه أو يهيء الأسلحة ويعدها، ومنه الانحراف إلى مكان آخر يأتي العدو من جهته، فهذا لا يعد متولياً إنما يعد متهيئا.

الثانية: المتحيز إلى فئة كما إذا حصرت سرية للمسلمين يمكن أن يقضي عليها العدو، فانصرف من هؤلاء لينقذها فهذا لا بأس به لدعاء الضرورة إليه، بشرط ألا يكون على الجيش ضرر، فإن كان على الجيش ضرر، وذهبت طائفة كبيرة إلى هذه السرية بحيث توهن قوة الجيش، وتكسره أمام العدو، فإنه لا يجوز؛ لأن الضرر هنـا متحقق، وإنقـاذ السرية غير متحقق، فلا يجوز لأن المقصود إظهار دين الله، وفي هذا إذلال لدين الله، إلا إذا كان الكفار أكثر من

(١) سورة النساء، الآية: ١٠. (٢) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

. . . .

مثلي المسلمين لقوله تعالى: ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين**﴾[1] أو كان عندهم عدة لا يمكن للمسلمين مقاومتها كالطائرات إذا لم يكن عند المسلمين من الصواريخ ما يدفعها، فإذا علم أن الصمود يستلزم الهلاك والقضاء على المسلمين، فلا يجوز لهم أن يبقوا؛ لأن مقتضى ذلك أنهم يغررون بأنفسهم.

وفي هذا الحديث تخصيص السنة بالكتاب وهو عزيز. ومن تخصيص السنة بالكتاب أن من الشروط التي بين النبي ﷺ والمشركين في الحديبية أن من جاء من المشركين مسلماً يرد إليهم[2]، وهذا الشرط عام يشمل الذكر والأنثى، فأنزل الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار**﴾[3].

قوله: «**وقذف المحصنات**»:

القذف: بمعنى الرمي، والمراد به هنا الرمي بالزنا والمحصنات الحرائر وهو الصحيح، وقيل: العفيفات عن الزنا.

والغافلات، وهن: العفيفات عن الزنا البعيدات عنه اللاتي لا يخطر على بالهن هذا الأمر.

والمؤمنات احترازاً من الكافرات، فمن قذف امرأة هذه صفاتها، فإن ذلك من الموبقات ومع ذلك يقام عليه الحد - ثمانون جلدة - ولا تقبل شهادته

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي/باب غزوة الحديبية ٣/١٣١.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

. . . .

ويكـون فاسقـاً. فجعـل الله عليه ثلاثـة أمور قال تعالى: ﴿**والذين يرمون المحصنـات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون**﴾[1] ثم قال: ﴿**إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا**﴾[2].

وهـذا الاستثناء لا يشمل أول الجملة بالاتفاق، ويشمل آخر الجملة بالاتفاق واختلف العلماء في الجملة الثانية وهي قوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً**﴾ فقيل إنه يعود إليها. وقيل: لا يعود.

وبناء على ذلك إذا تاب هل تقبل شهادته أم لا؟ الجواب: اختلف في ذلك أهل العلم:

فمنهم من قال: لا تقبل شهادته أبداً ولو تاب، وأيدوا قولهم بأن الله أبد ذلك بقوله: ﴿**ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا**﴾[3] وفائدة هذا التأبيد أن الحكم لم يرتفع عنهم.

وقال آخرون: بل تقبل؛ لأن مبنى قبول الشهادة وردها على الفسق، فإذا زال وهو المانع من قبول الشهادة زال ما يترتب عليه.

وينبغي في مثل هذا أن يقال: إنه يرجع إلى نظر الحاكم، فإذا رأى من المصلحة عدم قبول الشهادة لردع الناس عن التهاون بأعراض المسلمين فليفعل.

وإلا فالأصـل أنـه إذا زال الفسق وجب قبـول الشهادة، وهل قذف المحصنين الغافلين المؤمنين كقذف المحصنات من كبائر الذنوب؟

الجواب: الذي عليه جمهور أهل العلم أن قذف الرجل كقذف المرأة،

(١، ٢) سورة النور، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) سورة النور الآية: ٤.

وعن جنـدب مرفـوعـاً: «**حـد الساحر ضربة بالسيف**» رواه الترمذي وقال: الصحيح: إنه موقوف[1] وفي صحيح البخاري عن

وإنما خصّ بذلك المرأة لأن الغالب أن القذف يكون للنساء أكثر، إذ البغايا كثيرات قبل الإسلام، وقذف المرأة أشد؛ لأنه يستلزم الشك في نسب أولادها من زوجها فيلحق القذف بهن ضرراً أكثر، فتخصيصه من باب التخصيص بالغالب، والقيد الأغلبي لا مفهوم له؛ لأنه لبيان الواقع.

الشاهد من هذا الحديث قوله: «**السحـر**».

قوله: «**وعن جندب**»

ليس جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر.

قوله: «**مرفوعاً**» أي إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»

ظاهره: أنه لا يكفر؛ لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الحدود/باب ما جاء في الساحر ٥/١٥٦ وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث، وإسماعيل بن مسلم العدي البصري قال وكيع هو ثقة ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف».

والحديث أخرجه أيضاً: الطبراني في الكبير رقم ١٦٦٥، والدارقطني ٣/١١٤، والحاكم ٤/٣٦٠، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٨/١٣٦.

وأخرجه من طريق إسماعيل عن الحسن مرسلا عبد الرزاق ١٠/١٨٤، وابن حزم في ١١/٣٩٦.

والحديث ضعفه ابن حجر في الفتح ١٠/٢٣٦، ورجح الذهبي في الكبائر وقفه ص(٤٢).

بجالـة بن عبده قال: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقتلنا ثلاث سواحر»[1] وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت[2] وكذلك صح عن جندب[3] قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والكافر إذا قتل على ردته فالقتل لا يطهره.

وهذا محمول على ما سبق، أن من أقسام السحر ما لا يخرج الإنسان عن الإسلام، وهو ما كان بالأدوية والعقاقير التي توجب الصرف والعطف وما أشبه ذلك.

قوله: **«ضربة بالسيف»**

هذا كنـاية عن القتل، وليس معناه أن يضرب بالسيف مع ظهره مصفحاً.

قوله: **«وفي صحيح البخاري»**:

ذكر في الشرح[4] أنه ليس في البخاري، أي: أن هذا اللفظ ليس في البخاري أما أصله ففي البخاري، والذي في البخاري أنه: «أمر بأن يفرق بين كل ذي رحم من المجوس»[5] لأنهم يجوزون نكاح المحارم ـ والعياذ بالله ـ فأمر

---

(١) أخرجه الشافعي كما في بدائع المنن (١٥٣٢)، وعبد الرزاق ١٠/١٧٩، ١٨٠، وأحمد في المسنـد ١/١٩٠، ١٩١، وأبو داود في الخراج/باب أخذ الجزية من المجوس ٣/٤٣١، والبيهقي ٨/١٣٦، وابن حزم ١١/٣٩٧ وصححه.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ـ كتاب العقول/باب ما جاء في الغيلة والسحر ٢/٨٧١ عن محمد ابن عبدالرحمن بن سعـد بلاغـاً، ووصله عبدالله بن الإمام في مسائل أبيه ص٤٢٧، والبيهقي ٨/١٣٦ بسند صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بقوله: «وصح عن حفصة...».

(٣) أخـرجـه البخـاري في التاريخ الكبير ٢/٢٢٢، والبيهقي ٨/١٣٦. وسنده صحيح كما صححه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

(٤) انظر شرح تيسير العزيز الحميد ص (٣٩١).

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الجزية/باب الجزية والموادعة ٢/٤٠٦.

. . . .

عمر أن يفرق ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح: أن القطيعي رواه في الجزء الثاني من فوائده وفيه «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر» وقال أي الشارح: إسناده حسن.

وهذا الأثر صحّ أن عمر أمر بقتل الساحر.

وهذا القتل هل حد أم قتله لكفره؟. يحتمل هذا وهذا بناء على التفصيل السابق[1] في كفر الساحر، ولكن بناء على ما سبق من التفصيل نقول: من خرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل ردة، ومن لم يخرج به السحر إلى الكفر فقتله قتل حد يجب تنفيذه.

والحاصل: أنه يجب أن نقتل السحرة سواء قلنا بكفرهم أم لم نقل؛ لأنهم يمرضون ويقتلون؛ ويفرقون بين المرء وزوجه، وكذلك بالعكس فقد يعطفون فيؤلفون بين الأعداء، ويتوصلون إلى أغراضهم فإن بعضهم قد يسحر أحداً ليعطفه إليه وينال مأربه منه، كما لو سحر امرأة ليبغي بها؛ ولأنهم يسعون في الأرض فساداً كان واجباً على ولي الأمر قتلهم بدون استتابة مادام أنه حد لضررهم وفظاعة أمرهم، فإن الحد لا يستتاب صاحبه متى قبض عليه، وجَب أن ينفذ فيه الحد.

وهل الردة كذلك؟ الجواب: الردة فيها خلاف وقد سبق هل يستتاب أم لا، وقلنا الصحيح: أنه يرجع إلى اجتهاد الإمام.

قوله: «**قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ**» وهم عمر، وحفصة، وجندب الخير[2] (ويكنى بقاتل الساحر) أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية؛ لأنهم يسعون في الأرض

---

(١) ص (٦). (٢) سبق ص (٢٤).

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية النساء. **الثالثة**: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما. **الرابعة**: أن الطاغوت قد

فساداً، وفسادهم من أعظم الفساد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم؛ لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم؛ وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم؛ وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة:

وهي قوله تعالى: ﴿**ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق**﴾[1] أي نصيب ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر إذ كلُّ من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

الثانية: تفسير آية النساء.

وهي قوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالجبت والطاغوت**﴾[2] وفسر عمر الجبت بالسحر وبأن الطاغوت الشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

وأما الطاغوت فهو: كل ما تجاوز به الإنسان حده من معبود أو متبوع أو مطاع.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس: تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥١.

يكـون من الجن وقـد يكـون من الإنس. **الخـامسـة**: معرفة السبع المـوبقـات المخصـوصـات بالنهي. **السـادسـة**: أن السـاحر يكفر. **السابعة**: أنه يقتل ولا يستتاب. **الثامنة**: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟

فإن الطاغوت إذا اطلق فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي، وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر.

تؤخـذ من قوله تعالى: ﴿**وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...**﴾ الآية[1].

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

يؤخذ من قوله: «**حد الساحر ضربة بالسيف**»[2] والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين الكفر، وبهذا نعرف خطأ من أدخل حكم المرتد في الحدود، وذكروا من الحدود قتل الردة.

فقتل المرتد ليس من الحدود؛ لأنه يستتاب، فإذا تاب ارتفع عنه القتل، وأما الحدود فلا ترتفع بالتوبة إلا أن يتوب قبل القدرة عليه، ثم إن الحدود كفارة لصاحبها وليس بكافر، والقتل بالردة ليس كفارة وصاحبها كافر لا يصلى عليه ولا يغسل ولا يدفن في مقابر المسلمين.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر فكيف بعده:

تؤخذ من قوله: «كتب عمر أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» فهذا إذا كان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٢٣).

. . . .

في زمن الخليفة الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه، فهو أكثر انتشاراً بين المسلمين، وكلما بعد الناس عن زمن الرسالة استولت عليهم الضلالة والجهالة. فالضلالة: ارتكاب الخطأ عن جهل، والجهالة: ارتكاب الخطأ عن عمد؛ ولهذا نقول من عمل سوءاً بجهالة فهو آثم، ومن عمل سوءاً بجهل فليس بآثم قال تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**﴾[1] والمراد بالجهالة هنا ليست ضد العلم، بل ضد الرشد وهي السفه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

باب: بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أي بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها.

وقد سبق أن السحر ينقسم إلى قسمين: كفر، وفسق[1]. فإن كان باستخدام الشياطين، وما أشبه ذلك فهو كفر.

وكذلك ما ذكره هنا من أنواع السحر منها ما هو كفر ومنها ما هو فسق حسب ما تقتضيه الأدلة الشرعية.

والأنواع: جمع نوع، والنوع أخص من الجنس؛ لأن الجنس اسم يدخل تحته، وقد يكون الجنس نوعاً باعتبار ما فوقه، وقد يكون النوع جنساً باعتبار ما تحته.

فالإنسان نوع باعتبار الحيوان، والحيوان باعتبار الإنسان جنس؛ لأنه يدخل فيه الإنسان والإبل والبقر والغنم، والحيوان باعتبار الجسم نوع؛ لأن الجسم يشمل الحيوان والجماد.

«وأنواع» هنا باعتبار الجنس العام.

وسبق أن السحر في اللغة: كل ما كان خفي السبب دقيقاً في إدراكه حتى عد الفخر الرازي من جملة أنواع السحر الساعات، وهي في القديم عبارة عن آلات مركبة، فكيف بالساعات الالكترونية اليوم؟!

---

(١) انظر ص (٦)

العيافه، والطرق، والطير، من الجبت»[1] قال عوف: العيافة زجر الطير، والطرق الخط بالأرض والجبت[2] قال الحسن: رنة الشيطان، إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه لهم المسند منه.

قوله: «**العيافة**»

مصدر عاف يعيف عيافة وهي زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل. فالتشاؤم عند العرب، فعند العرب قواعد في هذا الأمر، لأن زجر الطير له أقسام: فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم في باب الصيد إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر؛ فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل. فإذا زجر الطائر وذهب شمالا تشاءم، وإذا ذهب يمينا تفاءل، وإن ذهب أماماً فلا أدري أيتوقفون، أو يعيدون الزجر. فهذا من الجبت.

قوله: «**الطرق**»:

فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها.

ومعنى الخط بالأرض معروف عندهم، يضربون به على الرمل على سبيل

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ١٠/٤٠٣، وأحمد في مسنده ٣/٤٧٧، ٥/٦٠، وابن سعد في الطبقات ٧/٣٥، وأبو داود في الطب/باب في الخط وزجر الطير ٤/٢٢٨ وسكت عنه، والنسائي في الكبرى كما تحفة الأشراف ٨/٢٧٥، وابن حبان (١٤٢٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/٣١٢، والبيهقي ٨/١٣٩، والبغوي في شرح السنة ١٢/١٧٧.
وقال النووي في رياض الصالحين كما في دليل الفالحين ص٨٠٢: «رواه أبو داود بإسناد حسن» وفي دليل الفالحين ص٨٠٢: «وهو حديث حسن».

(٢) سنن أبي داود الموضع السابق.

. . . .

السحر والكهانة، ويفعله النساء غالباً، والله أعلم بكيفيتها، وتقول حصل كذا أو سيحصل كذا على ما هو معروف عندهم، وهذا نوع من السحر.

أما خط الأرض ليكون سترة في الصلاة، أو لبيان حدودها ونحو ذلك، فليس داخلاً في الحديث.

فإن قيل قد صح عن الرسول ﷺ أنه سئل عن نبي من الأنبياء يخط فقال: من وافق خطه فذاك[1].

ويجاب عنه بجوابين:

الأول: أن الرسول ﷺ علقه بأمر لا يمكن الحصول عليه؛ لأنه قال فمن وافق خطه فذاك.

الثاني: أنه إذا كان الخط بالوحي من الله تعالى كما في حال هذا النبي فلا بأس به؛ لأن الله يجعل له علامة ينزل الوحي بها بخطوط يعلمه إياها.

أما هذه الخطوط السحرية فهي من الوحي الشيطاني، فإن قيل طريقة الرسول ﷺ أنه يسد الأبواب جميعا خاصة في موضوع الشرك، فلماذا لم يقطع ويسد هذا الباب؟ فالجواب:

كأن هذا والله أعلم أمر معلوم، وهو أن فيه نبياً من الأنبياء يخط، فلابد أن يجيب عنه الرسول ﷺ.

قوله: «**من الجبت**»:

سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا فتكون «من» للتبعيض على الصحيح، وليست للبيان أي: هذان النوعان من الجبت.

قوله: «**والطيرة**»:

(1) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة/باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١-٣٨٢، وفي السلام/باب تحريم الكهانة ٤/١٧٤٨ من حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه.

. . . .

أي : من الجبت، على وزن فِعَلَة وهي اسم مصدر تطيرَ، والمصدر منه تطيرُ وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئيا كان أو مسموعاً، زمنا كان أو مكاناً. وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاؤم لكن أضيفت إلى الطير؛ لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به وإلا فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئي أو مسموع.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ[1].

والإنسان إذا فتح على نفسه باب التشاؤم؛ فإنها تضيق عليه الدنيا، وصار يتخيل كل شيء أنه شؤم، حتى أنه يوجد أناس إذا أصبح وخرج من بيته ثم قابله رجل ليس له إلا عين واحدة تشاءم، وقال اليوم يوم سوء، وأغلق دكانه، ولم يبع ولم يشتر- والعياذ بالله - وكان بعضهم يتشاءم بيوم الأربعاء، ويقول: إنه يوم نحس وشؤم، ومنهم من يتشاءم بشهر شوال، ولا سيما في النكاح، وقد نقضت عائشة رضي الله عنها هذا التشاؤم، بأنه ﷺ عقد عليها في شوال، وبنى بها في شوال، فكانت تقول أيكن كان أحظى عنده مني[2]؟ والجواب لا أحد.

فالمهم أن التشاؤم ينبغي للإنسان أن لا يطرأ له على بال؛ لأنه ينكد عليه عيشه، فالواجب الاقتداء بالنبي ﷺ حيث كان يعجبه الفأل[3]. فينبغي للإنسان أن يتفاءل بالخير ولا يتشاءم، وكذلك بعض الناس إذا حاول الأمر مرة

---

(١) يأتي ص (٩٢).

(٢) أخرجه مسلم في النكاح/ باب التزوج في شوال ٢/ ١٠٣٩.

(٣) يأتي ص (٨٩).

. . . .

بعد أخرى تشاءم بأنه لن ينجح فيه فيتركه. وهذا خطأ فكل شيء ترى فيه المصلحة فلا تتقاعس عنه في أول محاولة، وحاول مرة بعد أخرى حتى يفتح الله عليك.

قوله: «**من الجبت**» قال الحسن الجبت: رنة الشيطان. قال صاحب تيسير العزيز الحميد[1]. لم أجد فيه كلاماً.

والظاهر أن رنة الشيطان أي: وحي الشيطان. فهذه من وحي الشيطان وإملائه، ولا شك أن الذي يتلقى أمره من وحي الشيطان أنه أتى نوعاً من الكفر.

وجه كون العيافة من السحر؟:

وجه ذلك: أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له، فماذا يعني كون الطائر يذهب يميناً أو شمالاً أو أماماً أو خلفاً فهذا لا أصل له، ولا سبب له، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة[2].

وكذلك الطرق من السحر؛ لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والطيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تماماً تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه، وسيأتي في باب الطيرة ما يستثنى منه[3].

قوله: «**إسناده جيد...**».

قال الشيخ: إسناده جيد، وعندي أنه أقل من الجيد في الواقع، إلا أن

---

(١) انظر تيسير العزيز الحميد ص ٣٩٨.

(٢) سبق ص (٥).

(٣) يأتي ص (٨٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة

يكـون هناك متابعات، وكان بعض العلماء يذهب إلى أن الحديث إذا صح متنه، وكان موافقاً للأصول، فإنه يتساهل في سنده، والعكس بالعكس، إذا كان مخالفاً للأصول؛ فإنه لا يبالي بالسند، وهذا مسلك جيد بالنسبة لأخذ الحكم من الحديث، لكن بالنسبة للحكم على السند بأنه جيد بمجرد شهادة الأصول لهذا الحديث بالصحة، هذا مشكل؛ لأنه يلزم أنه لو جاءنا هذا السند في حديث آخـر حكمنا بأنه جيد، فالأولى أن يقال: إن السند فيه ضعف، ولكن المتن صحيح. فأنا أرى أن مثل هذا لا يحكم له بالجود، إذ جيد أرقى من حسن، ثم الحكم بالحسن في مثل هذا السند في نفسي منه شيء؛ لأنه ينبغي لنا أن نتحرى في الحديث عن الرسول ﷺ، إلا أن الذي يخفف الأمر هو صحة المتن. وأيها أهم السند أم المتن؟

الجواب: كلاهما مهمان، لكن المتن إذا كان صحيحاً تشهد له الأصول قد تستغنى عنه، أما السند فلابد منه يقول ابن المبارك: لولا السند لقال كل من شاء ما شاء[1].

قوله: «**من**» شرطية وفعل الشرط «اقتبس» وجوابه «فقد اقتبس».

قوله: «اقتبس» أي: تعلم. لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قولـه: «**شعبـة**» أي طائفـة ومنـه قولـه تعـالى: ﴿**وجعلنـاكم شعوبا وقبائل**﴾[2] أي طوائف وقبائل.

---

(1) مقدمة صحيح مسلم ١/١٥.

(2) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبوداود وإسناده صحيح[1].

قوله: **«من النجوم»**: المراد علم النجوم وليس المراد النجوم أنفسها؛ لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم. والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية. فيستدل مثلا باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيداً. وفي هذا النجم الآخر على أنه سيكون شقيا. فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من الله وليس للنجوم بها علاقة. ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على أثر سماء من الليل فقال: قال الله تعالى: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بنوء كذا وكذا** - بنوء يعني بنجم والباء للسببية يعني هذا المطر من النجم - **فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»**[2].

فالنجوم لا تأتي بالمطر ولا تأتي الرياح به أيضا، ومنه نأخذ خطأ العوام الذين يقولون: إذا هبت الريح طلع النجم الفلاني؛ لأن النجوم لا تأثير لها بالرياح، صحيح أن بعض الأوقات والفصول يكون فيها ريح ومطر، فهي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٢٧، ٣١١، وأبو داود في الطب/باب في النجوم ٤/٢٢٦، وسكت عنه، وابن ماجه في الأدب/باب تعلم النجوم ٢/١٢٢٨، والطبراني في الكبير (١١٢٧٨) والبيهقي ٨/١٣٨ من حديث ابن عباس، والحديث صححه النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص (٨٠٣)، والعراقي في تخريج الإحياء ٤/١١٧ والذهبي كما في فيض القدير ٦/٨٠.

(٢) يأتي ص (١٢٧).

. . . .

ظرف لهما، وليست سبباً للريح أو المطر.

وعلم النجوم ينقسم إلى قسمين :

الأول: علم التأثير وهو ما يستدل به على الحوادث الأرضية، فهذا محرم باطل لقول النبي ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»(١) وقوله في حديث زيد بن خالد: «**من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٢) لأنه لا علاقة بينها وبين الحوادث الأرضية.

الثاني: علم التسيير، وهو ما يستدل به على الجهات والأوقات، فهذا جائز، وقد يكون واجباً أحيانا، كما قال الفقهاء: إذا دخل وقت الصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم علامات القبلة من النجوم والشمس والقمر، قال تعالى: ﴿**وألقينا في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون**﴾(٣) فلما ذكر الله العلامات الأرضية انتقل إلى العلامات السماوية فقال تعالى: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾(٤). فالاستدلال بهذه النجوم على الأزمان لا بأس به، مثل أن يقال: إذا طلع النجم الفلاني دخل وقت السيل، ودخل وقت الربيع.

قوله: «**فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**»:

المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف؛ لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «**زاد ما زاد**»:

---

(١) سبق ص (٣٥).

(٢) يأتي ص (١٢٧).

(٣،٤) سورة النحل، الآيتان: ١٥، ١٦.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه**»[1].

أي كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

ووجه ذلك: أن الشيء إذا كان من الشيء فإنه يزداد بزيادته.

وجه مناسبة الحديث لترجمة المؤلف:

أن من أنواع السحر تعلم النجوم ليستدل بها على الحوادث الأرضية.

وهذا الحديث وإن كان ضعيف السند، لكن من حيث المعنى صحيح، تشهد له النصوص الأخرى.

قوله: «**من عقد عقدة**»:

«من» شرطية، والعقد معروف.

قولـه: «**ثم نفث فيها**»: النفث النفخ بريق خفيف، والنفث من أجل السحر.

أمـا لو عقد عقدة، ثم نفث فيها من أجل أن تحتكم بالرطوبة فليس بداخل في الحديث، والنفث من أجل السحر يفعلونه بعض الأحيان للصرف، فيصرفون به الرجل عن زوجته، ولا سيما عند عقد النكاح فيبعد الرجل عن زوجته فلا يقوى على جماعها، فمن عقد هذه العقدة فقد وقع في السحر كما قال تعالى: ﴿**ومن شر النفاثات في العقد**﴾[2].

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم/باب الحكم في السحرة ٧/١١٢، والمزي في تهذيب الكمال ٢/٦٥٤ وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٢: «رواه النسائي من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه عند الجمهور» وقال الذهبي في الميزان ٢/٣٧٨: «هذا الحديث لا يصلح للين عباد وانقطاعه»، وحسنه ابن مفلح في الآداب ٣/٧٨، ورواه عبد الرزاق عن الحسن مرسلا في المصنف ١١/١٧.

قال في النهج السديد ص (١٣٥: «فثبت أن أصل الحديث مرسل لكن عباداً أخطأ فوصله».

(٢) سورة الفلق، الآية: ٤.

. . . .

قوله: «**ومن سحر فقد أشرك**»: «من» هذه شرطية وفعل الشرط «سحر» وجوابه «فقد أشرك».

وقوله: «**فقد أشرك**».

هذا لا يتناول جميع السحر إنما من سحر بالطرق الشيطانية.

أما من سحر بالأدوية والعقاقير وما أشبهها، فقد سبق أنه لا يكون مشركاً[1]، لكن الذي يسحر بواسطة طاعة الشياطين واستخدامهم فيما يريد، فهذا لا شك أنه مشرك.

قوله: «**ومن تعلق شيئا وكل إليه**».

تعلق شيئا: أي استمسك به واعتمد عليه.

وكل إليه: أي جعل هذا الشيء الذي تعلق به عماداً له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

ومناسبة هذه الجملة للتي قبلها: أن النافخ في العقد يريد أن يتوصل بهذا الشيء إلى حاجته ومآربه، فيُوكل إلى هذا الشيء المحرم.

ووجه آخر: وهو أن من الناس من إذا سحر عن طريق النفخ بالعقد ذهب إلى السحرة، وتعلق بهم، ولا يذهب إلى القراءات والأدوية المباحة والأدعية المشروعة، ومن توكل على الله كفاه قال تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله فهوحسبه إن الله بالغ أمره**﴾[2] وإذا كان الله حسبك فلابد أن تصل إلى ما تريد.

لكن من تعلق شيئا من المخلوقين وكل إليه، ومن وكل إلى شيء من المخلوقين وكل إلى ضعف وعجز وعورة، وقد يشمل الحديث من اعتمد على

---

(١) ص (٦)

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٥.

. . . .

نفسه، وصار معجباً بما يقول ويفعل، فإنه يوكل إلى نفسه، ويوكل إلى ضعف، وعجز، وعورة. ولهذا ينبغي أن تكون دائماً متعلقاً بالله في كل أفعالك وأحوالك حتى في أهون الأمور.

ونقول للإنسان: اعتمد على نفسك بالنسبة للناس، فلا تسألهم ولا تستذل أمامهم واستغن عنهم ما استطعت، أما بالنسبة لله فلا تستغن عنه، بل كن دائماً معتمداً على ربك حتى تتيسر لك الأمور، ومن هذا النوع من يتعلقون ببعض الأحراز يعلقونها، فإنهم يوكلون إلى هذا، ولا يحصل لهم مقصودهم، لكنهم لو اعتمدوا على الله، وسلكوا السبل الشرعية حصل لهم ما يريدون، ومن هذا النوع أيضاً من تعلق شيئاً من هذه القبور، وجعلها ملجأه ومغيثه عند طلب الأمور، فإنه يوكل إليه والإنسان قد يفتن ويحصل له المطلوب بدعاء هؤلاء، ولكن هذا المطلوب الذي حصل حصل عند دعائهم لا بدعائهم، والآية صريحة. قال تعالى: **﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة... ﴾**[1] لكن الله تعالى قد يفتن من شاء من عباده.

مناسبة الحديث:

أن هؤلاء الذين يتعلقون بالسحر، ويجعلونه صناعة يصلون بها إلى مآربهم يوكلون إلى ذلك، وآخر أمرهم الخسارة والندم.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣.

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة: القالة بين الناس»**[1].

قوله: «ألا»: أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: **«هل أنبئكم ما العضه»**:

الاستفهام للتشويق كقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾**[2].

لأن الإنسان مشتاق إلى العلوم يحب أن يعلم، وقد يكون المراد به التنبيه؛ لأن الموجه إليه الخطاب ينبغي أن ينتبه ليعلم وهي تصلح للجميع.

ومعنى أنبئكم: أخبركم وهي مرادفة للخبر في اصطلاح المحدثين. وقال بعض العلماء، من ناحية اللغة لا الاصطلاح: أن الإنباء لغة يكون في الأمور الهامة، والإخبار أعم منه يكون في الهامة وغير الهامة.

قوله: **«العضة»** على وزن الحبل والصمت والجعل، والعضه بمعنى القطع، وأما العِضة فإنها التفريق، وأياً كان فإنها تتضمن قطعاً وتفريقاً.

قوله: **«هي النميمة»**.

فعيلة بمعنى مفعولة وهي من نمّ الحديث إلى غيره أي نقله، والنميمة فسرها مرة ثانية بقوله: **«القالة بين الناس»** أي نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث، ونقله، وسواء كان صادقاً أو كاذباً، فإن كان كاذبا فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقاً فهو نميمة.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة/باب تحريم النميمة ٤/٢٠١٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ١٠.

. . . .

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[1] فتجد هذين الرجلين صديقين فيأتي هذا النمام فيقول لأحدهما صاحبك يسبك، فتنقلب هذه المودة إلى عداوة، فيحصل التفرق، وهذا يشبه السحر بالتفريق؛ لأن السحر فيه تفريق قال تعالى: ﴿**فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾[2].

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**»[3] أي نمام وفي حديث ابن عباس المتفق عليه أنه ﷺ «مر بقبرين يعذبان أحدهما كان يمشي بالنميمة»[4].

والنميمة كما هي من كبائر الذنوب، فهي في الحقيقة خلق ذميم، ولا ينبغي للإنسان أن يطيع النمام مهما كانت حاله قال تعالى: ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم**﴾[5] واعلم أن من نم إليك نم فيك أو منك فاحذره.

وهي أيضا سبب من أسباب فساد المجتمع؛ لأن هذا النمام إذا أراد أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٢٢٧، ٦/٤٥٩، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/٤٩٤، وأورده الهيثمي في المجمع ٨/٩٣: «رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحمد أسانيده رجال الصحيح».

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب/باب ما يكره من النميمة ٤/١٠١، ومسلم في الإيمان/باب غلظ تحريم النميمة ١/١٠١، ولفظه: «لا دخل الجنة نمام» من حديث حذيفة رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء/باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله ١/٨٩، ومسلم في الطهارة/باب الدليل على نجاسة البول ١/٢٤٠ من حديث ابن عباس.

(٥) سورة ن، الآيتان: ١٠، ١١.

وهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن من البيان لسحرا»**(١).

يسلط على كل صديقين متحابين، ويفرق بينهما بنميمته فسد المجتمع؛ لأن المجتمع مكون من أفراد له، فإذا تفرقت صار كما قال الله عز وجل: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**(٢) وإذا لم يكن المجتمع كإنسان واحد فإنه لا يمكن أن يكون مجتمعاً، فهو أفراد متناثرة، والأفراد المتناثرة ليس لها قوة ولهذا قال الشاعر:

لا تخاصم بواحدٍ أهل بيت   فضعيفان يغلبان قويا

وقال الآخر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا   فإذا افترقن تكسرت أفرادا

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية لوجدناها تحرم كل ما يكون سببا للتفرق والقطيعة قال ﷺ: **«ولا يبيع بعضكم على بيع بعض»**(٣) وقال: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه»(٤) وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

قوله: **«إن من البيان»**:

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح/باب الخطبة ٣٧٤/٣، من حديث ابن عمر، ومسلم في الجمعة/باب تخفيف الصلاة والخطبة ٥٩٤/٢ من حديث عمار بن يسار.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع/باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه ٩٩/٣، ومسلم في البيوع/باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه ١١٥٤/٣ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في النكاح/باب لا يخطب على خطبة أخيه ٣٧٣/٣، ومسلم في النكاح/باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه ١٠٢٩/٢ من حديث أبي هريرة.

«إن» حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، و«من» يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس.

قوله: **«لسحرا»**:

اللام للتوكيد و«سحرا» اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان قال تعالى: **﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾**[1].

والبيان نوعان:

الأول: بيان ما لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال إني جعت، وإذا عطش قال إني عطشت وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»**.

وعلى هذا التقسيم تكون «من» للتبعيض أي بعض البيان ـ وهو البيان الكامل الذي هو الفصاحة ـ سحرا.

أما إذا جعلنا البيان بمعنى الفصاحة فقط صارت «من» لبيان الجنس.

ووجه كون البيان سحراً: أنه يأخذ بلب السامع، فيصرفه أو يعطفه، فيظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف إليه، ولهذا إذا أتى إنسان يتكلم بكلام معناه باطل لكن لقوة فصاحته وبيانه، يسحر السامع حقاً، فينصرف إليه، وإذا تكلم إنسان بليغ يحذر من حق، ولفصاحته وبيانه يظن السامع أن هذا الحق باطل، فينصرف عنه، وهذا من السحر الذي يسمونه العطف والصرف، والبيان يحصل به عطف وصرف، فالبيان في الحقيقة بمعنى

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٣، ٤.

. . . .

الفصـاحـة، ولا شك أنها تفعل فعل السحر، وابن القيم يقول عن الحور: حديثها السحر الحلال.

والبيان سحر، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد فالبيان من حيث هو بيان، لا يمدح عليه، ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبـات الباطل فهو مذموم؛ لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل فهو ممدوح[1]، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي الدعوة إلى الله فهو خير من العيّ، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه والعي خير منه، والبيان لا شك أنه نعمة. ولهذا امتن الله به على العبد فقال تعالى: ﴿علمه البيان﴾[2].

وجه مناسبة الحديث للباب:

المؤلف كان حكيماً في تعبيره بالترجمة حيث قال: باب بيان شيء من أنواع السحر، ولم يحكم عليها بشيء؛ لأن منها ما هو شرك، ومنها ما هو حرام ومن كبائر الذنوب، ومنها ما هو جائز على حسب ما يقصد به وعلى حسب تأثيره وآثاره.

---

(١) فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح ولا يذم.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٤.

فيه مسائل :

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. **الثانية** : تفسير العيافة والطرق. **الثالثة** : أن علم النجوم نوع من السحر. **الرابعة** : العقد مع النفث من ذلك. **الخامسة** : أن النميمة من ذلك. **السادسة** : أن من ذلك بعض الفصاحة.

قال: «**فيه مسائل**»: أي في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار، مسائل.

المسئلة الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية : تفسير العيافة والطرق وقد بيّنت في الباب أيضاً وشرحت.

الثالثة : أن علم النجوم نوع من السحر لقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**» وسبق الكلام عليها أيضاً.

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك، لحديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**» وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة : أن النميمة من ذلك؛ لحديث ابن مسعود: «**ألا هل أنبئكم ما العضة هي النميمة**» وهي من السحر؛ لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة، أي من السحر بعض الفصاحة؛ لقول النبي ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**» والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة، استدلالاً بقوله ﷺ: «**إن من البيان**»؛ لأن من هنا

للتبعيض. ووجه ذلك من السحر أن لسان البريق ذا البيان قد يسرق الهمم وقد يلهب الهمم بما عنده من الفصاحة.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

الكهـان: جمع كاهن والكهنة أيضاً جمع كاهن. وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما جاء في السماء، تسترق السمع من السماء، وتأتي وتخبر الكاهن، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقـده الناس عالماً بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل، يقولون سيقع كذا وسيقع كذا، وليس من الكهانة في شيء من يخبر عن أمور تدرك بالحساب؛ فإن الأمور التي تدرك بالحساب ليست من الكهانة في شيء، كما لو أخبر عن كسوف الشمس أو خسوف القمر، فهذا ليس من الكهانة؛ لأنه يدرك بالحساب. وكما لو أخبر أن الشمس تغرب في ٢٠ من برج الميزان مثلا في الساعة كذا وكذا، فهذا ليس من علم الغيب؛ وكما يقولون إنه سيخرج في أول العام أو العام الذي بعده مذنب (هالي)، وهو نجم له ذنب طويل، فهذا ليس من الكهانه في شيء، لأنه من الأمور التي تدرك بالحساب، فكل شيء يدرك بالحساب، فإن الأخبار عنه ولو كان مستقبلاً لا يعتبر من علم الغيب، ولا من الكهانة.

وهل من الكهانة ما يخبر به الآن من أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة أو ما أشبه ذلك؟ الجواب: لا لأنه أيضاً يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفة معينة تعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحاً لأن يمطر، أو لا يمطر. ونظير ذلك في العلم البدائي إذا رأينا

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**(١).

السماء، وتجمع الغيوم والرعد والبرق وثقل السحاب، نقول يوشك أن ينزل المطر.

فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب، وإن كان بعض العامة يظنون إن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبح كما قال السفاريني:

فكل شيء معلوم بحس أو هجاء ... إنكاره جهل قبيح بالحجا

فالذي يعلم بالحسن لا يمكن إنكاره ولو أن أحداً أنكره مستنداً بذلك إلى الشرع لكان ذلك طعناً بالشرع.

قوله: «من»: شرطية فهي للعموم:

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة أي من ينتسب إلى العرافة.

والعراف قيل: هو الكاهن، وهو الذي يخبر عن المستقبل.

وقيل: هو اسم عام للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يستدل على معرفة الغيب بمقدمات يستعملها، وهذا المعنى أعم، ويدل عليه الاشتقاق، إذ هو مشتق من المعرفة، فيشمل كل من تعاطى هذه الأمور وادّعى بها المعرفة.

قوله: **«فسأله لم تقبل له»**.

---

(١) أخرجه مسلم في السلام/باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ١٧٥١/٤ دون قوله: «فصدقه» وقد أخرج هذه الزيادة الإمام أحمد في مسنده ٦٨/٤، ٣٨٠/٥.

. . . .

ظاهـر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يوما، ولكنه ليس على إطلاقه فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسـأله سؤالا مجرداً فهذا حرام؛ لقول النبي ﷺ من أتى عرافاً. . . »[1] فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه؛ إذ لا عقوبة إلا على مُحرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله، فهذا كفر؛ لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن.

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره، هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد فقال: «**ماذا خبأت لك؟ قال الدخ فقال: اخسـأ فلن تعدو قدرك**»[2] فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره له، فأخبره به لأجل أن يختبره.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور، وهذا قد يكون واجباً أو مطلوبا.

وإبطال قول الكهنة لاشك أنه أمر مطلوب، وقد يكون واجبا، فصار السؤال هنا ليس على إطلاقه، بل يفصل فيه هذا التفصيل على حسب ما دلت عليه الأدلة الشرعية الأخرى.

وقـد أخـبر شيخ الإسـلام عنهم، أن الجن يخدمون الإنس في أمور، والكهان يستخدمون الجن، ليأتوهم بخبر السماء، فيضيفون إليه من الكذب

---

(١) سبق ص (٤٨)

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ٢/٣٧٤ ومسلم في الفتن/باب ذكر ابن صياد ٤/٤٤٢٢ من حديث ابن عمر.

ما يضيفون. وخدمة الجن للإنس ليست محرمة على كل حال، بل هي على حسب الحال.

فالجني يخدم الإنس في أمور لمصلحة الإنس، وقد يكون للجن فيها مصلحة، وقد لا يكون له فيها مصلحة؛ بل لأنه يحبه في الله ولله، ولا شك أن من الجن مؤمنين يحبون المؤمنين من الإنس؛ لأنه يجمعهم الإيمان بالله.

وقد يخدمونهم لطاعة الإنس لهم فيما لا يرضى الله عز وجل؛ إما في الذبح لهم، أو في عبادتهم، أو ما أشبه ذلك.

والأغرب من ذلك أنهم ربما يخدمون الإنس لأمر محرم من زنا أو لواط! لأن الجنية قد تستمتع بالإنسي بالعشق والتلذذ بالاتصال به، أو بالعكس، وهذا أمر معلوم مشهود، حتى ربما أن الجني الذي في الإنسان ينطق بذلك، كما يعلم من الذين يقرؤن على المصابين بالجن.

والنبي ﷺ حضر إليه الجن وخاطبهم، وأرشدهم، ووعدهم بعطاء لا نظير له، فقال لهم: «**كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة فهي علف لدوابكم**»[1] وذكر أن في عهد عمر رضي الله عنه امرأة لها رئي من الجن، وكانت توصيه بأشياء، حتى إنه تأخر عمر ذات يوم، فأتوا إليها فقالوا: ابحثي لنا عنه، فذهب هذا الجني الذي فيها، وبحث وأخبرهم أنه في مكان كذا، وأنه يسم إبل الصدقة[2].

قوله: «**فصدقَهَ**»:

ليست في صحيح مسلم، بل الذي في مسلم: «فسأله لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» والظاهر: أن المؤلف إما أن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة/باب الجهر بالقراءة في الصبح ١/٣٣٢ من حديث ابن مسعود.

(٢) آكام المرجان في أحكام الجان ص (٣٨).

. . . .

«فصـدقـه»، أو أن المؤلف عزاه إلى مسلم باعتبار أصله، فأخذ من مسلم، «فسأله»، وأخذ من أحمد «فصدقه».

قوله: **«لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**:

نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أولاً[1]؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيا للصحة، كما لو قلت من صلى بغير وضوء، لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب، لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي، إما نفي القبول التام أي لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة. وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطها.

ومثله قوله ﷺ: **«من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً»**[2].

---

(١) آكام المرجان في أحكام الجان ص (٣٨).

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥، والترمذي في كتاب الأشربة/باب ما جاء في شارب الخمر ٦/ ١٣٩، وقال: «حديث حسن» من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
وأخرج الإمام أحمد في مسنده ٢/ ١٧٦، ١٨٩، ١٩٧، وابن ماجه في كتاب الأشربة/باب من شرب الخمر لم تقبل له صلاة ٢/ ١١٢٠ نحوه من حديث عبد الله بن عمرو.
وكذا أخرج أبو داود في ا لأشربة/باب النهي عن المسكر ٤/ ٧٦ نحوه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله: «**أربعين يوماً**»:

هذه لا يمكننا أن نعللها، وأنا لا أعلم علتها؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالباً أن يعرف حكمته. فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك، فهذا من الأمور التي يقصد بها التعبد لله، والتعبـد لله بما لا تعـرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته، وصحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن ما لا نعرف حكمته كون الإنسان ينقاد له، وهو لا يعرف الحكمة دليل على كمال الانقياد، والتعبد لله عز وجل، فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذاً له وقبولاً. فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه. ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم**﴾(1).

فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى.

ويؤخـذ من الحـديث: تحريم إتيان العـراف وسؤالـه؛ إلا ما استثنى كالقسم الثالث والرابع؛ لما في إتيانهم وسؤالهم من المفاسد العظيمة، التي ترتب على تشجيعهم وإغراء الناس بهم. وهم في الغالب يأتون بأشياء كلها باطلة.

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدٍ** ﷺ» رواه أبو داود[1].

قوله: «**من أتى كاهن**».

تقدم معنى الكاهن[2] وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قولـه: «**فصدقهُ**» أي نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر بمعنى تثبيته وتحقيقه. فقال هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «**بما يقول**»:

«ما» عامة في كل ما يقول حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه؛ لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله: «**فقد كفر بما أنزل على محمد**».

أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل قال تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين**﴾[3] وقال تعالى: ﴿**قل نزله روح القدس من ربك**﴾[4] وبهذا نعرف أن القول الراجح في

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٤٠٨، ٤٧٦، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/١٦، ١٧ وأبو داود في الطب/باب في الكاهن ٤/٢٢٥، والترمذي في الطهارة/باب في كراهية إتيان الحائض ١/١٦٤ وقال: «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي هريرة... وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده».
وأخرجه ابن ماجه في الطهارة/باب النهي عن إتيان الحائض ١/٢٠٩ والدارمي ١/٢٥٩، وابن الجارود (٢٠٧)، والعقيلي ١/٣١٨، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/٤٤، والبيهقي في السنن ٧/١٩٨، والحاكم ١/٨ وصححه على شرط الشيخين.
والحديث صححه الألباني في الإرواء ٧/٦٨.

(٢) (٤٧)

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٢، ١٩٣.

(٤) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

. . . .

الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله؛ لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سنداً من القرآن؛ حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

ولأنه لو كان من كلام الله لفظا لوجب أن تثبت له أحكام القرآن؛ لأن الشرع لا يفرق بين المتماثلين، وقد علم أن أحكام القرآن لا تنطبق على الحديث القدسي، فهو لا يتعبد بتلاوته، ولا يقرأ في الصلاة، ولا يعجز لفظه، ولو كان من كلام الله لكان معجزاً؛ لأن كلام الله لا يماثله كلام البشر، وأيضا باتفاق أهل العلم ـ فيما أعلم ـ أنه لو جاء مشرك يستجير ليسمع كلام الله وأسمعناه الأحاديث القدسية، فلا يصح أن يقال: إنه سمع كلام الله.

فدل هذا على أنه ليس من كلام الله، وهذا هو الصحيح، وللعلماء في ذلك قولان: هذا أحدها، والثاني أنه من قول الله لفظاً.

فإن قال قائل: كيف تصححون هذا، والنبي ﷺ ينسب القول إلى الله، ويقول: قال الله تعالى. ومقول القول هو هذا الحديث المسوق؟

قلنا: هذا كما قال الله تعالى عن موسى وفرعون وإبراهيم. قال موسى، قال فرعون، قال إبراهيم. . . مع أننا نعلم أن هذا اللفظ ليس من كلامهم، ولا قولهم، لأن لغتهم ليست اللغة العربية، وإنما نقل نقلا عنهم ويدل لهذا أن القصص في القرآن تختلف بالطول والقصر والألفاظ، مما يدل على أن الله سبحانه ينقلها بالمعنى. ومع ذلك ينسبها إليهم كما قال تعالى: ﴿**وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني**﴾[1] وقال عن موسى:

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٢٦، ٢٧.

وللأربعة، والحاكم وقال:

﴿**وقال موسى لقومه استعينوا بالله**﴾[1] وقال عن فرعون: ﴿**قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم**﴾[2].

قوله: «**بما أنزل على محمد**».

ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله سبحانه وتعالى بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله؛ لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «**كفر بما أنزل على محمد**»:

وجه ذلك: أن ما أنزل على محمد قال الله تعالى فيه: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾[3] وهذا من أقوى طرق الحصر؛ لأن فيه النفي والإثبات فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب، وهو يعلم أنه لا يعلم الغيب إلا الله، فهو كافر كفراً أكبر مخرجاً عن الملة وإن كان جاهلا، ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر.

قوله: «**وللأربعة والحاكم**».

الأربعة هم أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه. والحاكم ليس من أهل السنن، لكن له كتاب سمي صحيح الحاكم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٣٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٥.

صحيح على شرطهما عن أبي هريرة: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[1] ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثلُهُ موقوفاً[2].

قوله: «**صحيح على شرطهما**»:

أي شرط البخاري ومسلم، لكن قول على شرطهما هذا على ما يعتقد وإلا فقد يكون الأمر على خلاق ذلك

ومعنى قوله على شرطهما: أي أن رجاله رجال الصحيحين، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

ونحن لا ننكر أن هناك أحاديث صحيحه لم يذكرها البخاري ومسلم؛ لأنهما لم يستوعبا الصحيح كله، وهذا أمر واقع، ولكن ينظر في قول من قال: إن هذا الحديث على شرطهما، فقد تكون فيه علة خفية خفيت على هذا القائل، فيكون البخاري ومسلم علماها وتركا الحديث من أجلها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢/٤٢٩، والحاكم في المستدرك ١/٨ وصححه على شرطهما، والبيهقي ٨/١٣٥.

وقال الشارح الشيخ سليمان في تيسير العزيز الحميد ص (٤٠٩): «قال العراقي في أماليه: حديث صحيح، وقال الذهبي: إسناده قوي، وعلى هذا فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك فإنه لم يروه أحمد منهم، وأظنه تبع في ذلك الحافظ فإنه عزاه في الفتح إلى أصحاب السنن والحاكم فوهم، ولعله أراد الذي قبله». وانظر فتح الباري ١٠/٢١٧، فيض القدير ٦/٢٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٠٠٥) والبزار كما في كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/٤٤٣.

قال المنذري في الترغيب ٤/٣٦: «رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفا» وقال الهيثمي في المجمع ٥/١١٨: «ورجال الكبير والبزار ثقات»، وقال الحافظ في الفتح ١٠/٢١٧: «إسناده جيد».

. . . .

قوله: «**صحيح**»: يقولون: الحاكم ممن يتساهل بالتصحيح، ولهذا قالوا لا عبرة بتصحيح الحاكم، ولا بتوثيق ابن حبان، ولا بوضع ابن الجوزي، ولا بإجماع ابن المنذر.

وهذا القول فيه مجازفة في الحقيقة، لأن كلمة لا عبرة أي لا يلتفت إليه، وإنما لا يؤخذ مقبولاً في كل حال، مع أني تدبرت كلام ابن المنذر رحمه الله، ووجدت أنه دائما إذا نقل الإجماع، يقول إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم، وهو بهذا قد احتفظ لنفسه؛ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ولكننا مع ذلك إذا كان الرجل ذا اطلاع واسع، فقد يكون هذا القول إجماعاً. أما إذا كان هذا الرجل لا يعرف إلا ما حوله فإن قوله هذا لا يكون إجماعاولا يوثق به، ولا نحكم بأنه إجماع.

مثاله لو قال رجل لم يدرس إلا المذهب الحنبلي؛ في مسألة، وقال هذا إجماع من نحفظ قوله من أهل العلم. فإن قوله هذا ليس نقلاً للإجماع؛ لأنه لم يحفظ إلا قولاً قليلاً من أقوال أهل العلم.

قوله: «**من أتى عرافاً أو كاهنا**»:

«أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه؛ لأن كثرة الأدلة مما يقوى المدلول، أرأيت لو أن رجلاً أخبرك بخبر فوثقت به ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقاً وقوة. ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

وظاهر صنيع المؤلف: أن حديث أبي هريرة: «**من أتى عرافاً أو كاهنا**»

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: **«ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحـر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»** رواه البزار بإسناد جيد[1] ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى - إلى آخره»[2].

أنه موقوف؛ لأنه قال عن أبي هريرة، ولكنه لما قال في الذي بعده «مثله موقوفاً»، ترجح عندنا أن الحديث الذي قبله مرفوع.

قوله: **«ليس منا»**. تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: **«مرفوعاً»**. أي إلى النبي ﷺ.

قوله: **«تطير»**:

التطير هو: التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون، أو يتفاءلون بها. وقد سبق ذلك[3].

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله شيء، تركه وتشاءم. فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وما دمت أنك تعلم أن في هذا الأمر خيراً فغامر فيه، ولا تشاءم؛ لأنك لم توفق فيه لأول مرة. فكم من إنسان لم يوفق في العمل أول مرة، ثم وفق في ثاني مرة

---

(1) أخرجه البزار كما في الترغيب ٤/٣٣، ومجمع الزوائد للهيثمي ٥/١١٧، وقال المنذري: «إسناده جيد»، وقال الهيثمي: «ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة».

(2) قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١١٧: «رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه زمعة بن صالح وهو ضعيف».

وقال المنذري في الترغيب ٤/٣٣: «إسناده حسن».

(3) ص (٣١)

. . . .

أو ثالث مرة، ويقال إن الكسائي ـ إمام النحو ـ طلب النحو عدة مرات، ولكنه لم يوفق، فرأى نملة تحمل نواة تمر، فتصعد بها إلى الجدار، فتسقط، حتى كررت ذلك عدة مرات، ثم صعدت بها إلى الجدار، وتجاوزته. فقال ـ سبحان الله ـ هذه النملة تكابد هذه النواة، حتى نجحت، إذن أنا سأكابد علم النحو حتى أنجح فكابد فصار إمام أهل الكوفة في النحو.

قوله: «**أو تُطير له**». بالبناء للمفعول أي أمر من يتطير له، مثل: أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك؛ لأنظر هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «**من تطير**» يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

وقوله: «**أو تكهن أو تكهن له**».

سبق أن الكهانة ادعاء علم الغيب في المستقبل[1]، يقول: سيكون كذا وكذا وربما أن قوله يقع فهذا متكهن، ومن الغريب أنه شاع الآن في أسلوب الناس قولهم تكهن بأن فلانا سيأتي، ويطلقون هذا اللفظ الدال على عمل محرم، على أمر مباح وهذا لا ينبغي؛ لأن العامي الذي لا يفرق بين الأمور، يظن أن الكهانة كلها مباحة بدليل إطلاق هذا اللفظ على شيء مباح معلوم إباحته.

قوله: «**أو تكهن له**»:

أي طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول: للكاهن ماذا يصيبني غداً، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية. وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «**أو سَحَر أو سُحِر له**». تقدم تعريف السحر؛ وتقدم بيان أقسامه[2].

---

(١) ص (٤٧).　(٢) ص (٦).

قال البغوي: العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

قوله: «**أو سُحِر له**».

أي طلب من الساحر أن يسحر له؛ ومنه النشرة عن طريق السحر، فهي داخلة فيه؛ وكانوا يستعملونها على وجوه متنوعة. منها أنهم يأتون بطست فيه ماء، ويصبون فيه رصاصاً، فيتكون هذا الرصاص بوجه الساحر، أي: تكون صورة الساحر في هذا الرصاص، ويسمونها العامة عندنا «صب الرصاص» وهذا من أنواع السحر المحرم، وقد تبرأ رسول الله ﷺ من فاعله[1].

الشاهد من هذا الحديث:

قوله: «**ومن أتى كاهناً.... إلخ**» وقوله: «ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد من حديث ابن عباس... إلخ» فيكون هذا مقوياً للأول.

قوله: «**قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...**».

العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.

وهو الذي يدعي معرفة الأشياء، وليس كل من يدعي معرفة يكون عرافاً، لكن من يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

وظاهر كلام البغوي رحمه الله: أنه شامل لمن ادعى معرفة المستقبل والماضي؛ لأن مكان المسروق ماض قد سرق، وكذلك الضالة قد حصل

---

(١) سبق ص (٥٨)

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(١).

الضياع، ولكن المسألة ليست اتفاقية بين أهل العلم، ولهذا قال المؤلف رحمه الله وقيل: هو الكاهن.

والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

قوله: **«وقيل هو الذي يخبر عما في الضمير»**:

أي أن تضمر شيئا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي وهو لا يدري؟

فهذا من الكهانة.

فالعلماء في تعريف العراف فقيل هو: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها، فيكون شاملاً لمن يخبر عن أمور وقعت.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، أو الذي يخبر عما في الضمير.

قوله: **«وقال أبو العباس بن تيمية»**:

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية ولكنه ـ والله أعلم ـ كان مشغولاً بالجهاد

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ١١/٢٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/١٣٩.

. . . .

العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولداً مدفون إلى جانبه في دمشق، فهذا غير صحيح.

وظاهر كلام الشيخ: أن شيخ الإسلام جزم بهذه، ولكن شيخ الإسلام قال: وقيل العراف، وذكره بقيل، ومعلوم أن ماذكر بقيل ليس مما يجزم بأن الناقل يقول به، صحيح أنه إذا نقله ولم ينقضه، فهذا دليل على أنه ارتضاه.

وعلى كل حال فشيخ الإسلام ساق هذا القول، وارتضاه ثم قال: ولو قيل: إنه اسم خاص لبعض هؤلاء الرمال والمنجم ونحوهم، فإنهم يدخلون فيه بالعموم المعنوي؛ لأن عندنا عموماً معنوياً، وهو ما ثبت عن طريق القياس، وعموما لفظياً، وهو مادل عليه اللفظ، بحيث يكون اللفظ شاملاً، ودلالته على النظير يسمى عموماً معنوياً، لاتفاقهما في العلة الشاملة لهذا ولهذا.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن استخدام الإنس للجن له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يستخدمهم في طاعة الله، كأن يكون له نائبا في تبليغ الشرع، فمثلا إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعاً فهذا لابأس به، بل إنه قد يكون أمراً محموداً أو مطلوباً، وهو من الدعوة إلى الله عز وجل، والجن حضروا للنبي ﷺ، وقرأ عليهم القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين[1]، والجن فيهم الصلحاء والعباد والزهاد والعلماء؛ لأن المنذر لابد أن يكون عالما بما ينذر، عابدا مطيعاً لله سبحانه في الإنذار.

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن...﴾ (سورة الزخرف، الآية ٢٩).

. . . .

الحالة الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل: أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت محرمة، صار حراماً، كما لوكان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له، أو سجد له، أو ما أشبه ذلك.

ثم ذكر ما ورد أن عمر تأخر ذات مرة في سفره، فاشتغل فكر أبي موسى، فقالوا له: إن امرأة من أهل المدينة لها صاحب من الجن، فلو أمرتها أن ترسل صاحبها للبحث عن عمر ففعل، فذهب الجني، ثم رجع، فقال إن أمير المؤمنين ليس به بأس، وهو يسم إبل الصدقة في المكان الفلاني[1]، فهذا استخدام في أمر مباح.

الحالة الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركا صار شركا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الأنسي الفاسق، ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثما وعدوانا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من يسأل الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ورد ذلك عنه ﷺ[2] وهي: ﴿**الله لا إله إلا هو الحي القيوم**﴾ الآية.

قوله: «**يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم**» الواو هنا ليست عطفاً،

---

(١) سبق ص (٥٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الوكالة (باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل ٤/١٤٩.

. . . .

ولكنها للحال، يعني والحال أنهم ينظرون، فيربطون ما يكتبون بسير النجوم وحركتها.

قوله: «**ما أُرى من فعل ذلك**». ويجوز بفتح الهمزة بمعنى أعلم وبالضم بمعنى ما أظن.

وقوله: «**أباجاد**». هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ. . . وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به. وما زال اناس يستعملونها، حتى العلماء يؤرخون بها، قال شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في تاريخ بناء المسجد الجامع القديم:

جد بالرضا واعط المنى من ساعدوا في ذا البنا
تاريخه حين انتهى قوله المنيب اغفر لنا
والشهر في شوال يا رب تقبل سعينا

فقوله: «**اغفر لنا**» لو عددناها صارت **١٣٦٢**هـ.

وقد اعتنى بها العلماء في العصور الوسطى، حتى في القصائد الفقهية والنحوية وغيرها.

ويؤرخون بها مواليد العلماء ووفياتهم، ولم يرد ابن عباس هذا القسم.

الثاني: محرم، وهو كتابة «أباجاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها وينظرون في النجوم، ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض، إما على سبيل العموم كالجدب والمرض والحرب، وما أشبه ذلك، أو على سبيل الخصوص، كأن يقول لشخص: سيحدث لك مرض أو فقر أو سعادة أو نحس في هذا، وما أشبه ذلك، فهم يربطون هذه بهذه، وليس هناك علاقة بين حركات والنجوم واختلاف الوقائع في الأرض.

. . . .

وقوله: **«ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»**:

قوله: **«خلاق»** أي: نصيب.

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم ؛ لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفى النصيب مطلقا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

ولم يبين المؤلف رحمه الله حكم الكاهن والمنجم والرمال من حيث العقوبة في الدنيا، وذلك أننا إن حكمنا بكفرهم، فحكمهم في الدنيا أنهم يستتابون، فإن تابوا، وإلا قتلوا كفاراً.

وإن حكمنا بعدم كفرهم، إما لكون السحر لا يصل إلى الكفر، أو قلنا أنهم لا يكفرون؛ لأن المسألة فيها خلاف، فإنه يجب قتلهم لرفع مفسدتهم ومضرتهم - حتى وإن قلنا بعدم كفرهم؛ لأن أسباب القتل ليست مختصة بالكفر فقط، بل للقتل أسباب متعددة ومتنوعة قال تعالى: **﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾**[1] فكل من أفسد على الناس أمور دينهم أو دنياهم فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ولا سيما إذا كانت هذه الأمور تصل إلى الإخراج من الإسلام.

والنظر في النجوم ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يستدل بحركاتها وسيرها على الحوادث الأرضية، سواء كانت عامة، أو خاصة فهو محرم إن اعتقد أن هذه النجوم هي المدبرة للأمور، أو أن

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

. . . .

لها شركا فهو كفر مخرج عن الملة، وإن اعتقد أنها سبب فقط، فكفره غير مخرج عن الملة. ولكن يسمى كفراً، لقول النبي ﷺ - «على إثر سماء كانت من الليل - هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، أما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وقد سبق لنا أن هذا الكفر ينقسم إلى قسمين بحسب اعتقاد قائله[2].

الثاني: أن يتعلم علم النجوم، ليستدل بحركاتها وسيرها على الفصول وأوقات البذر والحصاد والغرس، وما أشبهه؛ فهذا من الأمور المباحة؛ لأنه يستعان بذلك على أمور دنيوية.

القسم الثالث: أن يتعلمها لمعرفة أوقات الصلوات وجهات القبلة، وما أشبه ذلك من الأمور المشروعة، فالتعلم هنا مشروع، وقد يكون فرض كفاية، أو فرض عين.

---

(١) يأتي ص (١٢٧).

(٢) ص (٣٦).

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن ، **الثانية** : التصريح بأنه كفر، **الثالثة** : ذكر من تُكهن له . **الرابعة** : ذكر من تطير له ، **الخامسة** : ذكر من سحر له

فيه مسائل :

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن :

يؤخذ من قوله : «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**» . ووجهه أنه كذَّب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.

الثانية : التصريح بأنه كفر:

تؤخذ من قوله : «فقد كفر بما أنزل على محمد» .

الثالثة : ذكر من تُكهن له :

تؤخذ من حديث عمران بن حصين حيث قال : «**ليس منا**» أي : أنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه .

الرابعة : ذكر من تُطير له : تؤخذ من قوله : «**أو تطير أو تطير له**» .

الخامسة : ذكر من سحر له :

تؤخذ من قوله : «**أو سحر أو سُحر له**» .

وأتى المؤلف بذكر من تكهن له ، أو سحر له ، أو تطير له ؛ لأنه قد يعارض فيه معارض، فيقول هذا في الكهان، وهذا في المتطيرين، وهذا في السحرة ، فقال : إن من طلب أن يفعل له ذلك فهو مثلهم في العقوبة .

السادسة: ذكر من تعلم أباجاد،

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم؛ إلا على حسب الحالة التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك[1].

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف:

وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور، فهو أعم من الكاهن؛ لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

فالعراف أعم، أو أن العراف يختص بالماضي، والكاهن بالمستقبل، فهما متباينان؛ فالظاهر أنها متباينان.

---

(١) ص (٦٤).

باب ما جاء في النُّشرة

تعريف النشرة:

في اللغة: بضم النون فُعْلَة من النشر وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

لأن هذا الذي يحل السحر عن المسحور، يرفعه، ويزيله، ويفرقه.

أما حكمها، فهو يتبين مما قاله المؤلف رحمه الله، وهو من أحسن البيانات.

ولا ريب أن حل السحر عن المسحور من باب الدواء والمعالجة، وفيه فضل كبير لمن ابتغى به وجه الله، لكن في القسم المباح منها.

لأن السحر له تأثير على بدن المسحور وعقله ونفسه وضيق الصدر، حيث لا يأنس إلا بمن استعطف عليه.

وأحيانا يكون أمراضا نفسية بالعكس، تنفر هذا المسحور عمن تنفره عنه من الناس وأحيانا يكون أمراضاً عقلية، فالسحر له تأثير إما على البدن، أو العقل، أو النفس.

قوله: «**النشرة**»:

أل للعهد الذهني أي: المعروفة عندهم التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر وهي على نوعين:

الأول: أن تكون بسحر.

الثاني: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك، فهو شرك أو معصية على حسب الحال، وإن كان بسحر،

عن جابر: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «**هي من عمل الشيطان**» رواه أحمد بسند جيد وأبو داود[1] وقال: سئل أحمد عنها فقال ابن مسعود يكره هذا كله.

فإن كان بالأدوية والرقي والعقد والنفث، وما أشبه ذلك، فهو محرم ولا يصل إلى الشرك، وإن كان باستخدام الشياطين فهو كالأول.

ومن ذلـك ما يفعله بعض الناس، أنهم يضعون فوق رأس المسحور طست فيه ماء، ويصبون عليه رصاص، ويزعمون أن الساحر يظهر وجهه في هذا الـرصاص، فيستدل بذلك على من سحره، وقد سئل الإمام أحمد عن النشرة فقال: إن بعض الناس أجازها فقيل له: إنهم يجعلون ماء في طست، وأنه يغوص فيه، وأنه يبدو وجهه، فنفض يده وقال: ما أدري ما هذا؟ ما أدري ماهذا؟ فكأنه رحمه الله توقف في الأمر.

فقد يكون من الشياطين، وقد يكون من غير الشياطين، وأجاز بعض أهل العلم هذا النوع، والصحيح: أنه محرم.

قوله: «**رواه أحمد بسند جيد وأبو داود**».

سند أبي داود إلى أحمد متصل؛ لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: «**فقال ابن مسعود يكره هذا كله**»:

أجاب رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا ما استدل به.

والمشـار إليه في قولـه: «**يكـره هذه كله**» كل أنواع النشرة، حتى ولو

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٢٩٤، وأبو داود في الطب/باب في النشرة ٤/٢٠١ وسكت عنه، وحسنه الحافظ في الفتح ١٠/٢٣٣.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٢: «رواه البزار والطبراني في الأوسط إلا أنه قال: «ذكروا أنها من عمل الشيطان» ورجال البزار رجال الصحيح».

وفي البخاري عن قتادة «قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته أيُحل عنه أو يُنشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم ينه عنه[1].

كانت ـ على رأي ابن مسعود ـ التمائم المعلقة، وما أشبهها ـ فإنه يكره ذلك[1].

وقوله: «**يكره**».

الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم، وعند المتأخرين خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿**وقضى ربك ألَّا تعبدوا إلَّا إياه وبالوالدين إحسانا**﴾[3] إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾[4] ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

وهذا الحديث بين فيه الرسول ﷺ حكم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، وهذا يغني عن قوله إنها حرام، بل هذا أشد من قوله إنها حرام؛ لأن ربطها بعمل الشياطين يقتضي تقبيحها، والتنفير عنها، فهي محرمة ودلالة النصوص على التحريم ليس أن تقول هذا حرام فقط؛ بل إذا ذكرت العقوبات، أو قرنت بأمر مكروه عند الله دل ذلك على أنه محرم.

قوله: «**رجل به طب**»:

أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليما والكسير جبيرا.

قوله: «**أو يُؤخذ عن امرأته**»:

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب/ باب هل يستخرج السحر ٤/٤٨، وانظر فتح الباري ١٠/٢٣٢.

(٢) انظر باب: ما جاء في الرقي والتمائم.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب فيبطل عمله عن المسحور. والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز.

أي يحبس عنها فلا يصل إلى جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

والعجيب أنه مشتهر عند الناس، أنه إذا كان عند العقد، وعقد أحد عقدة عند العقد، فإنه يحصل حبسه عن امرأته، وبالغ بعضهم فقال إذا شبك أحدهم بين أصابعه عند العقد، حبس الزوج عن أهله، وهذا لا أعرف له أصلاً، والحقيقة أن التشبيك ينبغي أن يكون ربطاً بين الزوجين.

ولكن كثيرا ما يقع حبس الزوج عن زوجه، ويطلبون العلاج.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن من العلاج أن يطلقها، ثم يراجع، فينفك السحر.

لكن لا أدري هل هذا يصح أم لا؟ فإذا صح، فالطلاق هنا جائز؛ لأنه طلاق للاستبقاء فيطلق كعلاج، ونحن لا نفتي بشيءٍ من هذا، بل نقول: لا نعرف عنه شيئاً.

و«أو» في قوله: «**أويؤخذ**» يحتمل أنها للشك. أي: أو قلت يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع: أي: أني سألته عن أمرين عن المسحور وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: «**أيحل عنه أو ينشر**»:

لا شك أن «أو» هنا للشك لأن الحل هو النشرة.

قوله: «**لا بأس به إنما يريدون به الإصلاح**»:

. . . .

كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار ونافع.

فالضار محرم قال تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾[1]، والنافع لا بأس به، وهذا ظاهر ما روي وبهذا أخذ أصحابنا الفقهاء فقالوا: يجوز حل السحر بالسحر للضرورة، وقال بعض أهل العلم: إنه لا يجوز حل السحر بالسحر، وحملوا، ماروي عن ابن المسيب، بأن المراد به مالا يعلم عن حاله هل هو سحر، أم غير سحر؟ أما إذا علم أنه سحر فلا يحل، ولا شك أن هذا حمل لكلام ابن المسيب على معنى قد يكون هو المراد، وقد يكون المراد غيره، وأنه يرى رحمه الله الجواز. ولكن على كل حال حتى ولو كان ابن المسيب ومن فوق ابن المسيب ممن ليس قوله حجة يرى أنه جائز، فليس معنى ذلك أن يكون جائزاً في حكم الله حتى يعرض على الكتاب والسنة، وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان»[2] ولا عجب أن يخطيء أحد من الصحابة، أو من التابعين في أمر من الأمور، ويكون في ذلك معذوراً.

فعلى رأي هؤلاء يكون حل السحر بالسحر على ثلاثة أقسام، وهو ما ذكره الشيخ سليمان في شرحه.

الأول: أن يكون بالسحر، وهذا حرام.

الثاني: أن يكون بدواء مباح أو قرآن أو أدعية مباحة، وهذا جائز، ويستدل لذلك بعموم قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾[3][4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سبق ص (٧٠).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٩.

(٤) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ٤/١٢٧: «والقلب إذا كان ممتلئاً من الله مغموراً بذكره، وله من التوجيهات والدعوات والأذكار ورد لا يخل به يطابق فيه قلبه لسانه كان هذا =

. . . .

وإذ اعلمنا أن في هذا العمل منفعة، فإنا نفعله، لأن الأدوية الحسية يعلم أنها دواء إما بطريق الوحي أو بالتجارب.

فالذي بطريق الوحي مثل قول النبي ﷺ: **«الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»**[1] وكذلك العسل كما قال تعالى: **«فيه شفاء للناس»**[2].

= من الأسباب التي تمنع إصابة السحر».

وقال: ص (١٢٤): «والمقصود ذكر هديه في علاج هذا المرض ـ أي ـ السحر ـ وقد روي عنه فيه نوعان:

أحدهما: ـ وهو أبلغهما ـ استخراجه وإبطاله، كما صح عنه، ﷺ، أنه سأل ربه سبحانه في ذلك فدل عليه فاستخرجه من بئر، فكان في مشط ومُشَاطة وجُفِّ طَلْعَةِ ذكر، فلما استخرجه ذهب مابه حتى كأنما أُنْشِط من عقال.

والنوع الثاني: الاستفراغ في المحل الذي يصل إليه أذى السحر، فإن للسحر تأثيراً في الطبيعة، فإذا ظهر أثره في عضو وأمكن استفراغ المادة الرديئة من ذلك العضو نفع جدا، وقد ذكر أبوعبيد في كتاب غريب الحديث بإسناده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى أن النبي، ﷺ، «احتجم على رأسه بقرن حين طُبَّ».

= ومن الرقى النافعة في علاج السحر قراءة آيات السِّحر في سورة الأعراف، ويونس، وطه في ماء ثم تصب على رأس المسحور.

وهناك نوع آخر، وهو: أن يدق سبع ورقات من سدر أخضر بين حجرين أو نحوهما، ثم يصب عليها مايكفيه للغسل من الماء، ثم يقرأ فيه: آية الكرسي، وقل ياأيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وآيات السحر في سورة الأعراف، ويونس، وطه، ثم يشرب من هذا الماء، ويغتسل بالباقي، ويذهب عنه مابه إن شاء الله، وقد جرب كثيراً ونفع بإذن الله، وهو جيد لمن حبس عن زوجته.

(١) أخرجه البخاري/باب المن شفاء للعين ٣٨/٤، ومسلم في الأشربة/باب فضل الكمأة ١٦١٩/٣ من حديث سعيد بن زيد.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٩.

. . . .

وأما التي بالتجارب، فكثيرة جداً. فالمستعملة الآن غالبها من التجارب.

الثالث: ما لا يعلم هل هو بالمباح أو بالمحرم؟ وحملوا كلام ابن المسيب على هذا النوع. الذي لا يعلم هل هو من المباح، أو من المحرم؟

فقالوا: مادام أنه نافع، ونحن في شك من دخوله في الحرام، فإنه يرتفع عنه الشك، ويحكم بإباحته؛ لأن القاعدة الشرعية أن ما لم يكن الأمر فيه واضحاً، فإن الحاجة تبيحه.

فالذي اجتنابه من باب الورع، فالحاجة تبيحه لعدم القطع بالتحريم.

ابن القيم رحمه الله يرى أن النشرة نوعان، ويحمل كلام ابن المسيب على الثاني المباح.

فيه مسائل : الأولى : النهي عن النشرة، **الثانية** : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال.

فيه مسائـــل :

الأولى : النهي عن النشرة :

تؤخذ من قوله ﷺ : «**هي من عمل الشيطان**» وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي ؛ لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله، وقوله : هذا من عمل الشيطان، وتقبيح الشيء، وما أشبه ذلك يدل على النهي.

الثانية : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه :

تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله، وتفصيله.

إشكال وجوابه :

ما الجمع بين قول الفقهاء رحمهم الله يجوز حل السحر بالسحر، وبين قولهم يجب قتل الساحر؟

الجواب : عندهم أن الساحر لا يكفر لكن يجب قتله، ولكن على تقدير أن هذا الساحر لم نستطع قتله، أو أن ولاة الأمور أبقوه، أو ما أشبه ذلك.

أو يقال : إن الساحر الذي لا يضر، وإنما ينفع الناس يُبقى إن قلنا بجواز عمله هذا، فلا وجه لكونه يقتل، وهذه المسألة تحتاج إلى تحرير أكثر.

باب ما جاء في التطيُّر

تعريف التطير :

في اللغـة : تفعـل مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر هل يذهب يميناً أو شمالاً ، أو ما أشبه ذلك ، فإن ذهب إلى الجهة التي فيها التيامن أقدم أوفيها التشاؤم أحجم وتركه .

أما في الاصطلاح : التشاؤم بمرئى أو مسموع وهذا من الأمور النادرة ؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح ؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيوداً تخصها مثل الصلاة لغة الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها .

وإن شئت فقل : التطير هو التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم .

بمرئي مثل : لو رأى طيراً فتشاءم لكونه موحشاً .

أو مسموع مثل : من هم بأمر فسمع أحداً يقول لآخر يا خسران ، أو يا خائب فيتشاءم .

أو معلوم : كالتشاؤم ببعض الأيام أو بعض الشهور أو بعض السنوات فهذه لا ترى ولا تسمع .

واعلم أن التطير ينافي التوحيد ووجه منافاته له من وجهين :

الأول : أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غيره .

الثاني : أنه تعلق بأمر لا حقيقة له ، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل لك ، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد ؛ لأن التوحيد عبادة واستعانة قال

وقول الله تعالى: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾[1].

تعالى: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[3] ولهذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ تزوجها في شوال وبنى بها في شوال وكانت أحظى نسائه إليه[4] وأحبهن إليه. وكانت العرب يتشاءمون في هذا الشهر، ويقولون إذا تزوج في شوال فإنه لا يفلح وهذا لا حقيقة له.

إذن فالطيرة محرمة وهي منافية للتوحيد كما سبق، والمتطير لا يخلو من حالين:

الأول: أن يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل، وهذا من أعظم التطير والتشاؤم.

الثاني: أن يمضي لكن في قلق وهم وغم يخشى من تأثير هذا المتطير به، وهذا أهون.

وكلا الأمرين نقص في التوحيد وضرر على العبيد، بل انطلق إلى ما تريد بانشراح صدر وتيسير واعتماد على الله عز وجل ولا تسيء الظن بالله عز وجل.

قوله: «**ألا إنما طائرهم عند الله**»:

هذه الآية نزلت في موسى وقومه في قولهم: ﴿**وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه**﴾[5] قال الله تعالى: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾ ومعنى: ﴿**يطيروا بموسى ومن معه**﴾ أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا هذا من موسى وأصحابه فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ٤.
(٣) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٤) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢٣).
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

وقوله: ﴿قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون﴾[1].

قوله: «ألا إنما طائرهم عند الله»:

«ألا»: أداة استفتاح تفيد التنبيه والتوكيد و«إنما» أداة حصر.

وقوله: «طائر» مبتدأ و«عند الله» خبر والمعنى: أنما يصيبهم من الجدب والقحط ليس من موسى وقومه ولكنه من الله فهو الذي قدره ولا علاقة لموسى وقومه به، بل إن الأمر يقتضي أن موسى وقومه سبب للبركة والخير، ولكن هؤلاء والعياذ بالله يلبسون على العوام ويوهمون الناس خلاف الواقع.

قوله: «ولكن أكثرهم لا يعلمون»:

فهم في جهل فلا يعلمون أن هناك إلهاً مدبراً، وأن ما أصابهم من الله، وليس من موسى وقومه.

قوله: «قالوا طائركم معكم»:

أي قال الـذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية﴾[2] الآيات.

فقالوا ذلك رداً على قولهم: ﴿إنا تطيرنا بكم﴾[3] أي تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير بل على الشر وما فيه هلاكنا.

قوله: «قالوا طائركم معكم»:

أي مصاحب لكم فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، ولا منافاة بين هذه الآية والتي قبلها؛ لأن الأولى تدل على أن المُقدِر لهذا الشيء هو الله، والثانية تبين سببه وهو أنه منهم، فهم في الحقيقة طائرهم معهم (أي الشؤم) إن

---

(١) سورة يس، الآية: ١٩.

(٢) سورة يس، الآية: ١٣. (٣) سورة يس، الآية: ١٨.

. . . .

كان هناك شؤم، فهو معهم مصاحب لكم ملازم لكم؛ لأن أعمالكم توجب ذلـك، كما قال الله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ [الأعراف]

يستفـاد من الآيتـين: أن التطير كان معروفا من قبل العرب وفي غير العرب؛ لأن الأولى في فرعون وقومه، والثانية في أصحاب القرية.

ثم أن هؤلاء الـذين تطيروا هل تطيرهم حقيقةً أو للتمويه؟ الجواب: تطيرهم هذا ليس حقيقة، بل هو للتمويه. فهم ليسوا الذين جلبوا لهم الشر، ولكن الـذي جلب لهم الشر هو أعمالهم، فقدر الله عليهم ما يسؤهم جزاء سيئة بمثلها.

قوله: «**أإنْ ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**»:

ينبغي أن تقف على قوله: «**ذكرتم**» لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا فلا تصلها بما بعدها.

وقوله: «**بل أنتم قوم مسرفون**»:

«**بل**» هنا للإضراب الإبطالي، أي بل أنتم ما أصابكم ليس منهم، بل هو من اسرافكم.

وقوله: «**مسرفون**»: أي متجاوزون للحد الذي يجب أن تكونوا إليه.

قوله: «**لا عدوى**»: لا نافية للجنس، ونفي الجنس أعم من نفي الواحد والاثنين والثلاثة؛ لأنه نفي للجنس كله، فنفى الرسول ﷺ العدوى.

والعـدوى: انتقـال المـرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية، يكون أيضا في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[1].

---

(١) أخـرجـه البخـاري في الـذبـائح/ باب المسك (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة/ باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨) عن أبي موسى رضي الله عنه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»** أخرجاه[1] وزاد مسلم**«ولا نوء ولا غول»**[2].

فقوله: **«لا عدوى»** يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: **«ولا طيرة»** اسم مصدر تطير؛ لأن المصدر منه تطير مثل الخيرة اسم مصدر اختار قال تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[3] أي: الاختيار أو التخيير.

واسم المصدر يوافق المصدر في المعنى، ولذلك نقول كلمته كلاماً بمعنى كلمته تكليماً، وسلمت عليه سلاماً بمعنى سلمت عليه تسليماً.

لكن لما كان يخالف المصدر في البناء سموه اسم مصدر، والطيرة تقدم أنها هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم[4].

قوله: **«ولا هامة»**:

الهامة فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها داء يصيب المريض، وينتقل إلى غيره وعلى هذا التفسير

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب لا هامة ٤/٤٧، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٣.

(٢) في الموضع السابق ٤/١٧٤٤، فقد أخرج حديث أبي هريرة بزيادة «ولا نوء» ومن حديث جابر بن زيادة: «ولا غول».

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

(٤) ص (٧٧).

. . . .

يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام .

الثاني : طير معروف يشبه البومة ، أو هي البومة تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل ؛ فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله ، وتنعق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره ، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون بصورة الهامة . وبعض العرب يقولون : الهامة هي الطير لكنهم يتشاءمون بها . فإذا وقعت على بيت أحدهم ، ونعقت قالوا : إنها تنعق به ليموت . ويعتقدون أن هذا دليل قرب أجله ، وهذا كله ـ بلا شك ـ عقيدة باطلة .

وقيل : إن الهامة دودة يزعمون أنها تخلق من روح المقتول، وأنها تطير وتصيح ؛ حتى يقاد من القاتل ، وكل هذا من أمور الجاهلية لا حقيقة له .

أما إذا كانت الهامة مرضاً في البطن ينتقل إلى الصحيح ؛ فقولنا فيها كقولنا في «لا عدوى» .

قوله : «**ولا صفر**» :

قيل : إنه شهر صفر كانت العرب يتشاءمون به .

وقيل : إنه داء في البطن يصيب الإبل وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام .

وقيل : أنه نهيٌ عن النسيئة ، وكانوا في الجاهلية ينسئون ؛ فإذا أرادوا في الأشهر الحرم القتال استباحوها وأخروا الحرمة إلى شهر صفر، وهذه النسيئة التي ذكرها الله ، بقوله تعالى : ﴿**فيحلوا ما حرم الله**﴾[1] وهذا القول ضعيف ، ويضعفه أن الحديث في سياق التطير، وليس في سياق التغيير، والأقرب أن صفر يعني الشهر، أي : لا شؤم فيه ، وهو كغيره من الأزمان يقدر فيه الخير، ويقدر فيه الشر.

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٧ .

وهـذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليس نفياً للوجود؛ لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفياً لتأثيره بنفسه ولسببه.

فقوله: «**لا عدوى**»: العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «**لا يورد ممرض على مصح**»[1] أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة؛ لئلا تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[2]:

والجـذام مرضٌ خبيثٌ معـدٍ بسرعـة ويتلف صاحبـه حتى قيل: إنـه الطاعون، فالأمر بالفرار؛ لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمر حتمياً بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفرار وأن لا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسبـاب بنفسهـا، فالأسبـاب لا تؤثـر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسبـاب التي تكـون سببـا للبـلاء لقـولـه تعـالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكـة**﴾[3] ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى؛ لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى قال رجل: يا رسول الله الإبل تكون صحيحة مثل الظباء فيدخلها الجمل الأجرب فتجرب؟ فقال:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ١٧٤٣/٤.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطب/باب الجذام ٣٧/٤، وانظر فتح الباري ١٥٨/١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

. . . .

النبي ﷺ فمن أعــدى الأولى؟»[1] يعني أن المــرض نزل على الأول بدون عدوى، بل نزل من عند الله عز وجل فكذلك إذا انتقل بالعدوى فقد انتقل بأمر الله، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم، فجرب الأول ليس سببه معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم لكن لوشاء الله تعالى لم يجرب، ولهذا أحيانا تصاب الإبل بالجرب، ثم يرتفع ولا تموت، وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية، وقد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون.

فالإنسان يعتمد على الله، ويتوكل عليه، وقد روي أن النبي ﷺ جاءه رجل مجذوم؛ فأخذ بيده وقال له: «كل من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ»[2] لقوة توكله ﷺ. فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي.

وهذا الجمع الذي أشرنا إليه هو أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث. وادّعى بعضهم النسخ، فمنهم من قال: إن الناسخ قوله «لا عدوى» والمنسوخ قوله: **«فر من المجذوم»**[3] **«ولا يورد ممرض على مصح»**[4]، وبعضهم عكس، والصحيح أنه لا نسخ؛ لأن من شروط النسخ تعذر الجمع، وإذا أمكن وجب،

---

(1) أخرجه البخاري في الطب/باب لاصفر ٤/٣٩، ومسلم في السلام/باب لا عدوى ولا طيرة ٤/١٧٤٢ من حديث أبي هريرة.

(2) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٩ وسكت عنه، والترمذي في الأطعمة/باب في الآكل مع المجذوم ٦/١١١ وقال: «غريب»، وابن ماجة في الطب/باب الجذام ٢/١١٧٢، وابن جرير في تهذيب الآثار (٨٥)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/٣٠٩، وابن حبان (١٤٣٣)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٦٥) والحاكم ٤/١٣٦ وصححه ووافقه الذهبي من حديث جابر.

(3) سبق ص (٨٣).

(4) سبق ص (٨٣).

. . . .

الجمع وجب الرجوع إليه؛ لأن في الجمع إعمال الدليلين، وفي النسخ إبطال أحدهما، وإعمالهما أولى من إبطال أحدهما؛ لأننا اعتبرناهما وجعلناهما حجة، وأيضاً الواقع يشهد أنه ليس بمنسوخ.

وقوله: «**ولا صفر**»:

فيه ثلاثة أقوال سبقت، وبيان الراجح منها[1].

والأزمنة لا دخل لها في التأثير وفي تقدير الله عز وجل؛ فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر، وبعض الناس إذا انتهى من شيء في صفر أرخ ذلك وقال: انتهى في صفر الخير، فهذا من باب مداواة البدعة ببدعة، والجهل بالجهل، فهو ليس شهر خير ولا شهر شر.

أما شهر رمضان وقولنا: إنه شهر خير فالمراد بالخير العبادة، ولا شك أنه شهر خير، وقولهم رجب المعظم بناءً على أنه من الأشهر الحرم.

ولهذا أنكر بعض السلف على من إذا سمع البومة تنعق قال: خيراً إن شاء الله، فلا يقال: خير ولا شر، بل هي تنعق كبقية الطيور.

فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تبين وجوب التوكل على الله وصدق العزيمة، ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور؛ لأن الإنسان في هذه الأمور لا يخلو من حالين:

إما أن يستجيب لها بأن يقدم أو يحجم أو ما أشبه ذلك، فيكون حينئذ قد علق أفعاله بما لا حقيقة له ولا أصل له.

وإما أن لا يستجيب بأن يكون عنده نوع من التوكل ويقدم ولا يبالي، لكن يبقى في نفسه نوع من الهم أو الغم، وهذا وإن كان أهون من الأول لكن

---

(١) ص (٨٢).

يجب ألا يستجيب لداعي هذه الأمور التي نفاها الرسول ﷺ مطلقاً، وأن يكون معتمداً على الله عز وجل.

وبعض الناس قد يفتح المصحف لطلب التفاؤل؛ فإذا نظر ذكر النار تشاءم وإذا نظر ذكر الجنة قال: هذا فأل طيب، فهذا مثل عمل الجاهلية الذين يستقسمون بالأزلام.

فالحاصل أننا نقول: لا تجعل على بالك مثل هذه الأمور إطلاقاً، فالأسباب المعلومة الظاهرة تقي أسباب الشر، وأما الأسباب الموهومة التي لم يجعلها الشرع سببا بل نفاها، فلا يجوز لك أن تتعلق بها، بل احمد الله على العافية، وقل ربنا عليك توكلنا.

قوله: «**لا نوء**»

واحد الأنواء، والأنواء هي: منازل القمر وهي ثمان وعشرون منزلة؛ كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية؛ وهي: لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية؛ وهي: لأيام الشتاء. وأجرى الله العادة أن المطر في الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء؛ أما أيام الصيف فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا امطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون مطرنا بفضل الله ورحمته، ولا شك أن هذا غاية جهل.

ألسنا أدركنا هذا النوء بعينه في سنة يكون فيه مطر وفي سنة أخرى لا يكون فيه مطر؟

ونجد السنوات تمر بدون مطر مع وجود النجوم الموسمية التي كانت كثيراً

. . . .

ما يكون في زمنها الأمطار.

فالنوء لا تأثير له فقولنا طلع هذا النجم، كقولنا طلعت الشمس، فليس له إلا طلوع وغروب، والنوء وقت تقدير، وهو يدل على دخول الفصول فقط.

وفي عصرنا الحاضر يعلق المطر بالضغط الجوي والمنخفض الجوي، وهذا وإن كان قد يكون سببا حقيقياً؛ ولكن لا يفتح هذا الأمر للناس، بل الواجب أن يقال: هذا من رحمة الله، هذا من فضله ونعمه قال تعالى: **﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله﴾**[1] وقال تعالى: **﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾**.

فتعليق المطر بالمنخفضات الجوية من الأمور الجاهلية التي تصرف الإنسان عن تعلقه بربه.

فذهبت أنواء الجاهلية، وجاءتنا المنخفضات الجوية، وما أشبه ذلك من الترهات التي تصرف الإنسان عن ربه سبحانه وتعالى.

قوله: «**ولا غول**»: جمع غَوْلَة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية (الهولة)؛ لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يميناً وشمالاً تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الروع والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع قال تعالى: **﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين**

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٣.

. . . .

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل قال الكلمة الطيبة»**[1].

آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله﴾[2].

وهذا الذي نفاه الرسول ﷺ هو تأثيرها فلا تهمكم لأنها خوّفتكم، فلا تلتفتوا إليها، وليس المقصود بالنفي نفي الوجود، وأكثر ما يبتلى الإنسان بهذه الأمور إذا كان قلبه معلقاً بها؛ أما إن كان معتمداً على الله غير مبال بها، فلا تضره ولا تمنعه عن جهة قصده.

قوله: **«لا عدوى ولا طيرة»**: تقدم الكلام على ذلك.

قوله: **«ويعجبني الفأل»**: أي يسرني، والفأل بينه بقوله: **«الكلمة الطيبة»**.

«فالكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قدماً لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة بل هذا مما يشجع الإنسان لأنها لا تؤثر عليه بل تزيده طمأنينةً وإقداماً وإقبالاً.

وظاهر الحديث: الكلمة الطيبة في كل شيء، لأن الكلمة الطيبة في الحقيقة تفتح القلب وتكون سبباً لخيرات كثيرة؛ حتى إنها تدخل المرء في جملة ذوي الأخلاق الحسنة.

وهذا الحديث جمع النبي ﷺ فيه بين محذورين ومرغوب؛ فالمحذوران هما

---

(١) أخرجه البخاري في الطب/باب الفأل ٤/٤٦، ومسلم في السلام/باب الطيرة والفأل ٤/١٧٤٥ - ١٧٤٦ من حديث أنس، وأخرجاه أيضاً من حديث أبي هريرة في المواضع السابقة رضي الله عنهما.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «**ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك**»(١).

العدوى والطيرة، والمرغوب هو الفأل وهذا من حسن تعليم النبي ﷺ فمن ذكر المرهوب ينبغي أن يذكر حوله ما يكون مرغوباً، ولهذا كان القرآن مثاني إذا ذكر أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين أو بالعكس، وإذا ذكر العقوبة ذكر المثوبة وهكذا.

قوله: «**عن عقبة بن عامر**».

صوابه عن عروة بن عامر كما ذكره في التيسير وقد اختلف في نسبه وصحبته.

قوله: ﴿**ذكرت الطيرة عند رسول الله**﴾: وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها.

قوله: «**أحسنها الفأل**»:

سبق أن الفأل ليس من الطيرة(٢)، لكنه شبيه بالطيرة من حيث الإقدام، فإنه يزيد الإنسان نشاطاً وإقداماً فيما يوجه إليه، فهو يشبه الطيرة من هذا الوجه، وإلا فبينهما فرق؛ لأن الطيرة توجب تعلق الإنسان بالمتطير به وضعف

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب/باب في الطيرة ٤/٢٣٥، وسكت عنه وابن السني (٢٩٤) والبيهقي ٨/١٣٩.

وقال النووي في الرياض كما في دليل الفالحين ص(٨٠٦): «رواه أبو داود بإسناد صحيح».

وقال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٥/٣٧٩: «عروة هذا قيل فيه: القرشي، وقيل فيه: الجهني، وقال أبو القاسم الدمشقي: ولا صحبة له تصح، وذكر البخاري وغيره: أنه سمع من ابن عباس فعلى هذا يكون الحديث مرسلا».

(٢) ص (٨٨)

. . . .

توكله على الله ورجوعه عما هم به من أجل ما رأى، لكن الفأل يزيده قوة وثباتاً ونشاطاً، فالشبه بينهما هو التأثير في كل منها.

قوله: «**ولا ترد مسلما**»

يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته فليس بمسلم.

قوله: «**فإذا رأى أحدكم ما يكره**» فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة ويبتعد عن هذا الشيء، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات... إلخ.

قوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»

وهذا هو حقيقة التوكل وقوله: «**اللهم**» يعني يا الله، ولهذا بنيت على الضم على أنها منادى علم؛ بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن الياء المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركا بالابتداء باسم الله سبحانه وتعالى، وصارت ميماً؛ لأنها تدل على الجمع؛ فكأن الداعي جمع قلبه على الله.

قوله: «**لا يأتي بالحسنات إلا أنت**»

أي لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب؛ لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد حقيقة هو الله.

والمراد بالحسنات: ما يستحسن المرء وقوعه، ويحسن في عينه.

ويشمل ذلك الحسنات الشرعية كالصلاة والزكاة وغيرها؛ لأنها تسر المؤمن، ويشمل الحسنات الدنيوية كالمال والولد ونحوها قال تعالى: ﴿**إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا**

وهم فرحون﴾[1] وقال تعالى في آية آخرى: ﴿**إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها**﴾[2].

وقوله: «**إلا أنت**»: فاعل يأتي لأن الاستثناء هنا مفرغ.

قوله: «**ولا يدفع السيئات إلا أنت**»:

السيئات: ما يسوء المرء وقوعه وينفر منه حالاً أو مآلاً، ولا يدفعها إلا الله، ولهذا إذا أصيب الإنسان بمصيبة التجأ إلى ربه تعالى؛ حتى المشركون إذا ركبوا في الفلك، وشاهدوا الغرق، دعوا الله مخلصين له الدين.

ولا ينافي هذا أن يكون دفعها بأسباب، فمثلاً لو رأى رجلا غريقاً فأنقذه فإنما أنقذه بمشيئة الله، ولو شاء الله لم ينقذه فالسبب من الله.

فعقيدة كل مسلم أنه لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يدفع السيئات إلا الله. وبمقتضى هذه العقيدة فإنه يجب أن لا يسأل المسلم الحسنات ولا يسأل دفع السيئات إلا من الله، ولهذا كان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يسألون الله الحسنات ويسألون دفع السيئات قال تعالى: ﴿**رب هب لي من لدنك ذرية طيبة**﴾[3] وقال تعالى عن أيوب ﴿**وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين**﴾[4] وهكذا يجب أن يكون المؤمن أيضاً.

قوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»: فيها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، والباء تكون بمعنى في، يعني إلا في الله وحده ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان الحول المطلق والقوة المطلقة؛ لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة. فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٥٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨٣.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبوداود والترمذي وصححه[1]. وجعل آخره من قول ابن مسعود[2].

الثـاني: أن الحول والقوة مضاف إلى الإنسان والباء هنا للاستعانة أو للسببية، أي لا حول لنا ولا قوة لنا إلا بالله عز وجل، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حال إلى حال، ولا نقوى على ذلك إلا بالله؛ فيكون في هذه الجملة كمال التفويض، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صحّ الحديث فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت».

وأما هذه الأشياء فلا تأثير لها.

«ولا حول ولا قوة إلا بك» فأنت صاحب الحول والقوة، وكل الأمور لا تكون إلا بك وحدك.

قوله: «مرفوعاً» أي إلى النبي ﷺ.

قوله: «الطيرة شرك الطيرة شرك»:

---

(1) أخرجه أحمد ١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠، وأبوداود في الطب/ باب في الطيرة ٤/ ٢٣٠، وسكت عنه، والترمذي في السير/ باب ماجاء في الطيرة ٥/ ٣٣٦ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الطب/ باب من كان يعجبه الفأل ٢/ ١١٧٠، والطحاوي في شرح معاني الآثار ٣١٢/٤، وابن حبان (١٤٢٧)، والحاكم ١٧/١، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ١٣٩/٨، والبغوي في شرح السنة ١٧٧/١٢.

(2) قوله: «وما منا. . .) إلخ هذه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه انظر: الترمذي ٥/ ٣٣٧، =

. . . .

هاتان الجملتان مؤكد بعضهما بعضاً من باب التوكيد اللفظي .

وقوله : «**شرك**» :

أي : أنها من أنواع الشرك، وليست الشرك كله وإلا لقال الطيرة الشرك .

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج عن الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك كقوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر**»[1] أي ليس الكفر المخرج عن الملة وإلا لقال «هما بهم الكفر» .

لكن في ترك الصلاة قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[2] فقال الكفر، فيجب أن نعرف الفرق بين (ال) المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر فالمراد أنه لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر فهو المخرج من الملة .

فإذا تطير إنسان بشيء رآه أو سمعه، فإنه لا يعد مشركاً شركاً يخرجه من الملة لكنه أشرك من حيث أنه اعتمد على هذا السبب الذي لم يجعله الله سبباً، وهذا يضعف التوكل على الله ويوهن العزيمة وبذلك يعتبر شركاً من هذه الناحية والقاعدة: (أن كل إنسان اعتمد على سبب لم يجعله الشرع سبباً فإنه مشرك) .

= والترغيب ٤/٦٤، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/٢٣٤، وموارد الظمآن ص (٣٤٥)، وفتح الباري ١٠/٢١٣ .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ١/٨٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ من حديث جابر رضي الله عنه .

. . . .

وهـذا نوع من الإشراك مع الله إمـا في التشريع إن كان هذا السبب شرعيًّا، وإما في التقدير إن كان هذا السبب كونيًّا، لكن لو اعتقد هذا المتشائم المتطير أن هذا فاعل بنفسه دون الله فهو مشرك شركاً أكبر؛ لأنه جعل لله شريكاً في الخلق والإيجاد.

قوله: **«وما منا»**

منا جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف، وهذا المبتدأ إما أن يكون قبل (إلا) إن قدرت ما بعد إلا فعلاً، أي: وما منا أحد إلا تطير، أو يكون المبتدأ محذوفاً بعد (إلا) أي وما منا إلا متطير.

والمعنى: ما منا إنسان يسلم من التطير، فالإنسان يسمع شيئاً فيتشاءم، أو يبدأ في فعل فيجد أوله ليس بالسهل فيتشاءم ويتركه، ولكن الله يذهبه بالتوكل.

والتوكل: صدق الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة بالله.

فلا يكفي صدق الاعتماد فقط، بل لابد أن تثق به لأنه سبحانه يقول: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**.

قوله: **«وجعل آخره من قول ابن مسعود»**: وهو قوله: (وما منا إلا . . . الخ).

وعلى هذا يكون موقوفاً وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلاماً في الحديث من عنده بدون بيانه؛ ويكون في الإسناد والمتن ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة رضي الله عنه: **«أسبغوا**

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك»[1].

الوضوء ويلٌ للأعقاب من النار»[2] فقوله: «**أسبغوا الوضوء**» من كلام أبي هريرة، وقوله: «**ويلٌ للأعقاب من النار**» من كلام الرسول ﷺ.

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: «**كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء والتحنث التعبد**»[3]. ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة وفيه: «**فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**»[4] فهذا من كلام أبي هريرة.

قوله: «**من**» شرطية وجواب الشرط «**فقد أشرك**» واقتران الجواب بالفاء؛ لأنه لا يصلح لمباشرة الأداة وحينئذ يجب اقترانه بالفاء، وقد جمع ذلك في بيت شعر معروف

اسمية طلبية وبجامد وبما وقد وبلن وبالتنفيس

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب غسل الأعقاب ١/٧٤، ومسلم في الطهارة/ باب وجوب غسل الرجلين ١/٢١٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي/ باب حدثنا يحيى بن بكير ١/١٤، ومسلم في الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، ﷺ، ١/١٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب فضل الوضوء ١/٦٥، ومسلم في الطهارة/ باب استحباب إطالة العزة ١/٢٤٦.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٢٠، وابن وهب في الجامع ص (١١٠)، والطبراني كما في المجمع ٥/١٠٥، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٣).

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/١٠٥: «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات».

وقال الشارح في تيسير العزيز الحميد ص (٤٣٩): «وفيه ابن لهيعة».

. . . .

قوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته**» الحاجة: كل ما يحتاجه الإنسان بما تتعلق به الكمالات، وقد تطلق على الأمور الضرورية.

قوله: «**فقد أشرك**».

إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه فهو شرك أكبر، وإن اعتقده سبباً فهو أصغر؛ لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب وهي: «أن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كوناً ولا شرعاً فهو شرك أصغر؛ لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سبباً كوناً أو شرعاً فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها.

قوله: «**فما كفارة ذلك**»:

أي ما كفـارة هذا الشرك أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله وقد تطلق على الكفارة منه قبل الفعـل؛ وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر وهو الستر والستر واقٍ فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

قوله: «**اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك**».

يعني فأنت الذي بيدك الخير المباشر كالمطر والنبات، وغير المباشر كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سبباً، وإلا فكل الخير من الله عز وجل.

وقوله: «**لا خير إلا خيرك**»: هل الحصر هنا حقيقي أو إضافي؟ الجواب: هذا الحصر حقيقي فالخير كله من الله سواء كان مباشراً أم بواسطة.

وقوله: «**لا طير إلا طيرك**».

أي : الطيور كلها ملكك فهي لا تفعل شيئاً وإنما هي مسخرة قال تعالى : ﴿**أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير**﴾[1] وقال تعالى : ﴿**ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾[2] فالمهم أن الطير مسخر بإذن الله ، فالله تعالى هو الذي يدبره ويصرفه ويسخره يذهب يميناً وشمالاً ، ولا علاقة له بالحوادث .

ويحتمل أن المراد بالطير هنا ما يتشاءم منه الإنسان فكل ما يحدث للإنسان من التشاؤم والحوادث المكروهة ، فإنه من الله كما أن الخير من الله كما قال تعالى : ﴿**ألا إنما طائرهم عند الله**﴾[3] .

لكن سبق لنا أن الشر في فعل الله ليس بواقع بل الشر في المفعول لا في الفعل .

فيكون قوله : «**لا طير إلا طيرك**» مقابلاً لقوله : «**ولا خير إلا خيرك**» .

قوله : «**ولا إله غيرك**» : «لا» نافية للجنس و«إله» بمعنى : مألوه ، كغراس بمعنى مغروس ، وفراش بمعنى مفروش ، والمألوه هو : المعبود محبة وتعظيماً يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيماً له .

فإن قيل : إن هناك آلهة دون الله كما قال تعالى : ﴿**فما أغنت عنهم آلهتهم**

---

(١) سورة الملك ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٧٢ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٣١ .

وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنه: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»[1].

التي يدعون من دون الله من شيء﴾[2] أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله فليست آلهة حقاً؛ لأنها لا تستحق أن تعبد من دون الله فلهذا نقول لا إله إلا الله.

يستفاد من هذا الحديث:

١ - أنه لا يجوز للإنسان أن ترده الطيرة عن حاجته، وإنما يتوكل على الله ولا يبالي بما رأى أو سمع أو حدث له عند مباشرته للفعل أول مرة، فإن بعض الناس إذا حصل له ما يكره في أول مباشرته الفعل تشاءم؛ وهذا خطأ؛ لأنه مادامت هناك مصلحة دنيوية أو دينية فلا تهتم بما حدث.

٢ - أن الطيرة نوع من الشرك لقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**».

٣ - أن من وقع في قلبه التطير ولم ترده الطيرة فإن ذلك لا يضر كما سبق في حديث ابن مسعود: «**وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل**»[3].

٤ - أن الأمور بيد الله خيرها وشرها.

٥ - انفراد الله بالألوهية كما انفرد بالخلق والتدبير.

قوله: (إنما الطيرة): هذه الجملة عند البلاغيين تسمى حصراً أي: ما الطير إلا ما أمضاك أو ردك لا ما حدث في قلبك ولم تلتفت إليه، ولا ريب أن السلامة منها حتى في تفكير الإنسان خير بلا شك، لكن إذا وقعت في القلب

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٣/١، وقال ابن مفلح في الآداب ٣٧٧/٣: «رواه أحمد من رواية محمد بن عبدالله بن علاثة وهو مختلف فيه، وفيه انقطاع» وقال الشيخ سليمان ص (٤٤٠): «وهكذا رواه أحمد وفي إسناده نظر».

(٢) سورة هود، الآية: ١٠١.

(٣) سبق ص (٩٢).

ولم ترده ولم يلتفت لها فإنها لا تضره لكن عليه أن لا يستسلم بل يدافع إذ الأمر كله بيد الله .

قوله : «**ما أمضاك أو ردك**» : أما ما ردك فلا شك أنه من الطيرة ؛ لأن التطير يوجب الترك والتراجع .

وأما ما أمضاك فلا يخلو من أمرين :

الأول : أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير، كما لو قال سأزجر هذا الطير فإذا ذهب إلى اليمين فمعنى ذلك اليمن والبركة فيقدم فهذا لا شك أنه تطير؛ لأن التفاؤل بمثل انطلاق الطير عن اليمين غير صحيح ؛ لأنه لا وجه له إذ الطير إذا طار فإنه يذهب إلى الذي يرى أنه وجهته ، وهنا اعتمد على سبب لم يجعله الله سبباً وهو حركة الطير.

الثاني : أن يكون سبب المضي كلاماً سمعه أو شيئاً شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له ، فإن هذا فأل وهو الذي يعجب النبي ﷺ ، لكن إن اعتمد عليه دون الله فهذا حكمه حكم الطيرة ، وإن لم يعتمد عليه ولكنه علم أن هذا من الأسباب واعتقد أنه سبب من الأسباب التي يسرها الله سبحانه له فهذا من الفأل .

والحديث في سنده مقال ، لكن على تقدير صحته هذا حكمه .

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله»[1] مع قوله : «طائركم معكم»[2]. **الثانية** : نفي العدوى. **الثالثة** : نفي الطيرة. **الرابعة** : نفي الهامة. **الخامسة** : نفي الصفر. **السادسة** : أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب.

فيه مسائل :

الأولى : التنبيه على قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله» مع قوله : «**طائركم معكم**» أي لكي يتنبه الإنسان فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما ولا تعارض في ذاتهما إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب وقد سبق بيان الجمع أن قوله : «**ألا إنما طائرهم عند الله**» أن الله هو المقدر ذلك وليس موسى ولا غيره من الرسل وأن قوله : «**طائركم معكم**» من باب السبب أي أنتم سببه.

الثانية : نفي العدوى.

وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير؛ لأن الله قد جعل بعض الأمراض سببا للعدوى وانتقالها.

الثالثة : نفي الطيرة أي : نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة : نفي الهامة، وقد سبق تفسيرها وهي كما سبق مرض يعدي، أو طير.

الخامسة : نفي الصفر وهي كما سبق إما شهر صفر، أو داء في البطن.

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك بل مستحب :

تؤخذ من قول النبي ﷺ : «**يعجبني الفأل**»[3] وكل ما أعجب النبي ﷺ

---

(١) سورة الأعراف، الآية : ١٣١.

(٢) سورة يس، الآية : ١٩.

(٣) سبق ص (٨٩).

السابعة: تفسير الفأل. **الثامنة**: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهتـه لا يضر بل يذهبه الله بالتوكل. **التاسعة**: ذكر ما يقول من وجده. **العاشرة**: التصريح بأن الطيرة شرك. **الحادية عشرة**: تفسير الطيرة المذمومة.

فهو حسن قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»[1].

السابعة: تفسير الفأل، فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسـير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل، أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له، فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل لقول ابن مسعود «وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل»[2].

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده: وسبق أنه شيئان:

أن يقول: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله».

أو يقول: «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك».

العـاشرة: «التصريح بأن الـطيره شرك» وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل فإن اعتقد تأثيرها بنفسها فهو شرك أكبر وإن اعتقد أنها سبب فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة، أي ما أمضاك أو ردك.

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل ١/٧٥، ومسلم في الطهارة/ باب التيمن في الطهور ١/٢٢٦.

(٢) سبق ص (٩٢).

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وكلف ما لا علم له به»[1] انتهى.

التنجيم: تفعيل من النجم، ومعنى نجم أي تعلم علم النجوم أو اعتقاد تأثير النجوم.

وعلم النجوم: ينقسم إلى قسمين:

١ - علم التأثير. ٢ - علم التسيير.

فالأول: علم التأثير:

وهذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشرور، فهذا شرك أكبر؛ لأن من ادعى أن مع الله خالقاً فهو مشرك شركاً أكبر، فهذا جعل المخلوق المسخر خالقاً مُسخرا.

ب - أن يجعلها سببا يدعي به علم الغيب فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا لأن النجم الفلاني صار كذا وكذا مثل أن يقول: هذا الإنسان ستكون حياته شقاء؛ لأنه ولد في النجم الفلاني وهذا حياته ستكون سعيدة؛ لأنه ولد في النجم الفلاني، فهذا اتخذ تعلم النجوم

---

(١) علقه بصيغة الجزم البخاري في بدء الخلق/ باب في النجوم ٢/ ٤٢٠.

. . . .

وسيلة لادعاء علم الغيب ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة لأن الله يقول: ﴿**قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله**﴾[1] وهذا من أقوى أنواع الحصر؛ لأنه بالنفي والاستثناء، فإذا ادعى علم الغيب فقد كذب القرآن.

جـ - أن يعتقدها سببا لحدوث الخير والشر فهذا شرك أصغر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا ينسب إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعه.

فإن قيل: ينتقض هذا بما ثبت عن النبي ﷺ في قوله في الكسوف: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بها عباده**»[2] فمعنى ذلك أنهما علامة إنذار.

والجواب من وجهين:

الأول: أنه لا يسلم أن للكسوف تأثيراً في الحوادث والعقوبات من الجدب والقحط والحروب، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته**»[3] لا في ما مضى ولا في المستقبل وإنما يخوف الله بها العباد لعلهم يرجعون، وهذا أقرب.

الثاني: أنه لو سلمنا أن لهما تأثيراً فإن النص قد دل على ذلك، وما دل عليه النص يجب القول به.

لكن الوجه الأول هو الأقرب أننا لا نسلم أصلا أن لهما تأثيرا في هذا؛ لأن الحديث لا يقتضيه، فالحديث ينص على التخويف.

---

(١) سورة النمل الآية: ٦٥.

(٢، ٣) أخرجه البخاري في الكسوف/ باب الصدق في الكسوف ١/٣٢٨، ومسلم في الكسوف/ باب صلاة الكسوف ٢/٦١٨.

. . . .

الثاني: علم التسيير:

وهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية فهذا مطلوب، وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبا، كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على جهة القبلة فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبله، والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبلة فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بسيرها على المصالح الدنيوية، فهذا لا بأس به وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات كمعرفة أن القطب يقع شمالا، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالا، وهكذا فهذا جائز قال تعالى: ﴿**وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[1].

النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون.

والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو بالحر أو بالرياح.

والصحيح عدم الكراهة كما سيأتي إن شاء الله[2].

قوله: «**خلق الله هذه النجوم لثلاث**»:

اللام للتعليل أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «**لثلاث**»: ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن أي: لثلاث حكم لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٦.

(٢) انظر ص (١٠٨).

. . . .

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء قال تعالى: ﴿**ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين**﴾[1]. لأن الإنسان إذا رأى السماء صافية في ليلة غير مقمرة وليس فيها كهرباء يجد لهذه النجوم من الجمال العظيم ما لا يعلمه إلا الله فتكون كأنها غابة محلاة بأنواع من الفضة اللامعة، هذه نجمة مضيئة كبيرة تميل إلى الحمرة، وهذه تميل إلى الزرقة، وهذه خفيفة، وهذه متوسطة وهذا شيء مشاهد.

وهل نقول: إن ظاهر الآية الكريمة أن النجوم مرصعة في السماء أو نقول لا يلزم ذلك؟

الجواب: لا يلزم من ذلك أن تكون النجوم مرصعة في السماء قال تعالى: ﴿**وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون**﴾[2] أي يدورون، كل له فلك.

وأنا شاهدت بعيني أن القمر خسف نجمة من النجوم أي غطاها، وهي من النجوم اللامعة الكبيرة كان يقرب حولها في آخر الشهر وعند قرب الفجر غطاها فكنا لا نراها بالمرة، وذلك قبل عامين في آخر رمضان.

إذن هي أفلاك متفاوته في الارتفاع والنزول، ولا يلزم أن تكون مرصعة في السماء.

فإن قيل: فما الجواب عن قوله تعالى: ﴿**وزينا السماء الدنيا**﴾؟

قلنا: إنه لا يلزم من تزيين الشيء بالشيء أن يكون ملاصقاً له، أرأيت لو أن رجلاً عمر قصراً وجعل حوله ثريات من الكهرباء كبيرة وجميلة، وليست

---

(١) سورة الملك، الآية: ٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٣.

. . . .

على جدرانه فالناظر إلى القصر من بُعْدٍ يرى أنها زينة له، وإن لم تكن ملاصقة له.

الثانية: رجوما للشياطين أي لشياطين الجن وليسوا شياطين الأنس؛ لأن شياطين الأنس لم يصلوها لكن شياطين الجن وصلوها فهم أقدر من شياطين الأنس ولهم قوة عظيمة نافذة، قال تعالى عن عملهم الدال على قدرتهم ﴿**والشياطين كل بناء وغواص**﴾[1] أي لسليمان: ﴿**وآخرين مقرنين في الأصفاد**﴾[2] وقال تعالى: ﴿**قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**﴾[3] أي من سبأ إلى الشام، وهو عرش عظيم لملكة سبأ فهذا يدل على قوتهم وسرعتهم ونفوذهم.

وقال تعالى: ﴿**وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً**﴾[4].

والرجم: الرمي.

الثالثة: علامات يهتدى بها تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون**﴾[5].

فالعلامات: تشمل كل ما جعل الله في الأرض من علامة كالجبال والأنهار والطرق.

والعلامة الأفقية قوله تعالى: ﴿**وبالنجم هم يهتدون**﴾.

والنجم: اسم جنس يشمل كل ما يهتدى به، ولا يختص بنجم معين؛

(١، ٢) سورة صٓ، الآيتان ٣٧، ٣٨.

(٣) سورة النمل، الآية: ٣٩.

(٤) سورة الجن، الآية: ٩.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٦.

وكره قتادة تعلم منازل القمر.

لأن لكل قوم طريقة في الاستدلال بهذه النجوم على الجهات سواء جهات القبلة أو المكان براً أو بحراً.

وهذا من نعمة الله أن جعل أشياء علوية لا يحجب دونها شيء، وهي النجوم لأنك في الليل لا تشاهد جبالاً ولا أودية ولا رملا، وهذا من تسخير الله قال تعالى: ﴿**وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه**﴾[1].

قوله: «**وكره قتادة تعلم منازل القمر**»:

اعلم أن الكراهة في القرآن والسنة وكلام السلف المتقدمين يراد بها التحريم قال تعالى: ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾[2] ثم ذكر منهيات كثيرة للتحريم ثم قال: ﴿**كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً**﴾[3] وقد تكون فيما هو أكبر من المحرم وهو الشرك كما في قوله: ﴿**وقضى ربك....**﴾ الآية[4].

أما الكراهة عند عامة متأخري الفقهاء، فالمراد: غير المحرم؛ لأن المحرم: ما نهي عنه على سبيل الإلزام بالترك، والكراهة: ما نهى عنه لا على سبيل الإلزام بالترك. فيفرقون بين المحرم والمكروه.

وبناء على هذه القاعدة في كلام السلف يكون المراد بالكراهة في كلام قتادة التحريم.

وقوله: «**تعلم منازل القمر**»: يحتمل أمرين:

الأول: أن المراد به معرفة منزلة القمر، الليلة يكون في الشرطين، ويكون في الأكليل فالمراد معرفة منازل القمر كل ليلة لأن كل ليلة له منزلة حتى يتم [٢٨] وفي [٢٩] [٣٠] لا يظهر في الغالب.

الثاني: أن المراد به تعلم منازل النجوم أي: يخرج النجم الفلاني في اليوم

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر**

الفلاني وهذه النجوم جعلها أوقاتا للفصول لأنها [٢٨] نجما منها [١٤] يمانية و[١٤] شمالية فإذا حلت الشمس في المنازل الشمالية صار الحر، وإذا حلت في الجنـوبية صار البرد، ولذلك كان من علامة دنو البرد خروج سهيل وهو من النجوم اليمانية.

قوله: «**ولم يرخص فيه ابن عيينة**»: هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: «**وذكره حرب**»: من أصحاب أحمد روىٰ عنه مسائل كثيرة.

قوله: «**إسحاق**»: هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح: أنه لا بأس بتعلم منازل القمر؛ لأنه لا شرك فيها إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك أما مجرد معرفة الوقت بها، هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء؟ فهذا لا بأس به.

قولـه: «**الجنـة**»: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسميت بذلك لكثرة أشجارها، لأنها تجن من فيها أي تستره.

قوله: «**مدمن خمر**»: هو الذي يشرب الخمر كثيراً. والخمر حده الرسول

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٣٩، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١) وأبويعلى والطبراني كما في المجمع ٥/٧٤ قال الهيثمي: «رواه أحمد وأبويعلى والهيثمي والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات».
وأخرجه الحاكم أيضا ٤/١٤٦ وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

ﷺ بقوله: «**كل مسكر خمر**»[1] ومعنى «أسكر» أي غطى العقل وليس كل ما غطى العقل فهو خمر، فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهنا فأغمى عليه فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب فتجد الشارب يحس أنه في منزلة عظيمة وسعادة وما أشبه ذلك قال الشاعر:

ونشربها فتتركنا ملوكا   وأسداً ما ينهنهها اللقاء

وقال حمزة للنبي ﷺ: «وهل أنتم إلا عبيد أبي»[2] فالذي يغطي العقل على سبيل اللذة محرم بالكتاب والسنة، ومن استحله فهو كافر، إلا إن كان ناشئا ببادية بعيدة، أو حديث عهد بالإسلام ولا يعلم الحكم الشرعي في ذلك، فإنه يعرف ولا يكفر بمجرد إنكاره تحريمه.

قوله: «**قاطع رحم**»:

الرحم: هم القرابة قال تعالى: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾[3] وليس كما يظنه العامة والد الزوج، وبعضهم يسميه عماً، وبعضهم يسميه خالاً وهذا خطأ؛ لأن هذه تسمية غير شرعية ويترتب عليها حكم شرعي.

ومعنى قاطع الرحم أن لا يصله، والصلة جاءت مطلقة في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل**»[4] ومنه الأرحام

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة/ باب بيان أن كل مسكر خمر ٣/١٥٨٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في فرض الخمس/ باب فرض الخمس ٢/٣٨٥، ومسلم في الأشربة/ باب تحريم الخمر ٣/١٥٦٨ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢١.

. . . .

وما جاء مطلقاً غير مقيد فإنه يتبع فيه العرف كما قيل:

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد[1]

فالصلة في زمن الجوع والفقر: أن يعطيهم ويلاحظهم بالكسوة والطعام دائماً، وفي زمن الغنى لا يلزم ذلك.

وكذلك الأقارب ينقسمون إلى قريب وبعيد، فأقربهم يجب له من الصلة أكثر مما يجب للأبعد.

ثم الأقارب ينقسمون إلى قسمين من جهة أخرى، قسم من الأقارب يرى أن لنفسه حقاً لابد من القيام به، ويريد أن تصل دائماً، وقسم آخر يقدر الظروف وينزل الأشياء منازلها فهذا له حكم، وذلك له حكم.

والقطيعة يرجع فيها إلى العرف إلا أنه يستثنى من ذلك مسألة وهي: ما لو كان العرف عدم الصلة مطلقاً، بأن كنا في أمة تشتتت وتقطعت عرى صلتها كما يعرف الآن في البلاد الغربية، فإنه لا يعمل حينئذ بالعرف، ونقول لابد من صلة فإذا كان هناك صلة في العرف اتبعناها، وإذا لم يكن هناك صلة فلا يمكن أن نعطل هذه الشريعة التي أمر الله بها ورسوله.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك؛ لأن هذا مكافأة وليست صلة لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله إنما الواصل كما قال الرسول ﷺ: «**من إذا قطعت رحمه وصلها**»[2] هذا هو الذي يريد وجه الله، والدار الآخرة.

---

(١) انظر منظومة الشارح حفظه الله ص (٣).

(٢) أخرجه البخاري في الآدب/ باب ليس الواصل بالمكافيء ٤/ ٩٠ عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

. . . .

وهل الرحم حق لله أو للآدمي؟ الظاهر: أنها حق للآدمي وهي حق لله باعتبار أن الله أمر بها.

قوله: **«ومصدق بالسحر»**:

ساق المؤلف رحمه الله هذا الحديث في باب التنجيم؛ لأنه يرى أن المراد بالسحر هنا نوع من التنجيم، لأنه سبق «أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»[1] فحمل رحمه الله السحر على التنجيم، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم سيحدث كذا وكذا وصدق به فإنه لا يدخل الجنة؛ لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله قال تعالى: **﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله﴾**[2].

فإن قيل لماذا لا يجعل السحر هنا عاماً ليشمل التنجيم وغير التنجيم؟.

أجيب: أن المصدق بما يخبره به السحرة من علم الغيب يشمله الوعيد، وأما المصدق بأن للسحر تأثيراً فلا يلحقه هذا الوعيد إذ لا شك أن للسحر تأثيراً لكن تأثيره تخييل، مثل: ما وقع من سحرة فرعون حيث سحروا أعين الناس حتى رأوا الحبال والعصي كأنها حيات تسعى، وإن كان لا حقيقة له وقد يسحر الساحر شخصا فيجعله يحب فلاناً ويبغض فلاناً فهو مؤثر قال تعالى: **﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾**[3] فالتصديق بأثر السحر على هذا الوجه لا يدخله الوعيد لأنه تصديق بأمر واقع.

أما من صدق بأن السحر يؤثر في قلب الأعيان بحيث يجعل الخشب ذهبا فلا شك في دخوله في الوعيد لأن هذا لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

وقوله: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة»**.

---

(١) سبق ص (٣٤).

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

. . . .

هل المراد الحصر وأن غيرهم يدخل الجنة؟ الجواب: لا لأن هناك غيرهم لا يدخلون الجنة، فهذا الحديث لا يدل على الحصر.

وهل هؤلاء كفار؟ لأن من لا يدخل الجنة كافر؟.

اختلف أهل العلم في هذا الحديث وما يشبهه من أحاديث الوعيد على أقوال:

القول الأول: مذهب المعتزلة والخوارج الذين يأخذون بنصوص الوعيد، فيرون الخروج من الإيمان بهذه المعصية، لكن الخوارج يقولون هو كافر والمعتزلة يقولون هو في منزلة بين المنزلتين، وتتفق الطائفتان على أنهم مخلدون في النار فيجرون هذا الحديث على ظاهره، ولا ينظرون إلى الأحاديث الأخرى الدالة على أن من في قلبه إيمان فإنه لابد أن يدخل الجنة.

القول الثاني: أن هذا الوعيد فيمن استحل هذا الفعل بدليل النصوص الكثيرة الدالة على أن من في قلبه إيمان، فلابد أن يدخل الجنة، وهذا القول ليس بصواب؛ لأن من استحله كافر ولو لم يفعله، فمن استحل قطيعة الرحم أو شرب الخمر مثلاً فهو كافر وإن لم يقطع الرحم ولم يشرب الخمر.

القول الثالث: أن هذا من باب أحاديث الوعيد التي تمر كما جاءت ولا يتعرض لمعناها بل يقال هكذا قال الله وقال رسوله ونسكت، فمثلا قوله تعالى: **﴿ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾**[1] هذه الآية من نصوص الوعيد فنؤمن بها ولا نتعرض لمعناها، ومعارضتها للنصوص الأخرى ونقول هكذا قال الله، والله أعلم بما أراد، وهذا مذهب كثير من السلف كمالك وغيره، وهذا أبلغ في الزجر.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

. . . .

القول الرابع: أن هذا نفى مطلق، والنفي المطلق يحمل على المقيد، فيقال لا يدخلون الجنة دخولاً مطلقاً يعني لا يسبقه عذاب ولكنهم يدخلون الجنة دخولاً يسبقه عذاب بقدر ذنوبهم، ثم مرجعهم إلى الجنة، وذلك لأن نصوص الشرع يصدق بعضها بعضاً، ويلائم بعضها بعضاً، وهذا أقرب إلى القواعد وأبين حتى لا تبقى دلالة النصوص غير معلومة، فتقيد النصوص بعضها ببعض.

وهناك احتمال أن من كانت هذه حاله حري أن يختم له بسوء الخاتمة فيموت كافراً فيكون هذا الوعيد باعتبار ما يؤول حاله إليه وحينئذ لا يبقى في المسألة إشكال؛ لأن من مات على الكفر فلن يدخل الجنة وهو مخلد في النار وربما يؤيده قوله ﷺ: «**لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً**»[1] فيكون هذا قولاً خامساً.

الشاهد من هذا الحديث:

قوله: «**ومصدق بالسحر**» لأننا إن فسرنا السحر بعلم النجوم فالأمر ظاهر، وإن قلنا: عام فعلم النجوم داخل فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢).

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم. **الثانية**: الرد على من زعم غير ذلك. **الثالثة**: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. **الرابعة**: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

فيه مسائل :

الأولى: الحكمة في خلق النجوم: وهي ثلاث:

- أنها زينة للسماء.
- ورجوماً للشياطين.
- وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها، إنما التنجيم الذي يستدلون به على الحوادث الأرضية هذا لا شك أنه كذب.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك:

لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به».

ومراد قتادة في قوله: «**غير ذلك**» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة فهو أمر محتمل.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل: سبق ذلك والصحيح جوازه[1].

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل: من صدق بشيء من التنجيم أو غيره بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه فإن عليه هذا الوعيد كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل؛ لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!

---

(١) انظر ص (١٠٨).

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار طلب المغفرة، والاستعانة طلب المعونة والاستعاذة طلب العوذ، والاستهداء طلب الهداية؛ لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب وقد لا تدل على الطلب بل تدل على المبالغة في الفعل، مثل: استكبر أي بلغ في الكبر غايته وليس المعنى طلب الكبر والاستسقاء بالأنواء: أي أن تطلب منها أن تسقيك.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا كأن يقول يا نوء كذا أسقنا أو أغثنا وما أشبه ذلك فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر قال تعالى: **﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾**[1] وقال تعالى: **﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾** وقال تعالى: **﴿ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين﴾**[2] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو

(١) سورة المؤمنون، آية: ١١٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠٦.

يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر وهو أن يجعل هذه الأنواء سبباً، والله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركا أصغر.

قوله: «**وتجعلون**»: أي تصيرون وهي تنصب مفعولين الأول (رزق)، والثاني: (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثاني والتقدير وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون.

والمراد بالرزق هنا: ما هو أعم من المطر أي شكره. أي: تجعلون هذا الرزق الذي يستوجب الشكر «أنكم تكذبون» أي تجعلون رزقكم كونكم تكذبون.

قوله: «**رزقكم**»: الرزق هو العطاء وما المراد به هنا؟

يحتمل شيئين:

الأول: سياق الآية يدل على أن المراد به رزق العلم، لأن الله قال: **﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾**[2] أي تخافونهم فتداهنونهم وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من الحديث من العلم والوحي أنكم تكذبون به، وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني: أن المراد بالرزق المطر وقد روي في ذلك حديث عن النبي ﷺ

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ ـ ٨٣.

. . . .

لكنه ضعيف[1] إلا أنه صح عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية أن المراد بالرزق المطر، وأن التكذيب به نسبته إلى الأنواء[2] وعليه يكون ما ساق المؤلف الآية من أجله مناسباً للباب تماماً.

والقـاعدة: في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعاً بدون منافاة تحمل عليهما جميعاً، وإن حصل بينهما منافاة طلب المرجح.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد، لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم، والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر من ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك سواء قلنا المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب.

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحـدهما: التكذيب بلسان المقال، فالعاصي حقيقة حاله أنه مكذب لما رتب الله على هذه المعصية من العقوبة ولهذا وعظ عمر بن عبد العزيز الناس يوماً فقال: **«أيها الناس إن كنتم مصدقين فأنتم حمقى، وإن كنتم مكذبين فأنتم**

---

(1) أخرجه الإمام أحمد ١/٨٩، ١٠٨، والترمذي في التفسير/ ومن سورة الواقعة ٩/٣٥: وقال: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث إسرائيل، وروى سفيان عن عبدالأعلى هذا الحديث بهذا الإسناد ولم يرفعه».

وأخرجه أيضاً ابن جرير ٢٧/٦٦٢، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٤/٣٠٠ وأورده في الدر المنثور ٦/١٦٣ وعزاه لابن منيع، وابن المنذر، وابن مردويه وغيرهم، عن حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) يأتي ص (١٢٧).

وعن أبي مالـك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»**.

هلكى» وهذا صحيح فالذي يصدق ولا يعمل أحمق، والمكذب هالك فكل إنسان عاص نقول له الآن: أنت بين أمرين إما أنك مصدق بما رتب على هذه المعصية أو مكذب، فإن كنت مصدقاً فأنت أحمق كيف لا تعمل ولا تخاف، وإن كنت غير مصدق فالبلاء أكبر فأنت هالك كافر.

قوله: «أربع في أمتى»:

الفـائـدة من قولـه «أربع» ليس الحصر؛ لأن هناك أشياء تشاركها في المعنى، وإنـما يقـول النبي ﷺ ذلك من باب حصر العلوم وجمعها بالتقسيم والعدد؛ لأنه يقرب الفهم ويثبت الحفظ.

قوله: «من أمر الجاهلية»: أمر هنا بمعنى شأن أي من شأن الجاهلية، وهو واحد الأمور وليس واحد الأوامر؛ لأن واحد الأوامر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء.

وقوله: «من أمر الجاهلية»: إضافتها إلى الجاهلية لا شك أن الغرض منهـا التقبيح والتنفير؛ لأن كل إنسان يقال فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية فالغرض من الإضافة هنا أمران: ١ ـ التنفير. ٢ ـ وبيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان إذ ليست أهلا بأن يراعيها الإنسان أو يعتنى بها فالذي يعتنى بها جاهل.

والمـراد بالجـاهلية هنا: ما قبل البعثة، لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين والأمي هو

. . . .

الذي لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأم كأن أمه ولدته الآن.

لكن لما بعث فيهم هذا النبي قال تعالى: **﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**[1]. فهذه منة عظيمة أنه فيهم النبي عليه الصلاة والسلام لهذه الأمور السامية:

١ - يتلو عليهم آيات الله.

٢ - ويزكيهم ويطهر أخلاقهم وعباداتهم وينميها.

٣ - ويعلمهم الكتاب.

٤ - والحكمة.

هذه فوائد أربع عظيمة لو وزنت الدنيا بواحدة منها لوزنتها عند من يعرف قدرها، ثم بين الحال من قبل قال: **﴿وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾** و**«إن»** هذه ليست نافية بل مؤكدة فهي مخففة من الثقيلة يعني وأنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

إذن المراد بالجاهلية ما قبل البعثة؛ لأن الناس كانوا فيها على جهل عظيم، وقد سبق لنا أمثلة كثيرة تدل على جهلهم في حقوق الله وحقوق عباد الله.

فجهلهم مشتمل للجهل في حقوق الله وحقوق عباده، فمن جهلهم أنهم ينصبون النصب ويعبدونها من دون الله، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يعير بها، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر.

قوله: **«لا يتركوهن»**:

المراد لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع بأن يكون كل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

. . . .

واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند آخرين، والرابع عند آخرين وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيله، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعاً إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك؛ لأن هذا خبر من الصادق المصدوق ﷺ، والمراد بهذا الخبر التنفير، لأنه ﷺ قد يخبر بأشياء قد تقع وليس غرضه أن يُؤخذ بها قال ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم اليهود والنصارى**»[1] أي فاحذروا وأخبر ﷺ «**أن الظعينة تخرج من صنعاء إلى حضرموت لا تخشى إلا الله**»[2] أي بلا محرم وهذا خبر عن أمر واقع وليس معناه أنه حكم بالشرع.

قوله: «**أمتي**»: أي أمة الإجابة.

قوله: «**الفخر بالأحساب**»:

الفخر: التعالى والتعاظم، والباء للسببية أي يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

والحسب: ما يحتسبه الإنسان من شرف، وسؤدد كأن يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك، أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة فيفتخر بذلك وهذا من أمر الجاهلية؛ لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد

---

(١) سبق ١/٢٠٢.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب/ باب علامات النبوة ٢/٥٣١.

ولفظه: «حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله» وأخرج البخاري من حديث عدي بن حاتم في الموضع السابق ٢/٥٢٧: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله».

. . . .

تواضعاً للحق وللخلق والله لم يمدح من يتعاظم إذا رأى نفسه قال تعالى: ﴿**كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾[1].

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية فلا يجوز لنا أن نفعله ولهذا قال تعالى لنساء نبيه ﷺ: ﴿**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**﴾[2] واعلم أن كل ما ينسب إلى الجاهلية فهو مذموم ومنهي عنه.

قوله: «**الطعن بالأنساب**»:

الطعن: العيب، لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون في الجسد، ولهذا سمي العيب طعناً.

والأنساب: جمع نسب، وهو أصل الإنسان وقرابته فيطعن في نسبه كأن يقول: أنت ابن الدباغ، أو أنت ابن مقطعة البظور ـ وهو شيء في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**»: أي نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن الفاعل هو الله عز وجل، أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

قوله: «**والنياحة على الميت**»: هذا هو الرابع والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصداً، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح كنوح الحمام.

والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية ـ ولابد أن تكون في هذه الأمة ـ وإنما كانت من أمر الجاهلية:

* إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

---

(١) سورة العلق، الآية: ٦، ٧.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**» رواه مسلم[1].

---

* أو من الجهالة التي هي السفه وهي ضد الحكمة.

وإنما كانت كذلك لأمور هي:

١ ـ أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزناً وعذاباً.

٢ ـ أنها تسخط من قضاء الله وقدره، واعتراض عليه.

٣ ـ أنها تهيج أحزان غيره. وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله وهو من علمائنا الحنابلة أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال: ﴿**يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نـراك من المحسنين**﴾[1] فقال له ابن عقيل رحمه الله: إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان، وليس لتهييج الأحزان.

٤ ـ أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء، ولا يرفع ما نزل.

والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة.

قوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**»

أي: إن تابت قبل الموت تاب الله عليها، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة وأن الحسنات لا تمحوه؛ لأنه من كبائر الذنوب، والكبائر لا تمحى بالحسنات فلا يمحوها إلا التوبة.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران**»:

أي تقام من قبرها.

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز/ باب التشديد في النياحة ٢/٦٤٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٨.

والسربال: الثوب السابغ كالدرع والقطران معروف ويسمى «الزفت» وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: **«وعليها درع من جرب»**:

الجرب: مرض معروف يكون في الجلد يؤرق الإنسان وربما يقتل الحيوان. والمعنى أن كل جلدها يكون جرباً بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء؛ لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به فكيف ومعه قطران؟

والحكمة أنها لما لم تغط المصيبة بالصبر غطيت بهذا الغطاء سربال من قطران ودرع من جرب فكانت العقوبة من جنس العمل.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ ثبوت رسالته ﷺ لأنه أخبر عن أمر من أمور الغيب فوقع.

٢ ـ التنفير من هذه الأشياء الأربعة الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت.

٣ ـ أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليه في الآخرة وكل ذنب عليه الوعيد في الآخرة فهو من الكبائر.

٤ ـ أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح لقوله: **«إذا لم تتب»**.

٥ ـ أن من شروط التوبة أن تكون قبل الموت لقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها»** ولقوله تعالى: **﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾**[1].

٦ ـ أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة، ومن أهل العلم من قال إنه داخل تحت المشيئة، إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له.

ومن أهل العلم من قال: إنه ليس بداخل تحت المشيئة وأنه لابد

(١) سورة النساء، الآية: ١٨.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل

أن يعاقب وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾[1] فقال: والشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر[2] وبهذا نعرف عظم سيئة الشرك قال ابن مسعود رضي الله عنه «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً»[3].

لأن الحلف بغير الله من الشرك، والحلف بالله كاذبا من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب.

٧ ـ ثبوت الجزاء والبعث.

٨ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

قوله: «**صلى لنا**»:

أي إماماً، لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره، ولهذا يتبعه المأموم وعليه إذا دعا بدعاء يخص به نفسه إذا كان مما يؤمن عليه كدعاء القنوت فلا يجوز كأن يقول: «اللهم اهدني فيمن هديت» وهم يقولون آمين لأنه يصلي لهم، وقيل إن اللام بمعنى الباء وهذا قريب وقيل: إن اللام للتعليل. أي صلى لأجلنا.

قوله: «**صلاة الصبح بالحديبية**»

أي صلاة الفجر والحديبية: فيها لغتان التخفيف وهو أكثر، والتشديد وهي اسم بئر سمي بها المكان. وقيل: إن أصلها شجرة حدباء تسمى حديبية،

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦) وانظر أيضاً جامع الرسائل ٢/٢٥٤.

(٣) أخرجه عبدالرزاق ٨/٤٦٩، والطبراني في الكبير (٨٩٠٢) قال المنذري في الترغيب ٣/٦٠٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ٤/١٧٧: «ورواته رواة الصحيح».

على النـاس فقـال: هل تدرون ماذا قال ربكـم؟

والأكثر على أنها اسم بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه في الحـرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمراً فصـده المشركـون عن البيت ومـا كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ويسمى الآن الشميسي.

قوله: «**على إثر سماء كانت من الليل**».

الإثر معناه العقب، والأثر ما ينتج عن السير.

قوله: «**سماء**»: المراد المطر، وهو على رأي المجازيين مجاز مرسل علاقته المحلية فعبر بالمحل عن الحال.

قوله: «**كانت من الليل**»:

«من» لابتـداء الغاية هذا هو الظاهر - والله أعلم - ويحتمل أن تكون بمعنى في للظرفية.

قوله: «**فلما انصرف**»:

أي من صلاته، وليس من مكانه بدليل قوله: «أقبل على الناس».

قوله: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»:

الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «**هل تدرون**»: أي هل تعلمون.

والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة؛ لأن ربوبية الله للمؤمن خاصة كما أن عبودية المؤمن له خاصة ولكن الخاصة لا تنافي العامة؛ لأن العامة تشمل هذا وهذا والخاصة تختص بهذا المؤمن.

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا**

قوله: «**قالوا الله ورسوله أعلم**»:

فيه إشكال نحوي لأن «أعلم» خبر عن اثنين وهي مفرد فيقال: إن اسم التفضيل إذا نوى به معنى «من» وكان مجرداً من أل والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير.

وفيه أيضاً إشكال معنوي وهو أنه جمع بين الله ورسوله بالواو، مع أن الرسول ﷺ لما قال له الرجل: «ما شاء الله وشئت قال أجعلتني لله ندا»[1].

فيقال: إن هذا أمر شرعي وقد نزل على الرسول ﷺ.

وأما إنكاره على من قال: ما شاء الله وشئت، فلأنه أمر كوني والرسول ﷺ ليس له شأن في الأمور الكونية.

قوله: «**أعلم**»: أي أننا لا نعلم.

قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»:

«مؤمن» صفة لموصوف محذوف أي عبد مؤمن، وعبد كافر.

---

(١) أخرجه أحمد ١/٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٢٤٧، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة كما في تحفة الأشراف ٥/٢٦٩، وابن ماجة بنحوه في الكفارات/ باب النهي أن يقال ماشاء الله وشئت ١/٧٦٨٤ وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٧٢)، والطحاوي في المشكل ١/٩٠، والطبراني في الكبير (١٣٠٠٥، ١٣٠٠٦) وأبو نعيم في الحلية ٤/٩٩، والبيهقي ٣/٢١٧. وقال البوصيري في الزوائد: «في إسناده الأجلح بن عبدالله مختلف فيه، ضعفه الإمام أحمد وأبو حاتم والنسائي وأبو داود وابن سعد، ووثقه ابن معين ويعقوب بن سفيان والعجلي، وباقي الإسناد ثقات».
وقال الشيخ سليمان في التيسير ١/١٢٠: «فقد ثبت أن النبي، ﷺ، لما قال له رجل...» الحديث.

بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[1].

وأصبح: من أخوات كان واسمها «مؤمن»، وخبرها «عبادي» أي أصبح عبد كائن من عبادي.

ويجوز أن يكون «أصبح» فعل ماض ناقص واسمها ضمير الشأن أي أصبح الشأن، فعبادي خبر مقدم، و«مؤمن» مبتدأ مؤخر أي أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر.

قوله: **«فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته»**:

أي قال بلسانه وقلبه، والباء للسببية، والفضل العطاء والزيادة.

والرحمة صفة من صفات الله، يكون بها الأنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: **«مؤمن بي وكافر بالكوكب»**:

لأنه نسب المطر إلى الله ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير تأثيراً في نزوله، بل نزل بفضل الله.

قوله: **«وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»** الباء للسببية، وكافر بالله؛ لأنه أنكر نعمة الله ونسبها إلى سبب لم يجعله الله سبباً فتعلقت نفسه بهذا السبب ونسي نعمة الله، وهذا الكفر لا يخرج من الملة؛ لأن المراد نسبة المطر إلى النوء على أنه سبب وليس إلى النوء على أنه فاعل.

وقال: «مطرنا بنوء كذا» ولم يقل: أنزل علينا المطر نوء كذا؛ لأنه لو قال كذلك لكان نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد، وبه نعرف خطأ من قال: إن المراد بقوله: «مطرنا بنوء كذا» نسبة المطر إلى النوء نسبة إيجاد؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لقال: أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مطرنا: به وعلى هذا فالباء في قوله بنوء كذا للسببية.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

. . . .

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطر وأنزله الله ، لكن النوء هو السبب فهو كافر، وعليه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة .

والمراد بالكوكب النجم وكانوا ينسبون المطر إليه ويقولون إذا سقط النجم الفلاني جاء المطر، وإذا طلع النجم الفلاني جاء المطر وليسوا ينسبونه إلى هذا نسبة وقت وإنما نسبة سبب . فنسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ نسبة إيجاد، وهذه شرك أكبر.

٢ ـ نسبة سبب، وهذه شرك أصغر.

٣ ـ نسبة وقت، وهذه جائزة بأن يريد بقوله مطرنا بنوء كذا أي جاءنا المطر في هذا النوء أي في وقته .

ولهذا قال العلماء : يحرم أن يقول مطرنا بنوء كذا ويجوز مطرنا في نوء كذا ، وفرقوا بينهما أن الباء للسببية وفي للظرفية ومن ثم قال أهل العلم : إنه إذا قال مطرنا بنوء كذا وجعل الباء للظرفية فهذا جائز، وهذا وإن كان له وجه من حيث المعنى لكن لا وجه له من حيث اللفظ ، لأن لفظ الحديث من قال : مطرنا بنوء كذا ، والباء للسببية أظهر منها للظرفية وهي وإن جاءت للظرفية كما في قوله تعالى : ﴿**وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل**﴾[1] لكن كونها للسببية ، أظهر والعكس بالعكس فـ (في) للظرفية أظهر منها للسببية وإن جاءت للسببية كما في قوله ﷺ : «**دخلت امرأة النار في هرة**» . والحاصل : أن الأقرب المنع ولو قصد الظرفية ، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفية مطلقاً ، ولا يظن أنها تأتي سببية فهذا جائز، ومع ذلك فالأولى أن يقال لهم قولوا : في نوء كذا .

---

(١) سورة الصافات، الآية : ١٣٧ ، ١٣٨ .

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا فأنزل الله هذه الآيات[1]: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم ....﴾

قوله: «ولهما»:

الظاهر: أنه سبق قلم، وإلا فالحديث في مسلم وليس في الصحيحين[2].

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو أنزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت ـ «وقل أن يخلف نوؤه» أو «هذا نوؤه صادق». وهذا لا يجوز وهو الذي أنكره الله عز وجل على عباده، وهذا شرك أصغر ولو قال بإذن الله فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله.

قوله: «فلا أقسم بمواقع النجوم»:

اختلف في «لا» فقيل: نافية والمنفي محذوف، والتقدير: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسِمُ لا علاقة لها بـ «لا» إطلاقاً وهذا له بعض الوجه. وقيل: إن المنفي القسم فهي داخلة على أقسم أي لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم؛ لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم وهذا ضعيف جداً.

وقيل: إن «لا» للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة لأن «لا» بمعنى انتبه أقسم

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب بيان كفر من قال مطر بالنوء ١/ ٨٤.

(٢) وأشار إليه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٤٦١).

. . . .

بمواقع النجوم. . . وهذا هو الصحيح.

فإن قيل ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم؛ لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به ويصدقون كلامه فلا حاجة إليه، وإن كان لقوم لا يؤمنون به، فلا فائدة منه قال تعالى: ﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾[1] أجيب أن الفائدة من وجوه:

الأول: أن هذا أسلوب عربي لتأكيد الأشياء بالقسم، وإن كانت معلومة عند الجميع، أو كانت منكرة عند المخاطب والقرآن نزل بلسان عربي مبين.

الثاني: أن المؤمن يزداد يقينا من ذلك، ولا مانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبد قال تعالى عن إبراهيم: ﴿**رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي**﴾[2].

الثالث: أن الله يقسم بأمور عظيمة دالة على كمال قدرته وعظمته وعلمه، فكأنه يقيم في هذا المقسم به البراهين على صحة ما أقسم عليه بواسطة عظم ما أقسم به.

الرابع: التنويه بحال المقسم به؛ لأنه لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذان الوجهان لا يعودان إلى تصديق الخبر، بل إلى ذكر الآيات التي أقسم بها تنويها له بها وتنبيهاً على عظمها.

وقوله: «**فلا أقسم بمواقع النجوم**»:

الله سبحانه يتحدث عن نفسه بضمير المفرد لأنه يدل على الأنفراد فهو سبحانه واحد لا شريك له، ويتحدث عن نفسه بضمير الجمع؛ لأنه يدل على العظمة ولا يدل على التعدد إلا بالقرائن ولا يتحدث عن نفسه بالمثنى لأن المثنى محصور باثنين.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٥.　(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

والباء حرف قسم والمواقع جمع موقع.

واختلف في النجوم: فقيل: إنها النجوم المعروفة، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.

وأقسم الله بها لما فيها من الدلالة على كمال القدرة في هذا الانتظام البديع، وما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب، فإن السماء عند نزول الوحي ملئت حرساً شديداً وشهباً.

وقيل: إن المراد آجال نزول القرآن ومنه قولهم: «نزل القرآن منجما» وقول الفقهاء: يجب أن يكون دين المكاتب مؤجلا بنجمين فأكثر، فيكون الله أقسم بمواقع نزول القرآن وقد سبقت لنا قاعدة مفيدة وهي أنه: إذا كان المعنيان لا يتنافيان تحمل الآية على كل منهما وإلا طلب المرجح.

قوله: «**وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**»: «قسم» خبر إن وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويها بالمقسم عليه وتعظيمه.

وقوله: «**لو تعلمون**» مؤكد ثالث كأنه قال ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه فهو أعظم من أن يكون بسيطا، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته فانتبهوا.

قوله: «**لقرآن**»: مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**﴾[1] وعلى الثاني يكون بمعنى

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

. . . .

المجموع؛ لأنه مجموع مكتوب.

قوله: «**كريم**»: يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال في العطاء متعد للغير. ويطلق على الشيء البهي الحسن، ومنه قول النبي ﷺ: «**إياك وكرائم أموالهم**»[1] أي البهي منها والحسن وهذا كمال في الذات، وهذان المعنيان موجودان في القرآن فالقرآن لا أحسن منه بذاته قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾[2].

والقرآن يعطي أهله من الخيرات الدينية والدنيوية والجسمية والقلبية قال تعالى: ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا**﴾[3] فهو سلاح لمن تمسك به ولكن يحتاج إلى أن نتمسك به بالقول والعمل والعقيدة، فلا بد أن يصدق العقيدة العملُ قال ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[4] ووصف الله القرآن في آية أخرى بأنه مجيد والمجد صفة العظمة والعزة والقوة والقرآن جامع بين الأمرين: فيه قوة وعظمة، وكذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به.

قوله: «**في كتاب مكنون**»:

كتاب فعال بمعنى مفعول مثل فراش بمعنى مفروش، ومثل غراس بمعنى مغروس، وكتاب معنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ قال تعالى: ﴿**كأنهن بيض مكنون**﴾[5].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١/١٢٦ فتح، ومسلم في المساقاة ٣/١٢١٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه ١/٣٤، ومسلم في المساقاة/ باب أخذ الحلال ٣/٢١٩ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٤٩.

. . . .

واختلف المفسرون في هذا الكتاب على قولين:

الأول: أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

الثاني: وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة[1] قال تعالى: ﴿**كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة...**﴾[2] فقوله: «بأيدي سفرة» يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكة لأن قوله: ﴿**لا يمسه إلا المطهرون**﴾ أي الملائكة يوازن قوله: «بأيدي سفرة». وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد.

قوله: «**لا يمسه إلا المطهرون**»:

الضمير يعود إلى الكتاب المكنون؛ لأنه أقرب شيء وهو بالرفع «لا يمسه» باتفاق القراء وإنما نبهنا على ذلك لدفع قول من يقول إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن أي نهي أن يمس القرآن إلا طاهر والآية ليس فيها ما يدل على ذلك بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ؛ لأنه أقرب مذكور؛ ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبراً لا أمراً ولا نهياً حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون ولهذا قال الله: ﴿**إلا المطهرون**﴾ باسم المفعول ولم يقل: «إلا المطهِرون» ولو كان المراد المطَّهِرون لقال ذلك، أو قال إلا المتطهرون كما قال تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾.

والمطهرون: هم الذين طهرهم الله تعالى وهم الملائكة طهروا من الذنوب وأدناسها قال تعالى: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم**﴾[3].

---

(١) انظر: إعلام الموقعين ١/٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) سورة عبس، الآيات: ١١ ـ ١٥.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

تنزيل من رب العالمين أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾[1].

قال تعالى: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾[2] وقال تعالى: ﴿بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾[3] وفرق بين المطهِر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه، وبين المطهَر الذي كمله غيره وهم الملائكة، وهذا مما يؤيد ما ذهب إليه ابن القيم أن المراد به الكتب التي في أيدي الملائكة، وفي الآية إشارة على أن من طهر قلبه من المعاصي كان أفهم للقرآن، وأن من تنجس قلبه بالمعاصي كان أبعد فهماً عن القرآن؛ لأنه إذا كانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن الله من مسها إلا هؤلاء المطهرين فكذلك معاني القرآن.

فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآية أن المعاصي سبب لعدم فهم القرآن كما قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[4] وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إذا تتلى عليه آيـتنا قال أساطير الأولين﴾[5] فهم لايصلون إلى معانيها وأسرارها؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنه ينبغي لمن استفتى أن يقدم بين يدي الفتوى الاستغفار لمحو أثر الذنب من قلبه حتى يتبين له الحق واستنبطه من قوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً﴾[6].

قوله: ﴿تنزيل من رب العالمين﴾:

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.
(2) سورة الأنبياء، الآيتان: ٢٦ ـ ٢٧.
(3) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(4) سورة الواقعة، الآيتان: ٨١ ـ ٨٢.
(5) سورة القلم، الآية: ١٥.
(6) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

. . . .

خبر ثان لقـولـه: «وإنه» وهو كقوله: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين**﴾[1] وكقوله: ﴿**تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته**﴾[2]. فهو خبر مكرر مع قوله: القرآن.

وتنزيل أي منزل فهي مصدر بمعنى منزل من رب العالمين أنزله الله على قلب النبي ﷺ؛ لأنه محل الوعي والحفظ بواسطة جبريل قال تعالى: ﴿**وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين**﴾.

وقوله: ﴿**من رب العالمين**﴾: أي خالقهم ويستفاد من الآية ما يلي:

١ ـ أن القرآن نازل لجميع الخلق، ففيه دليل على عموم رسالة النبي ﷺ.

٢ ـ أنه نازل من ربهم، وإذا كان كذلك فهو الحكم بينهم.

٣ ـ أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله فإذا أضيف إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿**تنـزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته**﴾ علم أن القرآن رحمة للعبـاد أيضـا وربوبية الله مبنية على الرحمة قال تعالى: ﴿**الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم**﴾[3] وكل ما أمر الله به عباده أو نهاهم عنه فهو رحمة بهم.

٤ ـ أن القرآن كلام الله؛ لأنه إذا كان الله أنزله فهو كلامه لا كلام غيره كما قاله السلف رحمهم الله وهو غير مخلوق؛ لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة.

والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

فإن قيل: هل كل منزل غير مخلوق؟

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٢.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٢ ـ ٣.

(٣) سورة الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٣.

قلنا: لا لكن كل منزل يكون وصفاً مضافاً إلى الله، فهو غير مخلوق كالكلام وإلا فإن الله أنزل من السماء ماء وهو مخلوق، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد﴾[1] وهو مخلوق وقال تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾[2] والأنعام مخلوقة، فإذا كان المنزل من عند الله صفة لا تقوم بذاتها، وإنما تقوم بغيرها لزم أن يكون غير مخلوق لأنه من صفات الله.

قوله: «أفبهذا الحديث أنتم مدهنون»:

الاستفهام للإنكار والتوبيخ والحديث: القرآن.

والمدهن: الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله، والمعنى: أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون لا ينبغي لكم هذا، بل ينبغي لمن معه القرآن أن يصدع به وأن يبينه ويجاهد به قال تعالى: ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾[3].

قوله: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون»

أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: أتجعلون شكر رزقكم أي: ما أعطاكم الله من أي شيء من المطر ومن إنزال القرآن أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر فإنها تشمل المطر وغيره.

وقيل: إنه ليس في الآية حذف، والمعنى تجعلون شكركم تكذيبا، وقال: إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح، بل هو من أكبر الأرزاق قال الشاعر:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٥٢.

فالنعمة تحتاج إلى شكر، ثم إذا شكرتها فهي نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثان، وإن شكر في ثانية فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثالث، وهكذا أبدا قال تعالى: ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها**﴾[1].

قوله: «**أنكم تكذبون**»:

«أن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني، أي تصيرون شكركم تكذيبا، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب، إن كانت وحياً كذب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله قال هذا من النوء أو هذا من عملي كما قال قارون: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة. **الثانية**: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية. **الثالثة**: ذكر الكفر في بعضها. **الرابعة**: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. **الخامسة**: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية الواقعة: وهي قوله تعالى: ﴿**وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون**﴾ وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية: وهي الطعن بالأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها: وهي الاستسقاء بالأنواء.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة:

وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر، وبعضه ليس بكفر، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» بسبب نزول النعمة:

أي: أن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله بل يعتقد أن هذا سبب محض إن كان هذا سبباً. مثال ذلك: رجل غرق في ماء وكان عنده رجل قوي فنزل وأنقذه، فإنه يجب على هذا الذي نجا أن يعرف نعمة الله عليه، ولولا أن الله أمر أمراً قدرياً وأمراً شرعياً أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ فأنت تعتقد أن هذا سبب محض.

أما إن غرق ويسر الله له فخرج فقال: إن الولي الفلاني أنقذني فهذا

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع. **السابعة**: التفطن للكفر في هذا الموضع. **الثامنة**: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا». **التاسعة**: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم». **العاشرة**: وعيد النائحة.

شرك أكبر؛ لأنه سبب غير صحيح ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب بل يريد أنه منقذ بنفسه؛ لأن اعتقاد أنه سبب وهو في قبره غير وارد، ولذلك كان أصحاب الأولياء إذا نزلت بهم شدة يسألون الأولياء.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع:

وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع:

وهو نسبة المطر إلى النوء فيقال: هذا بسبب النوء الفلاني، ومأشبه ذلك.

الثامنة: التفطن لقوله: **«لقد صدق نوء كذا وكذا»**:

وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا»؛ لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: **«أتدرون ماذا قال ربكم»**:

وذلك أن يلقى العالم على المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له وإلا فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله؟ لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟ وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة:

وذلك بقوله: **«إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»** وهذا وعيد عظيم.

باب قول الله تعالى

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾(١).

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا. . . .﴾

جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٩٥: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة. . . والخوف المقصود منه: الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه/ وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن الطريق، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنها لا تصح له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب؟

قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه. . . فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، ومافيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلابد أن يثير عنده باعثاً.

=

. . . .

وأصل الأعمال كلها هو المحبة، فالإنسان لا يعمل إلا لما يحب إما لجلب منفعة أو لدفع مضرة، فإذا عمل شيئاً فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام أو لغيره كالدواء.

وعبادة الله مبنية على المحبة، بل هي حقيقة العبادة إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشراً لا روح فيها، فإذا كان الإنسان في قلبه محبة لله وللوصول إلى جنته فسوف يسلك الطريق الموصل إلى ذلك.

ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة: وهي التذلل والتعظيم وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة فهو مشرك شركا أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله من أشخاص كالأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن أعمال: كالصلاة والزكاة وأعمال الخير، وما أشبه ذلك. ومن أزمان كرمضان وأيام العشر وغيرها، ومن أمكنة كالمساجد والكعبة وجبل أحد وغيرها.

وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله.

= وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب، ونحوه.
وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو».

. . . .

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد والصغار والضعفاء والمرضى.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة كمحبة الإنسان لوالده ولمعلمه ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام والشراب والملبس والمركب والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة، فالإنسان يحب والده محبة إجلال وتعظيم، وإذا اقترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقوم ببر والده صارت عبادة، وكذلك يحب ولده محبة شفقة وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة[1].

---

(١) قال السعدي رحمه الله في القول السديد ص (٩٥ ـ ٩٧):

«أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه. . . . ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض مايبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، فيقدم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله: وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة مايحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله، وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك، وهي أصل الشرك وأساسه. =

. . . .

وكذلك المحبة الطبيعية كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة ولهذا «حبب للنبي ﷺ النساء والطيب»[1] من هذه الدنيا فحبب إليه النساء لأن ذلك مقتضى الطبيعة ولما يترتب عليه من المصالح العظيمة، وحبب إليه الطيب لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصدر ولأن الطيبات للطيبين والله طيب لا يقبل إلا طيبا.

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة قال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى**»[2] وقال العلماء: إن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وقالوا: الوسائل لها أحكام المقاصد وهذا أمر متفق عليه.

قوله: «**ومن الناس**»: «من» تبعيضية وهي خبر مقدم «ومن يتخذ» مبتدأ مؤخر.

قوله: «**أنداداً**»: جمع ند وهو الشبيه والنظير.

قوله: «**يحبونهم كحب الله**»: أي في كيفيته ونوعه.

وفي الكيفية أي القوة والشدة حتى إن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر

= وهنا قسم رابع: وهو المحبة الطبيعية التي تتبع مايلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة فإن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى مالايحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات».

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥، والنسائي في عشرة النساء/ باب حب النساء ٧/٦١. وفي تعليق الألباني في المشكاة ٣/١٤٤٨: «إسناده حسن».

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي ١/١٣، ومسلم في الإمارة/ باب قوله، ﷺ: إنما الأعمال بالنيات ٣/١٥١٥.

. . . .

مما يعظم الله ويغار لله ، فلو قيل احلف بالله لحلف وهو كاذب ولم يبال، ولو قيل : احلف بالند لم يحلف وهو كاذب ، وهذا شرك أكبر.

وقوله : «**كحب الله**» : للمفسرين فيها قولان :

الأول: أنها على ظاهرها، وأنها مضافة إلى مفعولها أي يحبونهم كحبهم لله ، والمعنى يحبون هذه ا لأنداد كمحبة الله فيجعلونها شركاء لله في المحبة، لكن الذين آمنوا أشد حباً لله من هؤلاء لله ، وهذا هو الصواب .

الثاني: أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين.

أي كحب المؤمنين لله ، فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله عز وجل. وهذا وإن احتمله اللفظ لكن السياق يأباه، لأنه لو كان المعنى ذلك لكان مناقضاً لقوله تعالى ـ فيما بعد ـ: ﴿**والذين آمنوا أشد حبًّا لله**﴾ .

وكانت محبة المؤمنين لله أشد؛ لأنها محبة خالصة ليس فيها شرك فمحبة المؤمنين أشد من حب هؤلاء لله .

فإن قيل : قد ينقدح في ذهن الإنسان أن المؤمنين يحبون هذه الأنداد نظراً لقوله : ﴿**أشد حبًّا لله**﴾ فما الجواب؟

أجيب: أن اللغة العربية يجري فيها التفضيل بين شيئين وأحدهما خال منه تماماً، ومنه قوله تعالى : ﴿**أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مقيلا**﴾[1] مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خير، وقال تعالى : ﴿**آلله خير أما يشركون**﴾[2] والطرف الآخر ليس فيه شيء من هذه الموازنة ولكنها من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده.

---

(١) سورة الفرقان، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة النمل، الآية : ٥٩ .

وقوله: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره»(1).

مناسبة الآية لباب المحبة:

منع الإنسان أن يحب أحداً كمحبة الله؛ لأن هذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملة وهذا يوجد في بعض العباد وبعض الخدم، فبعض العباد يعظمون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد، وكذلك بعض الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون الله ويعظمونهم أكثر مما يعظمون الله قال تعالى: ﴿**وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا**﴾(2).

قوله: «**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم**»:

«آباؤكم» اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه وخبر كان «أحب إليكم من الله ورسوله» والخطاب في قوله: «**قل**» للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: «**آباؤكم**» الأمة.

والأمر في قوله: «**فتربصوا**»: يراد به التهديد.

أي: انتظروا عقاب الله، ولهذا قال: «**حتى يأتي الله بأمره**» بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

فدلت الآية على: أن محبة هؤلاء وإن كانت من غير محبة العباد إذا فضلت على محبة الله صارت سببا للعقوبة.

ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٢٤.

(2) سورة الأحزاب، الآيات: ٦٧، ٦٨.

. . . .

يحب أباه أكثر من ربه.

وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله، لكن له شاهد في الجوارح، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال: «ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» فالجوارح مرآة القلب.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها ولهذا يروى عن النبي ﷺ أنـه قال: **«اللهم إن هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»**[1] وكيف للإنسان أن يحب شيئا وهو يبغضه وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنا؟.

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس إما لسبب ظاهر أو لإرادة قاهرة، فمثلاً: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك فتكرهه لهذا السبب، أو بالعزيمة القوية فمثلا يحب أمراً كشرب الدخان فصار عنده عزيمة فأبغضه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: **«والله يا رسول الله إنك لأحب إليَّ من مالي وولدي وكل شيء إلا نفسي، فقال النبي ﷺ: ومن نفسك قال: الآن**

(١) أخرجه أحمد في المسند ٦/١٤٤، وأبوداود في النكاح/ باب في القسم بين النساء ٢/٦٠١، والترمذي في النكاح/ باب في التسوية بين الضرائر ٤/١٠٧، والنسائي في عشرة النساء/ باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٧/٦٤، وابن ماجه في النكاح/ باب القسمة بين النساء ١/٦٣٣.

والدارمي ٢/٦٧، وابن حبان وصححه (٤١٩٢) والحاكم ٢/١٨٧ وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

ورجح الترمذي إرساله فقال: «رواية حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة مرسلا أصح».

وانـظر تحفـة الأشراف ١١/٤٧١ رقم (١٦٢٩٠)، وجـامـع الأصول ١١/٥١٤، ونيل الأوطار ٦/٣٧٢.

عن أنس: أن رسـول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحـدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه[1].

والله إنك أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي»[2] فقد تغيرت محبة عمر رضي الله عنه.

وأقره النبي ﷺ على أن الحب قد يتغير وينتقل.

وربما تسمع عن شخص كلاماً وأنت تحبه فتكرهه ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب فتعود محبته.

قوله: «**لا يؤمن**»:

هذا نفي للإيمان، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمال الواجب، وتارة يراد به نفي الوجود «أي نفي الأصل».

والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الواجب إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول ﷺ إطلاقاً، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمان.

قوله: «**من ولده**»: يشمل الذكر والأنثى وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بمحبة أبيه.

قوله: «**ووالده**»: يشمل أباه وجده وإن علا وأمه وجدته وإن علت.

قوله: «**والناس أجمعين**»: يشمل أخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب حب الرسول، ﷺ، من الإيمان ١/ ٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب وجوب محبة رسول الله، ﷺ، أكثر من الأهل ١/ ٦٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب كيف كانت يمين النبي، ﷺ، ٤/ ٢١٦ من حديث عمر رضي الله عنه.

. . . .

ومحبة رسول الله ﷺ تكون لأمور:

الأول: أنه رسول الله ، وإذا كان الله أحب إليك من كل شيء فرسوله أحب إليك من كل مخلوق.

الثاني: لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته.

الثالث: لما آتاه الله من مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

الرابع: أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك.

الخامس: لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة.

السادس: لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله.

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي:

١ ـ وجوب تقديم محبة الرسول ﷺ على محبة النفس.

٢ ـ فداء الرسول ﷺ بالنفس والمال؛ لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك.

٣ ـ أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله ﷺ ويبذل لذلك نفسه وماله وكل طاقته؛ لأن ذلك من كمال محبة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعض أهل العلم في قوله: ﴿**إن شانئك هو الأبتر**﴾[1] أي مبغضك قالوا وكذلك من أبغض شريعته ﷺ فهو مقطوع لا خير فيه.

٤ ـ جواز المحبة التي للشفقة والإكرام والتعظيم لقوله ﷺ: «**أحب إليه من ولده ووالده. . .**» فأثبت أصل المحبة وهذا أمرٌ طبيعي لا ينكره أحد.

٥ ـ وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس؛ لأن من لازم كونه أحب من كل أحد أن يكون قوله مقدماً على كل أحد حتى على نفسك، فمثلاً أنت تقول شيئا وتهواه وتفعله فيأتي إليك رجل ويقول لك هذا

(١) سورة الكوثر، الآية: ٣.

. . . .

يخالف قول الرسول ﷺ. فإذا كان الرسول أحب إليك من نفسك فأنت تنتصر للرسول أكثر مما تنتصر لنفسك وترد على نفسك بقول الرسول ﷺ، ولهذا قال بعضهم:

تعصي الإلـه وأنت تزعم حبـه   هذا لعمـري في القياس بديع
لو كان حبـك صادقـا لأطعته   إن المـحـب لمن يحب مطيع[1]

إذاً يؤخذ من هذا الحديث وجوب تقديم قول الرسول ﷺ على قول كل الناس حتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلى قول الأئمة الأربعة من باب أولى، ومن بعدهم قال الله تعالى: **﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾**[2].

---

(١) قال شيخ الإسلام في جامع الرسائل ٢/٢٥٨: «والذنوب تنقص من محبة الله تعالى بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب ولم تكن الذنوب عن نفاق كما في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب، «حديث حمار الذي كان يشرب الخمر، وكان النبي، ﷺ، يقيم عليه الحد، فلما كثر ذلك منه لعنه رجل، فقال النبي، ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**..» فكما أن المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات، وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات، والمعاصي تنقص المحبة، وهذا معنى قول الشبلي لما سئل عن المحبة؟ فقال ماغنت به جارية فلان:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه............ إلخ البيتين»

وقال في ص (٢٨٤): «والعبادة تجمع كمال المحبة، وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر، وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كان محبوب لغير الله ومعظم لغير الله ففيه شوب من العبادة كما قال النبي، ﷺ، في الحديث الصحيح: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار**...».

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

. . . .

لكن إذا وجدنا حديثا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفاً لقول أهل العلم وجمهور الأمة فالواجب التثبت والتأني في الأمر؛ لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ.

ولهذا إذا رأيت حديثا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي ـ كالجبال ـ في رسوها فلا ترده، بل يجب عليك أن تراجع وتطالع في سنده حتى يتبين لك الأمر، فإذا تبين فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منه إذا كان حجة ويمكن أيضا أن يكون الحديث الضعيف مخالفاً لقول جمهور الأمة لكن المهم التثبت في الأمر وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقوال التي ذكرت أخيراً، وتركها الأقدمون وصارت محل نقاش بين الناس فإنه يجب اتباع هذه القاعدة، ويقال أين الناس من هذه الأحاديث؟ ولو كانت هذه الأحاديث من شريعة الله لكانت منقولة باقية معلومة مثلما ذكر أن الإنسان إذا لم يطف طواف الإفاضة قبل أن تغرب الشمس يوم العيد فإنه يعود محرما فإن هذا الحديث[1] وإن كان ظاهر سنده الصحة لكنه ضعيف وشاذ ولهذا لم يذكر أنه عمل به إلا رجل أو رجلان من التابعين، وإلا فالأمة على خلافه فمثل هذه الأحاديث يجب أن يتحرى الإنسان فيها ويتثبت، ولا نقول إنها لا يمكن أن تكون صحيحة.

---

(١) اخرجه أبو داود/ باب الإفاضة في الحج ٣/٥٠٨، وقال المنذري في مختصر السنن ٢/٤٢٨: «في إسناده محمد بن إسحاق، وقد تقدم الكلام عليه»، وانظر تهذيب السنن لابن القيم ٢/٤٢٧.

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

مناسبة هذا الحديث للباب:

مناسبة هذا الحديث ظاهره إذ محبة الرسول ﷺ من محبة الله.

قوله: **«ثلاث من كن فيه»**:

أي ثلاث خصال وكن بمعنى وجدن فيه.

وإعراب «ثلاث» مبتدأ، وجاز الابتداء بها لأنها مفيدة على حد قول ابن مالك:

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد ....[2]

وقوله: **«من كن فيه»**: «من» شرطية و«كن» أصلها كان فتكون فعلا ماضياً ناسخاً والنون اسمها و«فيه» خبرها.

قوله: «وجدبهن»: وجد فعل ماض، في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: **«وجدبهن حلاوة الإيمان»**:

الباء للسببية، وحلاوة مفعول وجد، وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مدركة باللعاب والفم فالمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان/ باب حلاوة الإيمان ١/٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ١/٦٦.

(٢) ألفية ابن مالك ص (١٦).

. . . .

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث :

قوله : **«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»** :

الرسول محمد ﷺ وكذا جميع الرسل يجب محبتهم .

قوله : **«أحبَّ إليه»** :

أي أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولد ووالده وزوجه .

فإن قيل لماذا جاء الحديث بالواو «الله ورسوله» وجاء الخبر لهما جميعا «أحب إليه مما سواهما»؟

فالجواب : لأن محبة الرسول ﷺ من محبة الله ، ولهذا جُعل قوله : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ركناً واحداً ؛ لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي ﷺ .

الخصلة الثانية :

قوله : **«وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»** :

قوله : **«وأن يحب المرء»** : المراد به الرجل ، ويشمل الرجل والمرأة .

قوله : **«لا يحبه إلا لله»** : اللام للتعليل أي : من أجل الله ؛ لأنه قائم بطاعة الله عز وجل .

وحب الإنسان للمرء له أسباب كثيرة : يحبه للدنيا ، ويحبه للقرابة ، ويحبه للزمالة ، ويحب المرء زوجته للشهوة منها وغيرها ، ويحب من أحسن إليه ، لكن إذا أحببت هذا المرء لله فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان .

الخصلة الثالثة :

قوله : **«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»** :

هذه الصورة في كافر أسلم فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله

وفي رواية: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...**»[1] إلى آخره.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله وأبغض

منه كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة لأن الكافر يألف ما كان عليه أولا فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

فمن كره العود في الكفر كما يكره القذف في النار فإن هذا من أسباب حلاوة الإيمان.

قوله: «**وفي رواية لا يجد أحد حلاوة الإيمان**».

أتى المؤلف بهذه الرواية؛ لأن انتفاء وجدان حلاوة الإيمان بالنسبة للرواية الأولى عن طريق المفهوم وهذه عن طريق المنطوق ودلالة المنطوق أقوى من دلالة المفهوم.

قوله: «**من أحب في الله**».

من شرطية، وفعل الشرط أحب، وجوابه جملة «فإنما تنال ولاية الله بذلك».

و«في» يحتمل أن تكون للظرفية؛ لأن الأصل فيها الظرفية.

ويحتمل أن تكون للسببية لأن «في» تأتي أحيانا للسببية كما في قوله ﷺ: «**دخلت امرأة النار في هرة**»[2] أي بسبب هرة.

وقوله: «**في الله**»: أي من أجله إذا قلنا إن في للسببية وأما إذا قلنا إنها للظرفية فالمعنى من أحب في ذات الله أي في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

قوله: «**وأبغض في الله**»: البغض الكره، أي أبغض في الله أو في ذات الله إذا رأى من يعصى الله كرهه.

---

(١) أخرجها البخاري في الأدب/ باب الحب في الله ٤/ ٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في التوبة/ باب في سعة رحمة الله ٤/ ٢١١٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الله، ووالى في الله، وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا» رواه ابن جرير[1].

وفرق بين «في» التي للسببية و«في» التي للظرفية فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله عز وجل فيبغض من أبغضه الله ويحب من أحبه.

قوله: **«ووالى في الله»**:

الموالاة هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: **«وعادى في الله»**:

المعاداة ضد الموالاة أي يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

قوله: **«فإنما تنال ولاية الله بذلك»**: هذا جواب الشرط أي يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها؛ لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله.

وقوله: **«ولاية»**: يجوز في الواو وجهان الفتح والكسر، قيل: معناهما واحد وقيل بالفتح بمعنى النصرة قال تعالى: ﴿**ما لكم من ولايتهم من شيء**﴾. وبالكسر بمعنى الولاية على الشيء.

قوله: **«بذلك»**: الباء للسببية والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه والموالاة فيه والمعاداة فيه.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٥٣) عن ابن عباس موقوفاً، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٣١٢/١ عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، والطبراني في الكبير (١٣٥٣٧) عن ابن عمر موقوفاً.

ومداره على ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف مختلط. تهذيب التهذيب ٤٦٧/٨، تقريب التهذيب ١٣٨/٢.

وهذا الأثر موقوف لكنه بمعنى المرفوع.

فمعنى الحديث أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله فيرى أعداء الله يشركون بربه ويكفرون به ويدعون به النقائص والعيوب ثم يواليهم ويحبهم فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام النهار كله فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله وموالاته وعلى العكس من ذلك يكون مملوءاً ببغض أعداء الله ومعاداتهم وقال ابن القيم رحمه الله تعالى:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ما ذاك في إمكان

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إذا رأيتُ النصراني أغمض عيني كراهة أن أرى بعيني عدو الله».

هذا الذي يجد طعم الإيمان أما - والعياذ بالله - الذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثة النبي ﷺ فهو خارج عن الإسلام مكذب بقول الله: ﴿**ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾[1] وقوله: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[2] وقوله: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[3] ولكثرة اليهود والنصارى والوثنيين صار في هذه المسألة خطر على المجتمع وأصبح كثير من الناس الآن لا يفرق بين مسلم وكافر ولايدري أن غير المسلم عدو لله عز وجل بل هو عدو له أيضاً لقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء**﴾[4] فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصداقة قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١.

. . . .

والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[1] .

فالآن أصبحنا في محنة، وخطر عظيم؛ لأنه يخشى على أبنائنا وأبناء قومنا أن يركنوا إلى هؤلاء ويوادوهم وأن يحبوهم ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم فهذه البلاد قال فيها الرسول ﷺ: «**لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما**»[2] وقال: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[3] وقال: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**»[4] وهذا كله من أجل أن لا يشتبه الأمر على الناس.

قوله: «**وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا**».

قوله: «**عامة**» أي أغلبية.

وقوله: «**مؤاخاة الناس**»: أي مودتهم ومصاحبتهم.

أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس وهو بعيد العهد فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه فما بالك بالناس اليوم؟

فقدت صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا بل صار أعظم من ذلك يبيعون دينهم بدنياهم قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد/ باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب ٣/١٣٨٨ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) انظر تلخيص الحبير ٤/١٢٥ رقم (١٩١٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب فداء هل يستشفع إلى أهل الذمة ٢/٣٧٣، ومسلم في الوصية/ باب ترك الوصية ٣/١٢٥٧.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾[1] قال المودة[2].

ورسوله **وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون**﴾[3] ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم**﴾[4].

ويستفاد من أثر ابن عباس رضي الله عنهما:

أن لله تعالى أولياء وهو ثابت بنص القرآن قال تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾[5] وقال تعالى: ﴿**إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا**﴾[6] فلله أولياء يتولون أمره ويقيمون دينه، وهو يتولاهم بالمعونة والتسديد والحفظ والتوفيق، والميزان لهذه الولاية قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[7].

قال شيخ الإسلام: «من كان مؤمناً تقيا كان لله وليًّا»، والولاية سبق: أنها النصرة والتأييد والإعانة.

والولاية تنقسم إلى ولاية من الله للعبد، وولاية من العبد لله، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿**الله ولي الذين آمنوا**﴾[8] ﴿**والذين كفروا أولياؤهم**

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٢) أخرجه ابن جرير ٢/٤٣، والحاكم ٢/٢٧٢ وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٥٥.

(٧) سورة يونس، الآية: ٦٢.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

. . . .

الطاغوت﴾[1] ومن الثاني قوله تعالى: **﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا . . . ﴾**[2].

والولاية التي من الله إلى العبد تنقسم إلى عامة وخاصة، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: **﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾**[3].

والولاية الخاصة: أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته وهذه خاصة بالمؤمنين قال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾**[4] وقال: **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾**.

قوله: «**وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وتقطعت بهم الأسباب﴾ قال المودة**»:

الأسباب جمع سبب، وهو: كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

فكل ما يوصل إلى شيء فهو سبب قال تعالى: **﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾**[5] ومنه سمي الحبل سببا؛ لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٥) سورة الحج، الآية: ١٥.

. . . .

وقوله: «**قال: المودة**»:

هذا الأثر ضعيف فإن صح عنه فإنه أخذها من قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله**﴾[1] لأن الآيتين في سياق واحد فإن الله ذكر بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾[2].

فقوله: «**المودة**»: أي مودة المشركين لأصنامهم، وإلا فمودة الله تعالى لا تنقطع بالإنسان أبدا بل هي موصلة له، وكذا مودة المؤمنين بعضهم لبعض ترفعهم في درجات المتحابين في الله قال تعالى: ﴿**الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين**﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال. **الرابعة**: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة: وهي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾.

الثانية: تفسير آية براءة: وهي قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . . الآية**﴾.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال، وفي نسخة «وتقديمها على النفس والأهل والمال».

ولعل الصواب وجوب تقديم محبته كما هو مقتضى الحديث وأيضاً قوله: «**على النفس**» يدل على أنها قد سقطت كلمه تقديم أو تقديمها. وتؤخذ من حديث أنس السابق ومن قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم. . . . أحب إليكم من الله ورسوله**﴾ فذكر الأقارب والأموال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام: سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «والله إنك لأحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي فقال له: ومن نفسك فقال: الآن أنت أحب إليَّ من كل شيء حتى من نفسي»، وقوله: «الآن» يدل على حدوث المحبة وهذا أمر ظاهر وفيه أيضاً أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده. . .**» لايدل على الخروج من الإسلام؛ لقوله في الحديث الآخر: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة**

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. **السادسة**: أعمال القلب الأربع التي لا تنال وَلاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

الإيمان». لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله أي أن الدليل مركب من الدليلين.

ونفي الشيء له ثلاث حالات: فالأصل أنه نفي للوجود وذلك مثل «لا إيمان لعابد صنم» فإن منع مانع من نفي الوجود فهو نفي للصحة مثل «لا صلاة بغير وضوء» فإن منع مانع من نفي الصحة فهو نفي للكمال مثل «لا صلاة بحضرة طعام» فقوله: «لا يؤمن أحدكم» نفي للكمال الواجب لا المستحب. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا ينفى الشيء إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع».

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها: تؤخذ من قوله: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**» وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها:

وهي الحب، والبغض، والولاء، والعداء.

لا تنال ولاية الله إلا بها ولو صلى الإنسان وصام ووالى أعداء الله لا ينال ولاية الله قال ابن القيم:

أتحب أعداء الحبيب وتدعي ... حباً له ما ذاك في إمكان

وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالي من عاداهم.

وقوله: «**ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها**» مأخوذة من قول ابن عباس: «ولن يجد عبد طعم الإيمان.... الخ».

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا. **الثامنة**: تفسير ﴿**وتقطعت بهم الأسباب**﴾. **التاسعة**: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديداً. **العاشرة**: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

السابعة: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا:

الصحابي يعنى به ابن عباس رضي الله عنهما وقوله: «إن عامة المؤخاة على أمر الدنيا»، هذا في زمنه فكيف بزمننا.

الثامنة: تفسير قوله: «**وتقطعتْ بهم الأسباب**»:

فسرها بالمودة وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسير بالمثال لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها فإذا جاء فرد من أفراد هذا العموم فإنما يقصد به التمثيل، أي: مثل المودة. لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيراً.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً:

تؤخذ من قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله**﴾ وهم يحبون الأصنام حباً شديداً، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿**والذين آمنوا أشد حباً لله**﴾ فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه:

الثمانية هي قوله تعالى: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها**﴾.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

والوعيد في قوله: «**فتربصوا**» فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر:

لقوله تعالى: ﴿**يحبونهم كحب الله**﴾ ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركاً أكبر بدليل ماهم من العذاب.

باب

قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾(1).

مناسبة الباب لما قبله:

المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف لأن العبادة ترتكزعلى شيئين: المحبة، والخوف(2).

فبالمحبة يكون امتثال الأمر، وبالخوف يكون اجتناب النهي وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله ولكن هذا من لازم ترك المعصية، وليس هو الأساس فلو سألت من لا يزني لماذا؟ لقال: خوفا من الله.

ولو سألت الذي يصلي لقال: طمعاً في ثواب الله ومحبة له وكل منهما ملازم للآخر فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.

وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء؟. اختلف في ذلك:

فقيل: ينبغي أن يغلب جانب الخوف؛ ليحمله ذلك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل: يغلب جانب الرجاء؛ ليكون متفائلاً والرسول ﷺ كان يعجبه الفأل(3).

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(2) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «وعمل القلب: من التوكل، والخوف، والرجاء، ومايتبع ذلك، والصبر واجب بالاتفاق».

(3) سبق ص (٨٩).

. . . .

وقيل: في فعل الطاعة يغلب الرجاء فالذي منّ عليه لفعل هذه الطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: إذا وفقك الله للدعاء فانتظر الإجابة؛ لأن الله يقول: ﴿**وقال ربكم ادعوني أستجب لكم**﴾ [1]. وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف لأجل أن يمنعه منها ثم إذا خاف من العقوبة تاب.

وهذا أقرب شيء ولكن ليس بذاك القرب الكامل؛ لأن الله يقول: ﴿**والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون**﴾[2] أي يخافون أن لا يقبل منهم، لكن يقال بأن هذه الآية يعارضها أحاديث أخرى كقوله ﷺ في الحديث القدسى عن ربه: «**أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني**»[3].

وقيل: في حال المرض يغلب جانب الرجاء، وفي حال الصحة يغلب جانب الخوف.

وقال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً فأيها غلب هلك صاحبه[4]. أي يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط.

وخوف الله تعالى درجات فمن الناس من يغلو في خوفه، ومنهم من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد/ باب: ويحذركم الله نفسه ٤/٣٨٤، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب الحث على ذكر الله ٤/٢٠٦١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) قال شيخ الإسلام كما في الاختيارات ص (٨٥): «وينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً، فأيها غلب هلك صاحبه، ونص عليه الإمام أحمد؛ لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله».

. . . .

يفرط، ومنهم من يعتدل في خوفه.

والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم الله فقط، وإن زدت على هذا فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله، وهذا ما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم.

ومن الناس من يفرط في خوفه بحيث لا يردعه عما نهى الله عنه.

والخوف أقسام:

الأول: خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع وهو ما يسمى بخوف السر.

وهذا لا يصلح إلا لله سبحانه، فمن أشرك مع الله غيره فهو مشرك شركا أكبر، وذلك مثل: من يخاف من الأصنام أو الأموات، أو من يزعمونهم أولياء ويعتقدون نفعهم وضرهم كما يفعله بعض عباد القبور يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله(١).

الثاني: الخوف الطبيعي والجبلي، فهو إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم فهو محرم، وإن استلزم شيئاً مباحاً كان مباحاً، فمثلا من خاف من شيء لا يؤثر عليه وحمله هذا الخوف على ترك الصلاة مع وجوبها فهذا الخوف محرم والواجب عليه أن لا يتأثر به.

وإن هدده إنسان على فعل محرم فخافه، وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به فهذا خوف محرم لأنه يؤدي إلى فعل محرم بلا عذر، وإن رأى ناراً ثم هرب

---

(١) قال السعدي في القول السديد ص (٩٨): «فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله».

. . . .

منها ونجا بنفسه فهذا خوف مباح، وقد يكون واجبا إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه[1] [2].

وهنـاك ما يسمى بالوهم، وليس بخوف مثل أن يرى ظل شجرة تهتز فيظن أن هذا عدو يتهدده، فهذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك بل يطارد هذه الأوهام لأنه لا حقيقة لها وإذا لم تطاردها فإنها تهلكك.

مناسبة الخوف للتوحيد : أن من أقسام الخوف ما يكون شركاً منافياً للتوحيد.

قوله: «**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**».

«**إنما ذلكم**»: صيغة حصر للمشار إليه من خوف المشركين.

«**ذلكم**»: «ذا» مبتدأ و«الشيطان» يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجملة «يخوف» حال من الشيطان.

ويحتمل أن يكون «الشيطان» صفة «لذلكم» أو عطف بيان، و«يخوف» خبر المبتدأ والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

و«يخوف» تنصب مفعولين الأول محذوف، وتقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني «أولياءه».

ومعنى يخوفكم أي يوقع الخوف في قلوبكم منهم و«أولياءه» أي أنصاره

---

(١) القسم الثالث: أن يترك مايجب عليه من جهاد، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر لغير عذر خوفاً من بعض الناس فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا سبب نزول الآية: ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾. حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم ص (٢٤٤).

(٢) وأما خوف وعيد الله الذي توعد به العصاة فمن أعلى مراتب الإيمان.

. . . .

الـذين ينصرون الفحشـاء والمنكـر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك فكل من نصر الفحشاء والمنكر فهو من أولياء الشيطان، ثم قد يكون النصر في التوحيد وما يتعلق به فيكون عظيماً وقد يكون دون ذلك.

وقوله: «**يخوف أولياءه**»: من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها حيث قالوا: ﴿**إن النـاس قد جمعوا لكم فاخشوهم**﴾(١) وذلك ليصدوهم عن واجب من واجبات الدين وهو الجهاد فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمـر بالمعـروف أو ينهى عن المنكر فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

والحاصل: أن الشيطان يخوف كل من أراد أن يقوم بواجب، فإذا ألقى الشيطان في نفسك الخوف فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل، وليس السكوت والجبن هو الذي يبعد الأجل فكم من داعية صدع بالحق ومات على فراشه، وكم من جبان قتل، وانظر إلى خالد ابن الوليد كان شجاعاً مقداماً ومات على فراشه، ومادام الإنسان قائماً بأمر الله فليثق بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وحزب الله هم الغالبون.

قوله: «**فلا تخافوهم**»: لا ناهية، والهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان، وهـذا النهي للتحـريم بلاشك، أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد ولا تخافوا هؤلاء وإذا كان الله مع الإنسان فإنه لا يغلبه أحد، لكن نحتـاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام ولهذا قال تعالى: ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويـف من أعدائه وهذا ما وقع فيه كثير من الناس وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم، وإلا لو اتكلوا على الله وخافوه قبل كل

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

وقولـه: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾(1).

شيء لخافهم الناس ولهذا قيل في المثل: من خاف الله خافه كل شيء، ومن اتقى الله اتقاه كل شيء، ومن خاف من غير الله خاف من كل شيء».

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك فهو مناف لأصله وإلا فهو مناف لكماله.

قوله: «إنما» أداة حصر والمراد بالعمارة العمارة المعنوية والحسية؛ لأن الذي يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر في الحقيقة أنه لم يعمرها لعدم انتفاعه بهذه العـمارة، فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفاً، لأنها موضع عبادته.

قوله: «من آمن بالله»:

«من» فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور وهي :

* الإيمان بوجوده.
* وربوبيته.
* وألوهيته.
* وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة وسمي بذلك؛ لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به

---

(1) سورة التوبة، الآية: 18.

. . . .

النبي ﷺ مما يكون بعد الممات مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسان إلى العمل، فإنه إذا آمن أن هناك بعثاً وجزاء حمله ذلك على العمل لذلك اليوم، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمل إذ كيف يعمل لشيء وهو لا يؤمن به؟!

قوله: **«وأقام الصلاة»**:

أي أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه، والإقامة نوعان: إقامة واجبة وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

قوله: **«وآتى الزكاة»**:

«آتي» تنصب مفعولين الأول هنا الزكاة. والثاني: محذوف تقديره مستحقها.

والزكاة هي: المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل.

قوله: **«ولم يخش إلا الله»**.

في هذه الآية حصر طريقه الإثبات والنفي.

«لم يخش» نفى «إلا الله» إثبات والمعنى أن خشيته انحصرت في الله عز وجل فلا يخشى غيره.

والخشية نوع من الخوف لكنها أخص منه والفرق بينهما:

. . . .

١ - أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحاله، كقوله تعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[١] والخوف قد يكون من الجاهل.

٢ - أن الخشية تكـون بسبب عظمة المخشي بخلاف الخوف فقد يكون من ضعف الخائف لا من قوة المخوف.

قوله: «**فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**».

قال ابن عباس: «عسى من الله واجبه»[٢]. وجاءت بصيغة الترجي لئلا يأخذ الإنسان الغرور بأنه حصل على هذا الوصف، وهذا كقوله تعالى: ﴿**إلا المستضعفـين من الـرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً**﴾[٣] فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا لا يعذبون.

الشاهد من الآية:

قولـه: «**ولم يخش إلا الله**» ولهـذا قال تعـالى: ﴿**فلا تخشـوا النـاس واخشون**﴾[٤] ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل.

ومن أراد أن يصحح هذا المسير فليتأمل قول الرسول ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك،**

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي ٩/١٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ١/٥٨٧، وفي الإتقان ص (٢١٤).

وإسناده صحيح. انظر صحيفة علي بن أبي طالب ص (٧٢ - ٧٣).

(٣) سورة النساء، الآية: ٩٨.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

وقوله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ـ الآية﴾[1].

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[2].

قوله: «ومن الناس» جار ومجرور خبر مقدم و«من» تبعيضية.

وقوله: «من يقول»: من مبتدأ مؤخر.

والمراد بهؤلاء من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه فيقول آمنا بالله لكنه إيمان مستطرف كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾[3] على حرف: أي على طرف.

فإذا امتحنه الله بما يُقدرُ عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: «فإذا أوذي في الله».

«في» للسببية أي بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه.

ويجوز أن تكون «في» للظرفية على تقدير «فإذا أوذى في شرع الله» أي إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

قوله: «جعل فتنة الناس»:

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١/٢٩٣، ٣٠٧، والترمذي في صفة القيامة/ باب ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ٨/٢٠٣ وقال: «حسن صحيح» وأخرجه أيضاً عبد بن حميد (٦٣٥)، والطبراني في الكبير (١٢٩٨٨)، (١٢٩٨٩)، (١١٢٤٣)، (١١٤١٦)، (١١٥٦٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/٣١٤، وأخبار أصفهان ٢/٢٠٤.

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم ص (١٦١): «وبكل حال فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة» وانظر المشكاة ٣/١٤٥٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

جعل: صير والمراد بالفتنة هنا الإيذاء، وسمى فتنة؛ لأن الإنسان يفتتن به فَيُصد عن سبيل الله كما قال تعالى: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا**﴾(١). وأضاف الفتنة إلى الناس من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

قوله: «**كعذاب الله**».

معلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله بموافقة أمره، فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلا لهذه الفتنة كالعذاب، فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله ففر منه بموافقة أمرهم فالآية موافقة للترجمة.

وفي هذه الآية من الحكمة العظيمة، وهي ابتلاء الله للعبد لأجل أن يمحص إيمانه وذلك على قسمين:

الأول: ما يقدره الله نفسه على العبد قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿**وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾(٣).

الثاني: ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحاناً واختباراً، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف.

وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر فيكفر ويرتد أحياناً ـ والعياذ بالله ـ وأحياناً يكفر بما خالف فيه أمر الله عز وجل في موقفه في تلك المصيبة، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصاً عظيماً، فليكن المسلم على

---

(١) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

(٣) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٥ ـ ١٥٦.

. . . .

حذر فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان قال تعالى: ﴿**ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم**﴾[1].

قوله: «**الآية**»: أي إلى آخر الآية وهي قوله تعالى: ﴿**ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**﴾.

كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان فإذا انتصر المسلمون قالوا: نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها.

وقوله: «**أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين**»:

قيل في مثل هذا السياق أن الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقيل: إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعدها، أي: وأليس الله.

وقوله: «**أعلم**» مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

فالله أعلم بما في صدور ا لعالمين أي بما في صدور الجميع فالله أعلم بما في نفسك منك وأعلم بما في نفس غيرك لأن علم الله عام.

وكلمة: «**أعلم**» اسم تفضيل. وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم: «أعلم» بمعنى عالم وذلك فراراً من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ ففيه فساد المعنى؛ لأنك إذا قلت: أعلم بمعنى عالم فإن كلمة عالم تكون للإنسان وتكون لله، ولا تدل على التفاضل فالله عالم والإنسان عالم.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٣١.

عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على رزق الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره»[1].

وأما تحريف اللفظ فهو ظاهر حيث حرفوا اسم التفضيل الدال على ثبوت المعنى وزيادة إلى اسم فاعل لا يدل على ذلك.

والصواب أن «أعلم» على بابها وأنها اسم تفضيل وإذا كانت اسم تفضيل فهي دالة دلالة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق.

وقوله: «**بما في صدور العالمين**»:

المراد بالعالمين كل من سوى الله؛ لأنهم علم على خالقهم، فجميع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته.

والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك لعموم الآية.

وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه ولهذا لما تخلف كعب بن مالك في غزوة تبوك قال للرسول ﷺ حين رجع: «إني قد أوتيت جدلاً ولو جلست إلى غيرك من ملوك الدنيا لخرجت منهم بعذر لكن لا أقول شيئا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه»[2].

الشاهد من الآية:

قوله: فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله.

قوله: «**إن من ضعف اليقين**»:

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٥/١٠٦، ١٠/٤١، والبيهقي في شعب الإيمان ١/١٥١، ١٥٢ وقال: «محمد بن مروان ضعيفة.

وقال الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٤٩٠): «قلت: ضعيف، ومعناه صحيح».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي/ باب حديث كعب بن مالك ٣/١٧٦، ومسلم في التوبة/ باب حديث توبة كعب ٤/٢١٢٠.

. . . .

«من» للتبعيض والضعف ضد القوة ويقال: ضَعفٌ أو ضُعف وكلاهما بمعنى واحد.

قوله: «**أن ترضي الناس بسخط الله**»:

أن ترضي: اسم إن مؤخر، وخبرها مقدم «من ضعف اليقين» والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين[1].

قوله: «**بسخط الله**» الباء للعوض يعني أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله فتستبدل هذا بهذا، فهذا من ضعف اليقين.

واليقين أعلى درجات الإيمان، وقد يراد به العلم كما تقول تيقنت هذا الشيء أي علمته يقينا لا يعتريه الشك، فمن ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم فتجد الإنسان يجيء إلى شخص فيمدحه وقد يكون خالياً من هذا المدح ولا يبين ما فيه من عيوب، وهذا من النفاق وليس من النصح والمحبة، بل النصح أن تبين له عيوبه ليتلافاها ويحترز منها ولا بأس أن تذكر له محامده تشجيعاً إذا أمن في ذلك من الغرور.

قوله: «**وأن تحمدهم على رزق الله**»:

---

(١) قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى ١/٥١: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وماوعد أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى مافي أيديهم من الدنيا فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين».

. . . .

الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

ولكنه هنا ليس بشرط المحبة والتعظيم؛ لأنه يشمل المدح.

و«رزق الله» عطاء الله أي إذا أعطوك شيئا حمدتهم ونسيت المسبب وهو الله، والمعنى أن تجعل الحمد كله لهم متناسياً بذلك المسبب وهو الله فالذي أعطاك سبب فقط، والمعطي هو الله فالقدرة والإرادة على العطاء كلها من الله.

أما إن كان في قلبك أن الله هو الذي منّ عليك بسياق هذا الرزق ثم شكرت الذي أعطاك، فليس هذا داخلاً في الحديث بل هو من الشرع لقوله ﷺ: **«من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»**[1].

إذن الحديث ليس على ظاهره من كل وجه، فالمراد بالحمد أن تحمدهم الحمد المطلق ناسياً المسبب وهو الله عز وجل، وهذا من ضعف اليقين كأنك نسيت المنعم الأصلي وهو الله عز وجل الذي له النعمة الأولى وهو سفه أيضاً؛ لأن حقيقة الأمر أن الذي أعطاك هو الله فالبشر الذي أعطاك هذا الرزق لم يخلق ما أعطاك، فالله هو الذي خلق ما بيده وهو الذي عطف قلبه حتى أعطاك أرأيت لو أن إنساناً معه طفل فأعطى طفله ألف درهم وقال له أعطها فلانا فالذي أخذ الدراهم يحمد الأب؛ لأنه لو حمد الطفل فقط لعد هذا سفها؛ لأن

---

(١) أخرجه أحمد ٢/٦٨، ٩٩، ١٢٧، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٦)، وأبو داود في الزكاة/ باب عطية من سأل الله بالله ٢/٣١٠، والنسائي في الزكاة/ باب من سأل بالله ٥/٨٢، والطبراني في الكبير (١٣٤٦٥)، (١٣٤٦٦)، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم ١/٤١٢ وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية ٩/٥٦، والبيهقي ٤/١٩٩. والحديث صححه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربانية ٥/٢٥٠، وحسنه السخاوي في الفتوحات ٧/١٢١.

. . . .

الطفل ليس إلا مرسلاً فقط وعلى هذا فنقول: إنك إذا حمدتهم ناسياً بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء فهذا هو الذي من ضعف اليقين، أما إذا حمدتهم على أنهم سبب من الأسباب، وأن الحمد كله لله عز وجل فهو حق وصحيح.

قوله: «**وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله**»:

هذه عكس الأولى فمثلاً لو أن إنساناً جاء إلى شخص يوزع دراهم فلم يعط فسبه وشتمه، فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

لكن من قصر بواجب عليه فيذم لأجل أنه قصر بالواجب لا لأجل أنه لم يعط، فلا يذم من حيث القدر؛ لأن الله لو قدر ذلك لو جدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «**ما لم يؤتك**»: علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف لأنه فضلة والتقدير: ما لم يؤتكه.

قوله: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره**»

هذا تعليل لقوله: «أن تحمدهم وأن تذمهم».

ورزق الله: عطاؤه لكن حرص الحريص من سببه بلاشك، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستقل، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى، وكم من إنسان يفعل أسباباً كثيرة للرزق ولا يرزق، وكم من إنسان يفعل أسباباً قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي كما لو وجد ركازا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه، أو ما أشبه ذلك.

فهذا الحديث لا يمنع من فعل الأسباب.

وقوله: «**ولا يرده كراهية كاره**»: أي أن رزق الله إذا قدر للعبد فلن يمنعه عنه كراهية كاره، فكم من إنسان حسده الناس لكن الله يعطيه الرزق.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسولَ الله ﷺ قال: **«من التمس رضـا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضـا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»** رواه ابن حبان في صحيحه[1].

قوله: **«من التمس رضـا الله بسخط الناس»**:

التمس: طلب ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر **«التمسوها في العشر»**[2].

وقـولـه: **«رضي الله»**: أي أسبـاب رضاه. وقوله: **«بسخط الله»** الباء للعوض أي أنه طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلاً من هذا الرضـا، وجوب الشرط: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

قوله: **«رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»**:

هذا ظاهر فإذا التمس العبد رضـا ربه بنية صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده وأرضى عنه الناس، وذلك بما يلقي في قلوبهم من الرضـا عنه؛ لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

وظاهر الحديث حتى لو كان الناس من أقرب الناس إليك.

قوله: **«ومن التمس رضـا الناس بسخط الله»**:

التمس: طلب أي طلب ما يرضي الناس ولو كان يسخط الله فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده ولهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

---

(١) أخرجـه ابن حبـان بهذا اللفظ (١٥٤٢)، وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (١٩٩) والترمذي في الزهد/ باب من التمس رضا الله بسخط الناس ١٣٢/٧، والبغوي في شرح السنة ٤١٠/١٤، وأبو نعيم في الحلية ١١٨/٨، وابن حبان (١٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر/ باب تحري ليلة القدر ٦٤/١ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

. . . .

مناسبة الحديث للترجمة :

قوله : «ومن التمس رضا الناس» : أي خوفاً منهم حتى يرضوا عنه .

فيستفاد من الحديث ما يلي :

١ ـ وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس؛ لأن الله هو الذي ينفع ويضر .

٢ ـ أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائنا من كان .

٣ ـ إثبات الرضا والسخط لله ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ، وأما أهل التعطيل فينكرون ذلك قالوا : لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا لا يليق بالله ، وهذا خطأ ؛ لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق فنرد عليهم بأمرين بالمنع ثم النقض :

فالمنع : أن نمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله عز وجل كغضب المخلوقين .

والنقض : فنقول ـ للأشاعرة ـ أنتم أثبتم لله عز وجل الإرادة ، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة والرب عز وجل لا يليق به ذلك ، فإذا قالوا : هذه إرادة المخلوق نقول : والغضب الذي ذكرتم هو غضب المخلوق .

وكل إنسان أبطل ظواهر النصوص بأقيسة عقلية فهذه الأقيسة باطلة لوجوه :

الأول : أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق والنصوص باطلة وهذا ممتنع .

الثاني : أنها تقوّلٌ على الله بغير علم ؛ لأن الذي يبطل ظاهر النص يؤوله

. . . .

إلى معنى آخـر فيقال له: ما الذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظاهر النص؟ ففيه تقول على الله في النفي والإثبات نفي الظاهر وأثبت ما لم يدل عليه.

الثـالث: أن فيهـا جنـاية على النصوص حيث اعتقدوا أنها دالة على التشبيه؛ لأنه لم يعطل إلا لهذا السبب فيكون ما فهم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كفر أو ضلال.

الرابع: أن فيها طعناً بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين؛ لأننا نقول هذه المعاني التي صرفتم النصوص إليها هل الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون بها أم لا؟

فإن قالـوا: لا يعلمون فقد اتهموهم بالقصور وإن قالوا: يعلمون ولم يبينوها فقد اتهموهم بالتقصير.

فلا تستـوحش من نص دل على صفـة أن تثبتها لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما:

التمثيل ـ والتكييف . فإذا أثبت الله لنفسـه قدمـاً أو هرولـة، فلا تستوحش من إثبات ذلك لأن الذي نقل هذا رسول الله ﷺ وهو:

- أصدق الخلق.
- وأعلمهم بما يقول.
- وأبلغهـم.
- وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة لله وقال هذا تقشعر منه الجلود، فيقال هذا لا يقشعر منه إلا جلد إنسان في قلبه مرض، أما الذين آمنوا فتقشعر منه جلودهم ثم تلين إلى ذكر الله، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا والله يريد لعباده البيان قال تعالى: ﴿يريد

الله ليبين لكم﴾[1] فهو لا يريد أن يعمي عليهم الأمر فيقول إنه يغضب ولا يغضب ويقول: إنه يهرول وهو لا يهرول هذا خلاف البيان.

فالواجب على المؤمن أن يؤمن بما جاء عن الله على مراد الله، لكن جاء عن الله الإثبات والنفي قال تعالى: **﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾**[2] وقال: **﴿ليس كمثله شيء﴾**[3] وإذا صرفت هذا المعنى الفاسد عن النصوص فقد أَثْبَتَ النص على ما يليق بالله.

---

(1) سورة النساء، الآية: ٢٦.

(2) سورة النحل، الآية: ٧٤.

(3) سورة الشورى، الآية: ١١.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية آل عمران. **الثانية** : تفسير آية براءة. **الثالثة** : تفسير آية العنكبوت. **الرابعة** : أن اليقين يضعف ويقوى. **الخامسة** : علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث.

فيه مسائل :

الأول : تفسير آية آل عمران :

وهي قوله تعالى : **﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾** .

الثانية : تفسير آية براءة :

وهي قوله تعالى : **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾** فالخشية يجب أن تكون لله .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت :

وهي قوله تعالى : **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾** وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق .

الرابعة : أن اليقين يضعف ويقوي .

تؤخذ من الحديث : **﴿إن من ضعف اليقين . . . ﴾** الحديث .

الخامسة : علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث :

وهي
أن ترضي الناس بسخط الله
وأن تحمدهم على رزق الله
وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. **السابعة**: ذكر ثواب من فعله. **الثامنة**: ذكر عقاب من تركه.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض تؤخذ من قوله في الحديث: «**من التمس...**» الحديث.

السابعة: ذكر ثواب من فعله: وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

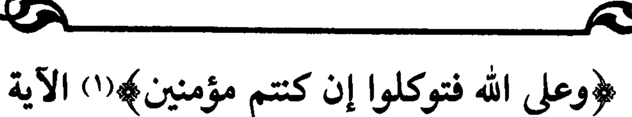
وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس ولا ينال مقصوده.

وخلاصة الباب:

أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من الله فوق كل خوف، وأن لا يبالي بأحد في شريعة الله تعالى، وأن يعلم أن من التمس رضا الله تعالى وإن سخط الناس عليه، فالعاقبة له وإن التمس رضا الناس وتعلق بهم وأسخط الله انقلبت عليه الأحوال ولم ينل مقصوده بل حصل له عكس مقصوده، وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس[1].

---

(١) قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ١/٥١: «والسعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله فترجو الله فيهم، ولا ترجوهم في الله، وتخاف الله فيهم، ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم، كما جاء في الأثر: «أرج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله» أي لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم، لارجاء مدحهم ولا خوفاً منهم، بل ارج الله، ولا تخفهم في الله فيما تأتي وتذر، بل افعل ماأمرت وإن كرهوه».



باب قول الله تعالى

﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[1] الآية

مناسبة هذا الباب لما قبله :

هي أن الإنسان إذا أفرد الله سبحانه بالخوف، فإنه يعتمد عليه في حصول مطلوبه وزوال مكروبه ولا يعتمد على غيره.

تعريف التوكل :

التوكل: هو الاعتماد على الله سبحانه وتعالى في جلب المطلوب، وزوال المكروه مع فعل الأسباب المأذون فيها، وهذا أقرب تعريف ولابد من أمرين:

الأول: أن يكون الاعتماد على الله اعتماداً صادقاً حقيقياً.

الثاني: فعل الأسباب المأذون فيها[2].

---

(1) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(2) ولفضيلة الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب كلام نفيس حول الأسباب المشروعة والممنوعة وضوابطها جاء فيه: «وكل سبب لم يأذن به الله باطل مضر لمتخذه فلا يتعاطى، وإذا حقق المؤمن أن الله سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله تعالى من الأسباب، كما جعل المطر سبباً للنبات.
قال تعالى: **﴿وأنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة﴾** وجعل الشمس والقمر سببين لما يخلقه بهما، والدعاء سببا لما يحصل للمدعو له أو عليه، والدواء سبباً لذهاب الداء، قد نبه على ذلك النبي ﷺ، بقوله: «**لم ينزل الله داء إلا أنزل له شفاء ـ يعني دواء ـ علمه من علمه، وجهله من جهله**»، رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أسامة بن شريك وفي لفظ: «**إن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء أو شفاء إلا داء واحداً** قالوا: يارسول الله وماهو؟ قال: الهرم». وهذا يعم داء القلب والروح والبدن، أرشد

. . . .

فمن جعـل أكثر اعتماده على الأسباب نقص توكله على الله، ويكون قادحـاً في كفاية الله فكأنه جعل السبب وحده هو العمدة فيما يصبو إليه من حصول المطلوب وزوال المكروه.

= ﷺ، العرنيين لما شكوا له الوخم ووجع البطن أن يلحقوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها وجعل الجهل داء ودواؤه سؤال العلماء.

قال رسول الله، ﷺ، في قصة صاحب الشجة: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العي السؤال**». كما أن وجود الداء سبب للألم، روى مسلم في صحيحه من حديث سهل بن حنيف عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**العين حق ولو أن شيئاً سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا**». وكذا السحر قال تعالى: ﴿**ويتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه**﴾. فهو سبب لألم الفؤاد، ويوجب البغضاء والفرقة بين الزوجين، والنار سبب للإحراق، والسكين سبب للقطع، والحبل سبب لإظهار الماء في الدلو، وأكل الطعام سبب لذهاب ألم الجوع، وشرب الماء سبب لذهاب ألم العطش، والكدح بالاجتهاد في تحصيل العلم سبب للفهم، والمتاجرة بالمال سبب لفائدة الربح، وطاعة الله سبب لرضائه ورحمته، ومعصيته سبب لسخطه وانتقامه، فالأسباب المنصوص عليها لا تنكر، ولا يتكل عليها إذ في إنكارها نقص في العقل، وفي الاتكال عليها شرك في الدين، وكل من الإنكار والاتكال منتف شرعاً، لكن قد يتخلف المسبب عنه مع قيام السبب، إذ الضار والنافع والمعطي والمانع هو الله وحده. قال تعالى: ﴿**وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله**﴾. وقال تعالى: ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾. وكتخلف إحراق النار عن إبراهيم، عليه السلام، حين وضع فيها، وحدة السكين حين أمرّها الخليل على حلقوم ولده إسماعيل، عليهما السلام، ولا محيص عن الأخذ في الأسباب، فليس المتوكل من فتح للسارق الباب، ولا من قال أنا متوكل أستغني عن الطعام والشراب. قال أفضل الأحباب لمن سأل أيعقل الناقة أم يتكل؟! قال: «**اعقلها وتوكل**». وأفضل المتوكلين أشد عباد الله حرصاً على فعل الأسباب، فقد أمر بإطفاء السراج والتسمية وإغلاق الأبواب، ونفض الفرش وطي الثياب، وحفظ الصبيان أول الليل لانتشار الشياطين، وهذا =

. . . .

ومن جعل أكثر اعتماده على الله ملغياً للأسباب فقد طعن في حكمة الله لأن الله جعل لكل شيء سبباً فمن اعتمد على الله اعتماداً مجرداً كان قادحاً في

الباب لا يحصيه العادون من سنن المرسلين، فالأخذ فيها لا ينافي التوكل لأنه الانقطاع عن جميع الخلق، وتفويض الأمور إلى الملك الحق وحده. وحيئنذ فلابد أن يعرف فيها ثلاثة أمور:

أحداها: أنها لا تستقل بالمطلوب، بل تتعاطى عن غير ركون إليها، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، وهو سبحانه ماشاء كان وإن لم يشأ الخلق، وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الخلق.

الثاني: أنه غير جائز اعتقاد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو بما يخالف الشريعة كان مبطلاً في إثباته آثماً في اعتقاداته.

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ شيء منها سبباً إلا أن يكون مشروعاً، إما استحباباً أو مأذوناً فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله مالم ينزل به سلطاناً، وأن يقول على الله بلا علم، فيدعو غير الله بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه وتعالى، وإن ظن ذلك سبب في حصول غرضه لاعتقاده أن ذلك المدعو يشفع له فيما دعاه فيه، لأنه جنس مااعتقده الأولون في آلهتهم، وكذلك لا يجوز أن يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول مايطلبه من أغراض دنياه أو ثواب أخراه على زعم اعتقاده، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، والرسول، ﷺ، إنما بعث لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ومانهى عنه فمفسدته راجحة.

﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾

من ذلك: قول المحرمات وقول السخريات ليتوصل بها إلى تحصيل شيء من أمتعته الدنيا أو القرب لدي ملك من ملوكها، قال تعالى: **﴿واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به﴾**. وكل شرك زور ولا عكس وقال تعالى: **﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾**.

. . . .

حكمـة الله لأن الله حكيم يربط الأسباب بمسبباتها كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لايتزوج.

= ومنه: التداوي بالمحرمات فلم يجعل الله الشفاء فيما حرمه، بل نزعه عنه وأوهنه، والبدع التي ليست من شريعة الإسلام في شيء بل هي من شعب الشرك الظاهرة، كأتربة أضرحة القبور لا يحل استعمالها أدوية، ولا تعاطيها لما في استعمالها من الاعتقادات الباطلة، والمفاسد في الدين الظاهرة، فهي أشبه بما فعله المشركون الأولون بآلهتهم من تعظيم الأصنام والتبرك والتمسح بها في كل مشهد خاص وعام.

ومنـه: ما اعتنى به بعض الأغبياء الجهال وعوام الضلال دعوتهم بدعاء تمخشياً وتمشيشاً ودعوتهم في الشدائد بأسماء أصحاب الكهف، وشمبخ وغيرهم، وبالدعوات المجهولات يزعمون أن هذه من الأسماء العظام والأدعية المستجابات، وأنه من الإنجيل والتوراة، فكل هذا من تلبيس إبليس على هؤلاء الجند الذين اختاروه واختارهم؛ فلسنا ملتزمين في شريعتنا ـ ملة الإسـلام ـ بتلك الأدعية في الصباح والمساء، ولم يقل أحد من العلماء الأدباء، بل الأغبياء السفهـاء من القصـاص اختاروها لتعزير العوام وجمع الحطام، فلم يعاملوا الله بالإخلاص، قال الله تعالى: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾. وأما الأسماء المنهي عنها، فإن الشيطان يظهر تأثيرات ويوري تلبيسه فيها منافع ظاهرة في أكثر الأحيان وهي حسرات، بل قد يكون التلفظ بتلك الكلمات كفراً لا يعرف معناها بالعربية. قال تعالى: ﴿**مافرطنا في الكتاب من شيء**﴾. وكل واسطة أو وسيلة نهى الشارع عنها لا يجوز اتخاذها في جلب نفع أو كشف ضر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك..**﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو**﴾. وقال تعالى: ﴿**فلا تدع مع الله أحداً**﴾.

قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا، فأمر الله المسلمين أن يخلصوا له الدعوة إذا دخلوا مساجدهم، وقال سعيد بن جبير: المساجد الأعضاء التي يقع عليها السجود مخلوقة لله، فلا تسجدوا عليها لغيره في كل ماريد إبداءه من خير ينفعه أو ضر يضره. قال تعالى: ﴿**له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا** =

والنبي ﷺ أعظم المتوكلين ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب. فالنبي ﷺ كان يأخذ الزاد في السفر، ولما خرج إلى أحد ظاهر بين درعيه أي لبس درعين اثنين[1]، ولما خرج مهاجراً أخذ من يدله الطريق[2]، ولم يقل سأذهب مهاجراً وأتوكل على الله ولن أصطحب معي من يدلني الطريق، وكان ﷺ يتقي الحر، والبرد، ولم ينقص ذلك من توكله.

ويذكر عن عمر رضي الله عنه أن قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد فجيء بهم إلى عمر فسألهم فقالوا: نحن المتوكلون على الله: فقال: لستم المتوكلين بل أنتم المتواكلون.

والتوكل نصف الدين ولهذا نقول في صلاتنا: **﴿إياك نعبد وإياك**

= **كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال﴾**. وقال تعالى: **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾**. أي لا أحد، فلا يدانيه سبحانه أحد، ولا يستقل سواه تعالى بما أراده، ولا يعطي لما منعه، فهذه الأسباب التي تتخذ وسائط ووسائل في الجلب والدفع الذين لايقدر عليهما إلا الله وحده منفية بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، إلا أسباباً وردت عن الله أو رسوله كالتوحيد والصلاة بحضور قلب وخشوع، وذل وانكسار، والدعاء والاستغفار بعد الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على ألا يعود إليه، والأعمال الصالحة من صدقة وصلة رحم وطاعة الله وتقواه، فهي الأسباب في جلب الخير، ودفع الشر، كما صرح به القرآن الكريم والسنة.
التوضيح عن توحيد الخلاق للشيخ سليمان ص ١٦٩ - ١٧٢
وانظر أيضاً كلام ابن القيم في باب من الشرك لبس الحلقة.

(١) أخرجه الإمام أحمد ٣/٤٤٩، وأبو داود في الجهاد /باب في لبس الأروع ٣/٧١ ولم يجزم سفيان بسماعه هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة/ باب استئجار المشركين ٢ / ١٣٠ من حديث عائشة رضي الله عنها.

. . . .

نستعين﴾[1]، فنطلب من الله العون اعتماداً عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته.

وقال تعالى: ﴿**فاعبده وتوكل عليه**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**عليه توكلت وإليه أنيب**﴾[3]، ولايمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل، لأن الإنسان لو وكل إلى نفسه وكل إلى ضعف وعجز، ولم يتمكن من القيام بالعبادة، فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك فيفوتنا ثواب عظيم وهو ثواب التوكل، كما أننا لا نوفق إلى كمال العبادة كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها.

هذا عن منزلة التوكل وأنه من منازل السائرين إلى الله.

وهذا في الحقيقة لا يعتمد الإنسان عليه إلا وهو يعتقد أن هناك سبباً خفياً يوجب جلب المنفعة أو دفع المضرة وهذا هو الشرك الأكبر.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك وهذا من الشرك الأصغر وقال بعضهم: من الشرك الخفي مثل اعتماد كثير من الناس على المالية في الراتب ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب بل جعله فوق السبب.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨٨.

. . . .

الثالث: أن يتوكل على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه وهذا لا شيء فيه؛ لأنه اعتمد عليه وكأنه يشعر أن المنزلة العليا له فوقه؛ لأنه جعله نائباً عنه، وقد وكل النبي ﷺ علي بن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه[1]، ووكل أبا هريرة على الصدقة[2]، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له أضحية[3]، وهذا بخلاف القسم الثاني لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أجل المقامات، وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شئونه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية**». لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات عن الله تعالى والإنسان لايعتمد إلا على من كان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه.

وكذلك القدرية لأنهم يقولون إن العبد مستقل بعمله، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.

ومن ثم نعرف أن طريق السلف هو خير الطرق وبه تجتمع جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين.

قوله: ﴿**وعلى الله فتوكلوا**﴾، (على الله) متعلقة بقوله: (توكلوا) وتقديم المعمول يدل على الحصر أي على الله لا على غيره، ﴿**فتوكلوا**﴾ أي اعتمدوا والفاء حرف عطف معطوفة على الجملة التي قبلها وهي: ﴿**قال رجلان من**

---

(١) أخرجه مسلم في الحج باب حجة النبي ﷺ ٢/٨٩٢ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١).

(٣) أخرجه البخاري في المناقب/ باب حدَّثنا محمد بن المثنى ٢/٥٣٩.

قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾. الآية.

الذين يخافون أنعم الله عليهما. . . .﴾. الآية.

ويحتمل أن تكون لتحسين اللفظ لأن الفاء قد تأتي زائدة إعراباً لتحسين اللفظ، ويؤيد هذا أن لدينا حرف عطف وهو الواو ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين فتكون لتحسين اللفظ كقوله تعالى: **﴿بل الله فاعبد﴾** والتقدير **﴿بل الله اعبد﴾**.

قوله: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾**، **﴿إن﴾** شرطية وفعل الشرط **﴿كنتم﴾** وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله وتقدير الكلام إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لايحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق، فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح لأن الأصل عدم الحذف.

وقول أصحاب موسى: في هذه الآية، يفيد أن التوكل من الإيمان ومن مقتضياته كما لو قلت: إن كنت كريماً فأكرم الضيف.

فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم.

وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمان بانتفاء التوكل إلا إن حصل اعتماد على غير الله وشرك أكبر، فينتفي كله.

وقوله: **﴿إنما المؤمنون﴾ ﴿إنما﴾**: أداة حصر، والحصر هو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه، والمعنى، ماالمؤمنون إلا هؤلاء.

وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

. . . .

أحدها: قوله: ﴿**الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم**﴾ أي خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى مثال ذلك: رجل هم بمعصية فذكر الله وقيل له: اتق الله فإن كان مؤمناً فإنه سيخاف وهذا هو علامة الإيمان.

الوصف الثاني:

قوله: ﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾، وفي هذا دليل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكثر مما ينتفع بقراءة نفسه كما أمر الرسول ﷺ عبدالله بن مسعود أن يقرأ عليه، فقال: كيف أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**»، فقرأ عليه من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا**﴾[1]، قال: «**حسبك**» فنظرت فإذا عيناه تذرفان[2].

الوصف الثالث:

قوله: ﴿**وعلى ربهم يتوكلون**﴾ أي يعتمدون على الله لا على غيره وهم مع ذلك يعملون الأسباب وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع:

قوله: ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ أي يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

الوصف الخامس:

قوله: ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ ﴿**من**﴾ للتبعيض فيكون الله يمدح من

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/ باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ٢١٧/٣، ومسلم في صلاة المسافرين/ باب فضل استماع القرآن ٥٥١/١.

أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون للجنس فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب أن من أنفق الكل يدخل في الثناء إذا توكل.

على الله في أن يرزقه وأهله كما فعله أبو بكر[2]، أما إن كان أهله في حاجة، أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله فلا ينبغي أن ينفق ماله كله.

قوله: ﴿ياأيها النبي﴾ المراد به الرسول ﷺ يخاطب الله رسوله بوصف النبوة، وبوصف الرسالة، فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة، وأما في الأحكام الخاصة فالغالب أن يناديه بوصف النبوة قال تعالى: ﴿ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾[4]، ﴿والنبي﴾ فعيل بمعنى، مفعَل، ومفعِل أي مُنبِىء، ومُنْبَيء، والرسول ﷺ منبيء من قبل الله، ومنبيء لعباد الله قوله: ﴿حسبك الله﴾ أي كافيك. والحسب، الكافي ومنه قوله: أعطى درهماً فحسب وحسب خبر مقدم والله مبتدأ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة/ باب الرخصة في ذلك - أي خروج الرجل من ماله - ٢/٣١٣، والترمذي في المناقب/ باب الصديق ينفق كل ماله ٩/٧٧ والدارمي ١/٣٩١ وقال الترمذي: حسن صحيح.
وأخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة من طريق آخر ١/٣٦٠.

(٣) سورة التحريم، الآية: ١.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١.

. . . .

مؤخر والمعنى ما الله إلا حسبك ويجوز العكس، ويكون المعنى ما حسبك إلا الله.

قولـه: ﴿ومن اتبعـك من المؤمنـين﴾ من: اسم موصـول مبنية على السكـون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم، قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين و﴿من﴾ معطوفة على الله، لأنه أقرب ولو كان العطف على الكـاف في حسبك لوجب إعادة الجار وهذا كقوله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾[1]، فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسباً له هنا كما كان الله حسباً له.

وهذا ضعيف والجواب عنه من وجوه:

أولاً: قولهم عطف عليه لكونه أقرب ما كان ليس بصحيح فقد يكون العطف على شيء سابق حتى إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانياً: قولهم لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار والصحيح أنه ليس بلازم قال ابن مالك: إذ قد أتىٰ في النظم والنثر الصحيح مثبتا.

ثالثاً: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾.

فالتأييد لهم غير كونهم حسبه لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه وبينهما فرق.

رابعـاً: أن الله سبحانه حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه قال تعالى: ﴿ولـو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٢.

وقوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾[1].

ورسوله﴾[2]، وقال تعالى: ﴿قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون﴾[3]، فكما أن التـوكـل على غير الله لايجوز فكذلك الحسب لايمكن أن يكون غير الله حسباً، فلو كان لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامساً: أن في قوله: ﴿ومن اتبعك﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسباً للرسـول ﷺ وذلـك لأنهم تابعون فكيف يكون التابع حسباً للمتبوع؟ هذا لايستقيم أبداً، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿حسبك﴾ أي وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعاً أنت ومن اتبعك.

قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ جملة شرطية تفيد بمنطوقها أن من يتوكل على الله فإن الله يكفيه مهماته وييسر له أمره فالله حسبه ولو حصل له بعض الأذية فإن الله يكفيه الأذىٰ فلا يبلغ الغاية، والرسول ﷺ سيد المتوكلين ومع ذلك يصيبه الأذىٰ ولا تحصل له المضرة؛ لأن الله حسبه فالنتيجة لمن اعتمد على الله.

والآية تفيد بمفهـومهـا: أن من توكل على غير الله خذل؛ لأن غير الله لايكون حسباً كما تقدَّم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه وصار موكلاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٨.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حَسْبنا الله ونعم الوكيلُ» قالها إبراهيم حين أُلقي في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: **﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾**[1] الآية رواه البخاري، والنسائي[2].

قوله: قالها محمد ﷺ حين قالوا له **﴿إن الناس قد جمعوا لكم﴾ وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركباً فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة، فقال: بلغوا محمداً وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم فجاء الركب إلى المدينة فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرجوا في نحو سبعين راكباً حتى بلغوا حمراء الأسد، فكان أن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين حيث اعتمدوا عليه. قوله: ﴿قال لهم الناس﴾** أي الركب.

قوله: **﴿إن الناس﴾** أبو سفيان ومن معه وكلمة الناس هنا يمثل بها الأصوليون للعام الذي أريد به الخصوص.

قوله: **﴿حسبنا﴾** أي كافينا.

قوله: **﴿نعم الوكيل﴾** نعم فعل ماض، (الوكيل) فاعل والمخصوص محذوف تقديره هو أي الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه، والله سبحانه يطلق عليه اسم وكيل وهو أيضاً موكل، والوكيل في مثل قوله تعالى: **﴿نعم الوكيل﴾**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير/ باب تفسير سورة آل عمران ٣/ ٢١١، ولعله في سنن النسائي الكبرى.

فيه مسائل: الأولى: أن التوكل من الفرائض. الثانية: أنه من شروط الإيمان. الثالثة: تفسير آية الأنفال. الرابعة: تفسير الآية في آخرها. الخامسة: تفسير آية الطلاق. السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد.

وقوله تعالى: ﴿**وكفى بالله وكيلا**﴾[1]، وأما الموكل ففي مثل قوله تعالى: ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾[2].

وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه، فليس توكيله سبحانه من حاجة له، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون.

واستدلال ابن عباس في الحديث لقصة إبراهيم، فنقول: إنه قال قولاً لا مجال للرأي فيه فيكون له حكم الرفع.

وابن عباس ممن يروى عن بني إسرائيل، فيحتمل أخذه منهم، ولكن جزمه بهذا وقرنه لما قاله الرسول ﷺ مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.

الشاهد من الآية: قوله تعالى: ﴿**وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

الأولى: أن التوكل من الفرائض:

ووجه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿**وعلى الله فتوكلوا إن**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨١.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٨٩.

. . . .

كنتم مؤمنين﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان:

تؤخذ من قوله تعالى: **﴿إن كنتم مؤمنين﴾ وسبق تفسيرها.**

الثالثة: تفسير آية الأنفال:

وهي قوله تعالى: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...﴾** الآية. والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا فالإنسان يكون مؤمناً وإن لم يتصف بهذه الصفات لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها:

وهي قوله تعالى: **﴿ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾**. أي حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا هو الراجح على ما سبق.

الخامسة: تفسير آية الطلاق:

وهي قوله تعالى: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾** وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام، ومحمد ﷺ في الشدائد وهي: **﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾**

وفي الباب مسائل غير ما ذكر المؤلف منها: زيادة الإيمان لقوله تعالى: **﴿فزادتهم إيماناً﴾**.

ومنها: أنه عند الشدائد ينبغي للإنسان أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب؛ لأن الرسول ﷺ وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ولكنهم فوضوا الأمر إلى الله، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.



باب قول الله تعالى

﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾(1)

قولـه: ﴿أفأمنوا﴾: الضمير يعود على أهل القرى؛ لأن ما قبلها قوله تعـالى: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾(2).

فقوله: ﴿وهم نائمون﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام؛ وقوله: ﴿ضحى وهم يلعبون﴾ يدل أيضاً على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق؛ لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى ـ في رابعة النهار ـ يلعبون.

والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء، فهم نائمون وفي رغد، ومقيمون على معاصي الله وعلى اللهو، ذاكرون لترفهم غافلون عن ذكر خالقهم، فهم في الليل نوم وفي النهار لعب، فبين الله عز وجل أن هذا مكره بهم ولهذا قال: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ فالذي يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصيته يظن أنه رابح وهو في الحقيقة خاسر.

فإذا أنعم الله عليك من كل ناحية: أطعمـك من جوع وآمنك من

---

(1) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(2) سورة الأعراف، الآيات: ٩٧، ٩٨، ٩٩.

. . . .

خوف، وكساك من عري فلا تظن أنك رابح وأنت مقيم على معصية الله بل أنت خاسر.

قوله: ﴿إلا القوم الخاسرون﴾ الاستثناء للحصر؛ وذلك لأن ما قبله مفرغ له، فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ دليل على أن لله مكراً، والمكر هو: التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»[1]، فإن قيل كيف يوصف الله بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟

قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لايوصف الله به على الإطلاق فلا يجوز أن تقول: إن الله ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحاً مثل قوله تعالى: ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون﴾[3]، ومثل قوله تعالى: ﴿أفأمنوا مكر الله﴾[4]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق بل إنها في المقام التي تكون مدحاً يوصف بها وفي المقام التي لاتكون مدحاً لايوصف بها.

وكذلك لا يسمى الله بها فلا يقال: إن من أسماء الله الماكر.

وأما الخيانة فلا يوصف الله بها مطلقاً؛ لأنها ذم بكل حال إذ إنها مكر في

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحرب خدعة ٢/٣٦٦، ومسلم في الجهاد/ جواز الخداع في الحرب ٣/١٣٦٢، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

وقوله: ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[1]:

موضع الائتمان، وهو مذموم قال تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾[2]، ولم يقل خانهم.

وأما الخداع فقال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾[3]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

ويستفاد من هذه الآية:

١ ـ الحذر من النعم التي يجلبها الله للعبد؛ لئلا تكون استدراجاً؛ لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها وهي القيام بطاعة المنعم، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم فاعلم أن هذا من مكر الله.

٢ ـ تحريم الأمن من مكر الله وذلك لوجهين:

الأول: أن الجملة بصيغة الاستفهام الدال على الإنكار والتعجب.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾.

قوله: ﴿ومن يقنط﴾ (من) اسم استفهام؛ لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم يكن لها جواب، والقنوط: أشد اليأس؛ لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿من رحمة ربه﴾: هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف والتقدير (من رحمة ربه إياه).

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

. . . .

قولـه: ﴿**إلا الضـالون**﴾، إلا: أداة حصر؛ لأن الاستفهام في قوله: ﴿**ومن يقنط**﴾، مراد به النفي، و﴿**الضالون**﴾ فاعل يقنط، والمعنى لايقنط من رحمة الله إلا الضالون. والضال: فاقد الهداية التائه الذي لايدري ما يجب لله سبحانه مع أنه سبحانه قريب الخير، ولهذا جاء في الحديث: «**عجب ربنا من قنـوط عبـاده، وقرب غيره ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكـــم قريب**»[1]، وأمـا معنى الآية فإن إبـراهيم عليه السـلام لما بشرته الملائكة: بغلام عليم قال لهم: ﴿**أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون، قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قـال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾[2].

فالقنوط من رحمة الله لا يجوز؛ لأنه سوء ظن بالله عز وجل، وذلك من وجهين.

الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرة الله.

الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه؛ لأن من علم أن الله رحيم لايستبعد أن يرحمه الله سبحانه ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالاً.

ولا ينبغي للإنسـان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه، أو كشف مكروبه، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها فنجاه الله

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١١، ١٢. وابن ماجه في المقدمة ١/ ٦٤، وقال في الزوائد: ١/ ٦٤: «وكيع ذكره ابن حبان في الثقات وباقي رجاله بهم مسلم».

(٢) سورة الحجر، الآيات: ٥٤ ـ ٥٦.

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر فقال: **«الشرك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله»**[1].

سبحانه إما بعمل سابق، مثل ما وقع ليونس عليه السلام، قال تعالى: **﴿فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾**[2].

وقد ينجو بعمل لاحق وذلك كدعاء الرسول ﷺ يوم بدر[3]، وليلة الأحزاب[4]، وكذلك أصحاب الغار[5].

وتبيَّن مما سبق أن المؤلف رحمه الله أراد أن يجمع الإنسان بين الخوف فلا يأمن مكر الله، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته، فالأمن من مكر الله ثلم في جانب الخوف، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء.

قوله: «الكبائر» جمع كبيرة، والمراد بها: كبائر الذنوب، وهذا السؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى: صغائر وكبائر وقد دلَّ على ذلك القرآن قال تعالى:

---

(١) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٠٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ١/٤٨٥، والطبراني كما في المجمع ١/١٠٤، في الدر المنثور/٢/١٤٧، وقال الهيثمي ١/١٠٤: «رواه البذار والطبراني ورجاله موثقون».

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي / باب قصة عروة ٣/٨٣، ومسلم في الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٣/١٣٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في المغازي/ باب غزوة الخندق ٣/١١٨، ومسلم في الجهاد/ باب استحباب الدعاء بالنصر ٣/١٣٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في البيوع/ باب إذا اشترى شيئاً لغيره ٢/١١٦، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب قصة أصحاب الغار ٤/٢٠٩٩.

. . . .

﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾[1] وقال تعالى: **﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾**[2]، والكبائر ليست على درجة واحدة فبعضها أكبر من بعض.

واختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة؟ فقال بعض أهل العلم: إنها معدودة، وصار يعددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك.

وقيل: إنها محدودة، وقد حدَّها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقال: «كل ما رتب عقوبة خاصة سواء كانت في الدنيا أو الآخرة، وسواء كانت بفوات محمود أو بحصول مذموم»، وهذا واسع جدًّا يشمل ذنوباً كثيرة.

ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان: قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات كقوله ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[3]، وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة[4]، والوضوء من تكفير الخطايا[5]، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة كاللعن أو الغضب أو التبرئ من فاعله أو الحد في الدنيا أو نفي الإيمان وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة/ باب الصلوات الخمس... ١/ ٢٠٩ من حديث أبي هريرة.
(٤) أخرجه البخاري في العمرة/باب وجوب العمرة وفضلها ١/ ٥٣٧.
(٥) أخرجه مسلم في الطهارة/ باب الصلوات الخمس ١/ ٢٠٩ من حديث أبي هريرة.

وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبدالرزاق[1].

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها خلافاً لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: (**الشرك بالله**) ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر؛ لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً»[2] وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقاً.

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته، أو بألوهيته، أو بأسمائه وصفاته.

قوله: (**اليأس من روح الله**) الروح قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، وهو من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: ﴿**الأمن من مكر الله**﴾، بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿**والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين**﴾[3].

وظاهر هذا الحديث: الحصر وليس كذلك؛ لأن هناك كبائر غير هذه، ولكن الرسول ﷺ يجيب كل سائل بما يناسب حاله فلعله رأى هذا السائل عنده شيء من الأمن من مكر الله، أو اليأس من روح الله فأراد أن يبين له ذلك، وهذه مسألة ينبغي أن يفطن لها الإنسان فيما يأتي من النصوص الشرعية مما ظاهره

---

(١) أخرجه عبدالرزاق ١٠/٤٥٩، ٤٦٠، وابن جرير ٥/٢٦، والطبراني في الكبير (٨٧٨٣، ٨٧٨٤، والهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٠٤.

(٢) سبق ص (١٢٤).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

التعارض يحمل كل واحد منها على الحال المناسبة لئلا يتوهم التعارض بين النصوص الشرعية .

قوله : «**الإشراك بالله**» : هذا أكبر الكبائر؛ لأنه انتهاك لأعظم الحقوق وهو حق الله تعالى الذي أوجدك وأعدك وأمدك ، فلا أحد أكبر عليك نعمة من الله تعالى .

قوله : «**الأمن من مكر الله**» ، سبق شرحه .

قوله : «**القنوط من رحمة الله واليأس من روح الله**» ، المراد بالقنوط أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب ، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه ، وإنما قلنا ذلك لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود .

والخلاصة : أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه وهما الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله ، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يحب تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه ، وأما الأمن من مكر الله فتجد الإنسان مقيماً على المعاصي مع توافر النعم عليه ، ويرى أنه على حق فلاشك أن هذا استدراج .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الأعراف .

وهي قوله تعالى : ﴿**أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم**

. . . .

الخاسرون﴾ وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر.

وهي قوله تعالى: **﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾** وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

وذلك بأنه من أكبر الكبائر كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.



باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[1]

الصبـــر:

في اللغة: الحبس، ومنه قولهم: «قتل صبرا»، أي محبوساً مأسوراً.

وفي الاصطلاح: حبس النفس، وذلك بحبس القلب عن التسخط المحرم، واللسان عن القول المحرم، والجوارح عن الفعل المحرم.

أقسام الصبر ثلاثة:

الأول: الصبر على طاعة الله قال تعالى: **﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك﴾**[3]، وهذا يشمل الصبر على الأوامر؛ لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه فيكون مأموراً بالصبر على الطاعة، وقال تعالى: **﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾**[4]، وهذا صبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله كصبر يوسف عليه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكان لها فيه العزة والقوة والسلطان عليه ومع

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

ذلك صبر وقال: ﴿**رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبو إليهن وأكن من الجاهلين**﴾[1]. فهذا صبر على معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله: قال تعالى: ﴿**فاصبر لحكم ربك**﴾[2] فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري، ومنه قوله تعالى: ﴿**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم**﴾[3]، لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذىٰ قومه، ومنه قوله ﷺ لرسول إحدىٰ بناته: «**مرها فلتصبر ولتحتسب**»[4].

إذن الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهـذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فتن الإنسان مثلاً بامرأةٍ جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مائة صلاة وتكون أهون عليه من هذا.

وقـد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة فقد يموت له مثلاً قريب أو صديق أو عزيز عليه جدًّا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز/ باب قول النبي ﷺ: «يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه ١/٣٩٥، ومسلم في الجنائز/باب البكاء على الميت ٢/٦٣٥.

. . . .

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصي الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار الصبر عليها أشد، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

وكأن الصبر على الطاعة أعلى؛ لأنه يتضمن إلزاماً وفعلاً، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي والصوم فتصوم والحج فتحج . . . ففيه إلزام وفعل، وحركة فيها نوع من المشقة والتعب، ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه كفاً فقط أي إلزاماً للنفس بالترك، أما الصبر على الأقدار فلأن سببه ليس باختيار العبد فليس فعلاً ولا تركاً، وإنما هو من قدر الله المحض.

وخص المؤلف رحمه الله في هذا الباب الصبر على أقدار الله؛ لأنه مما يتعلق بتوحيد الربوبية؛ لأن تدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى.

قوله: «**على أقدار الله**» جمع قدر وتطلق على المقدور وعلى فعل القادر، أما بالنسبة لفعل القادر فيجب على الإنسان الرضا والصبر، وبالنسبة للمقدور فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

مثال ذلك: قدر الله على سيارة شخص أن تحترق، فكون الله قدَّر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به، لأنه من تمام الرضا بالله رباً.

وأما بالنسبة للمقدور الذي هو احتراق السيارة فالصبر واجب، والرضا مستحب وليس بواجب على القول الراجح.

والمقـدور قد يكون طاعات، وقد يكون معاصي، وقد يكون من أفعال الله المحضة فالطاعات يجب الرضا بها، والمعاصي لايجوز الرضا بها من حيث هي

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت**»[1].

مقدور أما من حيث كونها قدر الله فيجب الرضا بتقدير الله بكل حال ولهذا قال ابن القيم:

فلذاك نرضـــاك نرضى بالقضـــاء ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان

فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل معصية فعليه الرضا؛ لأن الله هو الذي قدر هذا وله الحكمة في تقديره، وإذا نظر إلى فعله فلا يجوز له أن يرضىٰ؛ لأنه معصية وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور.

قوله: «**ومن يؤمن بالله**»، (مَنْ) اسم شرط جازم وفعل الشرط «يؤمن»، وجوابه «يهد».

قوله: «**يهد قلبه**» هذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب فإذا اهتدىٰ القلب اهتدت الجوارح لقوله ﷺ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[2].

قوله: «**قال علقمة**» هو من أكابر التابعين.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ١/ ٨٢.

(٢) سبق.

. . . .

لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر فهو مناف للصبر الواجب.

وهذه الجملة هي الشاهد للباب.

والناس حال المصيبة على مراتب أربع.

الأولى: التسخط، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ويغضب على ما قدر الله عليه، وقد يؤدِّي إلى الكفر قال تعالى: **﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة﴾**[1]، وقد يكون باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وقد يكون بالجوارح كلطم الخدود وشق الجيوب ونتف الشعور، وما أشبه ذلك.

الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

الصبر مثل اسمه مر مذاقته لكن عواقبه أحلىٰ من العسل

فيرى الإنسان أن هذا الشيء ثقيل عليه ويكرهه، لكنه يتحمله وليس وقوعه وعدمه سواء عنده، بل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط.

الثالثة: الرضا وهو أعلى من ذلك وهو أن يكون الأمران عنده سواء، لأنه رجل يسبح في القضاء والقدر أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نازل به على سهل أو جبل، إن أصيب بنعمة أو أصيب بضدها فالكل عنده سواء؛ لا لأن قلبه ميت بل لتمام رضاه بربه سبحانه وتعالى يتقلب في تصرفات الرب عز وجل ولكنها عنده سواء إذ إنه ينظر إليها باعتبارها قضاء لربه، وهذا الفرق بين الرضا والصبر.

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان؛ لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

قوله: «**اثنتان**» مبتدأ، وسوغ الابتداء به التقسيم، أو أنه مفيد للخصوص.

قوله: «**بهم كفر**» الباء يحتمل أن تكون بمعنى «من» أي هما منهم كفر، ويحتمل أن تكون بمعنى «في» أي هما فيهم كفر.

قوله: «**كفر**» أي هاتان الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافراً كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان كالحياء والشجاعة والكرم أن يكون مؤمناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بخلاف قول رسول الله ﷺ بين الـرجل والشرك والكفر ترك الصلاة»[1] فإنه هنا أتى بأل الدالة على الحقيقة فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة بخلاف مجيء «كفر» نكرة فلا يدل على الخروج عن الإسلام[2].

قوله: «**الطعن في النسب**»، أي العيب فيه، أو نفيه فهذا عمل كفر.

قوله: «**النياحة على الميت**» أي أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ عن جابر رضي الله عنه.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٢٠٨، ٢٠٩.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[1].

الرابعة: الشكر وهو أعلىٰ المراتب وذلك أن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة وذلك يكون في عباد الله الشاكرين، فإذا عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته وربما لزيادة حسناته شكر الله على ذلك قال ﷺ: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا شيء إلا كفّر له بها حتى الشوكة يشاكها**»[2]، كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك.

قوله: «**مرفوعاً**» إلى النبي ﷺ.

قوله: «**من ضرب الخدود**» العموم يراد به الخصوص.

قوله: «**من شق الجيوب**»، هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس. وذلك عند المصيبة تسخطاً وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: «**ودعا بدعوى الجاهلية**»: دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية) لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة مثل قولهم: وويلاه، وانقطاع ظاهراه.

ومن الأولى أن يرجح عموم الحديث، والقرينة لا تخصصه فيكون المقصود بالدعوى التي منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة لأنها غالباً ماتكون عند المصائب، وإلا فمثله هدم البيوت وكسر القبور.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم ١/٩٩.

(٢) أخرجه البخاري في المرضىٰ/ باب كفارة المرض ٤/٢٣، ومسلم في البر والصلة/ باب ثواب المؤمن ٤/١٩٩٢م.

وعن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: **«إذ أراد الله بعبده خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»**(1).

وهذه الثلاثة من الكبائر؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية، مثل: ضرب الأب لابنه وكذلك شق الجيب لأمر تراه.

قوله: **«إذا أراد الله بعبده الخير»**: الله يريد بعبد الخير والشر، ولكن الشر المراد به لله تعالى ليس مراداً لذاته بدليل قول النبي ﷺ: **«والشر ليس إليك»**(2)، ولكن الله يريد الشر لحكمة وحينئذ يكون خيراً باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: **«عجل له العقوبة في الدنيا»**.

العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه. وسميت بذلك لأنها تعقب الذنب، ولكنه لايقال: إلا في الشر.

وقوله: **«عجل له العقوبة في الدنيا»** كان ذلك خيراً؛ لأنه يزول وينتهي

---

(1) أخرجه الترمذي في الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٧/١٢٣، وقال: «حسن غريب»، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٥٤، والبغوي في شرح السنة ٥/٢٤٥، والحديث له شاهد من حديث عبدالله بن مغفل، وابن عباس وعمار بن ياسر، رضي الله عنهم، فهو صحيح بمجموع طرقه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٢٢٠).

(2) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين/ باب الدعاء في صلاة الليل ١/٥٣٤.

. . . .

ولهذا قال النبي ﷺ للمتلاعنين: «**إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**».

وهناك خير أولى وهو العفو عن الذنب، وهذا أعلى لأن الله إذا لم يعاقبه في الدنيا ولا في الآخرة فهذا هو الخير كله، ولكن الرسول ﷺ قال: «**خيراً**» باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة خير نسبي لا مطلق، قال تعالى: ﴿**إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[1].

والعقوبة لها أنواع كثيرة:

منها ما يتعلق بالدين وهي أشدها، لأن العقوبات الحسية قد يتنبه لها الإنسان أما هذه فلا يتنبه لها إلا من وفقه الله وذلك كما لو خفت المعصية في نظر العاصي فهذه عقوبة دينية تجعله يستهين بها، وكذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمات الله، وعدم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ذلك من المصائب، ودليله قوله تعالى: ﴿**فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم**﴾[2].

ومنها: العقوبة بالنفس وذلك كالأمراض.

ومنها: العقوبة بالأهل كفقدانهم أو أمراض تصيبهم.

ومنها: العقوبة بالمال كنقصه أو تلفه وغير ذلك.

قوله: «**وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه**».

«أمسك» فعل: يوصف الله بالإمساك؛ لأن أفعال الله لا نهاية لها، وكل فعل يفعله الله يوصف به قال تعالى: ﴿**ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٩.

(٣) سورة الحج، الآية: ٦٥.

. . . .

قوله: «**حتى يوافى به يوم القيامة**» أي يوافيه الله به يوم القيامة وهو الذي يقوم به الناس من قبورهم لله رب العالمين.

وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب:

١ - قيام الناس من قبورهم لقوله تعالى: ﴿**يوم يقوم الناس لرب العالمين**﴾(١).

٢ - قيام الأشهاد، لقوله تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾(٢).

٣ - وقيام العدل، لقوله تعالى: ﴿**ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**﴾(٣).

والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث: تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع فإن ذلك قد يكون خيراً، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة.

وعلى فرض أن أحداً لم يأت بخطيئة وأصابته مصيبة فنقول له: إن هذا من باب امتحان الإنسان على الصبر، ورفع درجاته باحتساب الأجر، لكن لايجوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يرى أنه لم يخطيء أن يقول: أنا لم أخطيء فهذه تزكية فلو فرضنا أن أحداً لم يصب ذنباً وأصيب بمصيبة فإن هذه المصيبة لا تلاقي ذنباً تكفره لكنها تلاقي قلباً تمحصه فيبتلي الله الإنسان بالمصائب لينظر هل يصبر أو لا؟ ولهذا كان أخشىٰ الناس لله عز وجل وأتقاهم محمد ﷺ يوعك كما يوعك رجلان منا(٤)، وذلك لينال أعلى درجات الصبر فينال

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٤) أخرجه البخاري في المرضى / باب شدة المرض ٤/٥٤، ومسلم في البر والصلة / باب ثواب =

. . . .

مرتبة الصابرين على أعلى وجوهها، ولذلك شدد عليه ﷺ عند النزع ومع هذه الشدة كان ثابت القلب، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وهو يستاك فأمده بصره، يعني ينظر إليه فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريد السواك فقالت: آخذه لك؟ فأشار برأسه نعم. فأخذت السواك وقضمته وآلانته وعلكته للرسول ﷺ فأعطته إيَّاه فاستن به، قالت عائشة مارأيته استن استنانًا أحسن منه، ثم رفـع يده وقال: «**في الرفيق الأعلى**»[1] فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العـظيم مع هذه الشدة العظيمة كل هذا لأجل أن يصل الرسول ﷺ أعلى درجات الصابرين صبر لله، وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات.

فمن أصيب بمصيبة فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه فليحذر هذا. ومع ذلك لو فرض ذلك فإنه خير له، لينل بذلك درجات الصابرين.

ومن ذلك يتضح لنا أمران:

١ - أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيراً لسيئاته، وتعجيلاً للعقوبة في الدنيا وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة.

٢ - قد تكـون المصـائب أكـبر من المعـائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

= المؤمن ١٩٩١/٤ من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في المغازي/ باب مرض النبي ﷺ ٨٢/٣/.

وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**». حسنه الترمذي(١).

قوله: «**إن عظم الجزاء من عظم البلاء**» أي يتقابل عظم الجزاء مع البلاء فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم؛ لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كسر، وهذا دليل على كمال عدل الله وأنه لا يظلم أحداً.

قوله: «**وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم**» أي اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية كالأمراض وفقدان الأهل، أو بما يقدر عليهم من الأمور الشرعية قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً فاصبر لحكم ربك**﴾(٢)، فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر؛ لأن هذا الذي نُزل عليه تكليف يكلف به.

كذلك من الابتلاء الصبر عن محارم الله كما في الحديث: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله**»(٣) فهذا جزاؤه أن الله يظله في

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء ٧/١٢٣، وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه في الفتن/ باب الصبر على البلاء ٢/١٣٣٨، والبغوي في شرح السنة ٥/٢٤٥.

وإسناده حسن، انظر المشكاة ١/٤٩٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٦).

(٢) سورة الإنسان، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٢/١٤٣، ومسلم في الزكاة/ باب إخفاء الصدقة ٢/٧١٥.

. . . .

ظله يوم لا ظل إلا ظله.

قوله: «**فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**» (من) شرطية والجواب «فله الرضا» أي فله الرضا من الله، وإذا رضي الله عن شخص أرضى الناس عنه جميعاً، والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله وهذا واجب، بدليل قوله: «**ومن سخط**» فقابل الرضا بالسخط وهوعدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا (فعليه السخط) مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها**﴾[1].

قال بعض العلماء: إن الـلام بمعنى على كقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾[2]، أي عليهم اللعنة.

وقال آخرون: إن اللام على ماهي عليه، فتكون للاستحقاق أي صار عليه السخط باستحقاقه له فتكون أبلغ من (على) كقوله تعالى: ﴿**أولئك لهم اللعنة**﴾ أي حقت عليهم باستحقاقهم لها وهذا أصح.

ويستفاد من الحديث:

إثبات المحبة والسخط والرضا لله عز وجل، وهمـا من الصفات الفعلية لتعلقهما بمشيئة الله تعالى؛ لأن إذا في قوله: «إذا أحب قوماً» للمستقبل فالحب يحدث فهو من الصفات الفعلية.

والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض ولا يحبه أو يبغضه من الأزل، وعلى هذا فقد يكون هذا الشخص في

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

فيه مسائل : الأولى : تفسير آية التغابن ، الثانية : أن هذا من الإيمان بالله . الثالثة : الطعن في النسب . الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير. السادسة : إرادة الله به الشر. السابعة : علامة حب الله للعبد . الثامنة : تحريم السخط . التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .

يوم من الأيام محبوباً إلى الله وفي آخر مبغضاً إلى الله ؛ لأن الحكم يدور مع علته .

وأما الأعمال فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا : لأنها تقتضي النقص ومشابهة المخلوقين .

والصواب : ثبوتها لله عزوجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران :

١ ـ إثباتها على حقيقتها وظاهرها .

٢ ـ الحذر من التمثيل أو التكييف .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية التغابن :

وهي قوله تعالى : ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾[1]، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيراً مناسباً للباب .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

---

(١) سورة التغابن، الآية : ١١ .

. . . .

المشار إليه بقوله (هذا) هو الصبر.

الثالثة: الطعن في النسب:

وهو عيبه وهو من الكفر لكنه لايخرج من الملة.

الـرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أوشق الجيوب، أو دعا بدعوىٰ الجاهلية؛ لأن النبي ﷺ تبرأ منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير:

وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر:

وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد:

وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط يعني من البلاء.

لقوله ﷺ: **«ومن سخط فله السخط»**.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء:

لقوله ﷺ: **«من رضي فله الرضا»**.

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحىٰ إليَّ أنما إلهكم إلهٌ واحد﴾ الآية[1].

المؤلف رحمه الله تعالى، أطلق الترجمة فلم يفصح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه.

تعريف الرياء:

مصدر راء يرائي، أي: عمل عملاً يراه الناس ويقال مراءاة كما يقال: جاهد مجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«من راء راء الله به، ومن سمع سمع الله به»**[2].

والرياء خلق ذميم وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: **﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾**[3].

والرياء يُبحث فيه في مقامين:

المقام الأول: في حكمه:

فنقول: الرياء من الشرك الأصغر؛ لأن الإنسان قصد بعمله غير الله، وقد يصل إلى الأكبر، وقد مثل ابن القيم للشرك الأصغر فقال: «مثل يسير

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب الرياء والسمع ٤/١٩١، ومسلم في الزهد/ باب تحريم الرياء ٤/٢٢٨٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

. . . .

الرياء» وهذا يدل على أن الرياء كثيره قد يصل إلى الأكبر.

المقام الثاني: في حكم العبادة إذا خالطها الرياء وهو على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله فهذا شرك والعبادة باطلة مع ما في ذلك من التحريم كما سبق.

الثاني: أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها بمعنىٰ أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

فإن كانت العبـادة لا ينبني آخـرها على أولها فأولها صحيح بكل حال والباطل آخرها.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين وراء في الخمسين الباقية فالأولى حكمها صحيح والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها فهي على حالين:

أ ـ أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه بل يعرض عنه ويكرهه فإنه لايؤثر شيئاً لقول النبي ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تعمل أو تتكلم**»[1].

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية أحس بالرياء فصار يدافعه فإن ذلك لايضره ولايؤثر على صلاته شيئاً.

ب ـ أن يطمئن إلى هذا الرياء ولايدافعه فحينئذ تبطل جميع العبادة؛ لأن آخرها مبني على أولها، ومرتبط به.

مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصاً لله وفي الركعة الثانية طرأ عليه

---

(1) أخرجه البخاري في الأيمان/ باب إذا حنث ناسياً ٤/٢٢٢، ومسلم في الإيمان/ باب تجاوز الله عن حديث النفس ١/١١٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه فاطمأن لذلك ونزع إليه فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث: ما يطرأ بعد انتهاء العبادة فإنه لايؤثر عليها شيئاً اللهم إلا أن يكون فيه عدوان كالمن والأذىٰ بالصدقة فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلاً لأجر الصدقة فيبطلها لقوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذىٰ**﴾[1].

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضاً أن يسر الإنسان بفعل الطاعة في نفسه بل ذلك دليل على إيمانه قال ﷺ: «**من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن**»[2] وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «**تلك عاجل بشرىٰ المؤمن**»[3].

قوله: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾: يأمر الله نبيه أن يقول للناس إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية وأنه ليس رباً ولا ملكاً، وأكد هذه البشرية بقوله: ﴿**مثلكم**﴾، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

قوله: ﴿**يوحىٰ إليّ**﴾.

الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء ومنه قوله تعالى: ﴿**فخرج على قومه من المحراب فأوحىٰ إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً**﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ١/١٨، ٢٦، والترمذي في الفتن/ باب ماجاء في لزوم الجماعة ٦/٣٣٣ وقال: «حسن صحيح غريب من حديث عمر رضي الله عنه».

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة/ باب إذا أثنى على الصالح ٤/٢٠٣٤.

(٤) سورة مريم، الآية: ١١.

. . . .

وفي الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحي هو الفرق بيننا وبينه ﷺ فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿**إنما إلـٰهكم إلـٰه واحد**﴾.

هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل ﴿**يوحى**﴾ وفيها حصر طريقه ﴿**إنما**﴾ فيكون معناها ما إلـٰهكم إلا إلـٰه واحد، وهو الله فإذا ثبت ذلك فإنه لايليق بك أن تشرك معه غيره في العباده، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحداً**﴾[1].

فقوله تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه**﴾.

المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقى ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة؛ لأن اللقيا على نوعين:

الأول: عامة لكل إنسان قال تعالى: ﴿**ياأيها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه**﴾[2]، ولذلك قال مفرعاً علىٰ ذلك: ﴿**فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً**﴾[3] ﴿**وأما من أوتي كتابه وراء ظهره . . .**﴾ الآية[4].

الثاني: الخاصة بالمؤمنين وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم.

فقوله: ﴿**فليعمل عملاً صالحاً**﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر هنا للإشارة أي من كان يريد أن يلقىٰ الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه فليعمل عملاً صالحاً.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

(٣) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

(٤) سورة الانشقاق، الآية: ١٠.

. . . .

والعمل الصالح : ما كان صواباً خالصاً .

وهذا وجه الشاهد من الآية :

فالخالص : ما قصد به وجه الله ، والدليل على ذلك قوله ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات**»[1] .

والصواب : ما كان على شريعة الله والدليل على قوله ﷺ : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2] .

ولهذا قال العلماء : هذان الحديثان ميزان الأعمال فالأول : ميزان الأعمال الباطنة . والثاني : ميزان الأعمال الظاهرة .

قوله : ﴿**ولايشرك**﴾ لا : ناهية والمراد بالنهي الإرشاد .

قوله : ﴿**بعبادة ربه أحداً**﴾ خص العبادة لأنها خالص حق الله ، ولذلك أتىٰ بكلمة «رب» إشارة إلى العلة فكما أن ربك خلقك ولا يشاركه أحدٌ في خلقك فيجب أن تكون العبادة له وحده ولذلك لم يقل : ﴿لا يشرك بعبادة الله﴾ ، فالإضافة إلىٰ الرب من باب التعليل .

وقوله : ﴿**أحدا**﴾ نكره في سياق النهي ، فتكون عامة لكل أحد .

وجه الشاهد من الآية :

أن المرائي أشرك بالعبادة أحداً مع الله .

وفي هذه الآية دليل علىٰ ملاقاة الله تعالى ، وقد استدلَّ بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤية الله ؛ لأن الملاقاة معناها المواجهة .

---

(١) أخرجه البخاري (١)، ومسلم ٣/١٥١٥ .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في البيوع/ باب النجش ٢/ ١٠٠ ، ومسلم موصولاً في الأقضية/ باب نقض الأحكام ٣/١٣٤٣ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»**. رواه مسلم.[1]

وفيها دليل على أن الرسول ﷺ بشر لايستحق أن يعبد؛ لأنه حصر حاله بالبشرية، كما حصر الألوهية بالله.

قوله: **«قال الله تعالى»** النبي ﷺ يرويه عن ربه ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي.

قوله: **«أنا أغنى الشركاء عن الشرك»**

قوله: **«أغنى»** اسم تفضيل، وليست فعلاً ماضياً، ولهذا تضاف إلى شركاء.

يعني إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

فالله لا يقبل عملاً له فيه شرك أبداً، وإنما لايقبل إلا العمل الخالص وحده، فكما أنه الخالق وحده فكيف يكون الخالق لك وحده وبعد ذلك تصرف شيئاً من حقه إلى غيره؟ فهذا ليس عدلاً ولهذا قال الله عن لقمان: **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**[2]، فالله الذي خلقك وأعدك إعداداً كاملاً بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصرف شيئاً من حقه إلى غيره فلا شك أن هذا من أظلم الظلم.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد/ باب من أشرك في عمله غير الله ٤/ ٢٢٨٩.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟** قالوا: بلى. قال: **الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه**». رواه أحمد[1]

قوله: «**عملاً**»: نكرة في سياق الشرط فتعم أي عمل من صلاة أو صيام أو حج أو جهاد أو غيره.

قوله: «**تركته وشركه**»: أي لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر فيترك الله جميع أعماله؛ لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد «بشركه»: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه؛ لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لايتركه كمن أشرك نبياً أو ولياً فإن الله لايترك ذلك النبي والولي.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ ـ بيان غنى الله تعالى لقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

٢ ـ بيان عظم حق الله وأنه لايجوز لأحد أن يشرك أحداً مع الله في حقه.

٣ ـ بطلان العمل الذي صاحبه الرياء، لقوله: «**تركته وشركه**».

٤ ـ تحريم الرياء؛ لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبوله يدل على الغضب وما أوجب الغضب فهو محرم.

٥ ـ أن صفات الأفعال لا حصر لها؛ لأنها متعلقة بفعل الله ولم يزل الله ولا يزال فعالاً.

قوله: «**ألا**»: أداة عرض، والغرض منها تنبيه المخاطب فهو أبلغ من

---

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٠، وابن ماجه في الزهد/ باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٦، وقال في =

. . . .

عدم الإتيان بها.

قوله: «بما هو» ما اسم موصول بمعنى الذي.

قوله: «**أخوف عليكم عندي**» أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك لأن التخلص منه صعب جداً، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص». وقال النبي ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قبله**»[1]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله عز وجل.

قوله: «**المسيح الدجال**» وصفه ﷺ بعيبين.

أحدهما: حسي وهو أن الدجال أعور العين اليمنىٰ كما قال النبي ﷺ: «**والله لا يخفى عليكم أنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى**»[2].

والثاني: معنوي وهو الدجال فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له وهو الدجال والكذب والتمويه، فلا أكذب منه وهو رجل من بني آدم ولكن الله سبحانه وتعالىٰ بحكمته يخرجه ليفتن الناس، وفتنته عظيمة إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال.

= الزوائد: «إسناده حسن، وكثير بن زيد، وربيح بن عبدالرحمن مختلف فيهما»، وأخرجه الحاكم ٤/٣٢٩ وصححه.

(١) أخرجه البخاري في العلم/ باب الحرص على الحديث ١/٥٢ من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء/ باب واذكر في الكتاب مريم ٢/٤٨٨، ومسلم في الفتن/باب ذكر الدجّال ٤/٢٢٤٧ من حديث ابن عمر.

. . . .

والمسيح الـدجـال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة لأن النبي ﷺ أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا: ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به، لكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون كيف يكون اليوم الواحد عن سنة والشمس لها نظام لاتتعداه؟ وهذا لاشك جهل منهم بالله، فالذي جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر على أن يغيره متى شاء، فيوم القيامة تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتكشط السماء كل ذلك بكلمة «كن» ورد هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره قال تعالى: ﴿**وما قدرو الله حق قدره**﴾[1].

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان، ويحصل منه كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الله علىٰ كل شيء قدير، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم، ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلىٰ الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم، ومثل ما ابتلىٰ الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم تناله أيدهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلي الله أفراداً الناس بأشياء يمتحنهم بها قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة**﴾[2].

قوله: «**الشرك الخفي**» الشرك قسمان خفي وجلي.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

. . . .

فالجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت.
أو بالفعل: مثل الانحناء لغير الله تعظيماً.
والخفي: ما كان في القلب مثل الرياء[1] لأنه لايبين إذ لا يعلم ما في

---

(١) وهناك أمور تعنبر من مسالك الرياء الدقيقة منها:
أولاً: ماذكره الغزالي في الإحياء ٣/٣٠٥، ٣٠٦: «وأخفى من ذلك أن يختفي - أي العامل بالطاعة - بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يُسَرُّ بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد استبعاداً في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، لو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل مايتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصديقون».
وثانياً: أن يجعل الإخلاص لله وسيلة لأحد المطالب الدنيوية لا غاية وقصدا.
قال شيخ الإسلام: «حكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يوماً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، قال: فأخلصت أربعين يوما، فلم يتفجر شيء فذكرت ذلك لبعض العارفين، فقال لي: إنما أخلصت للحكمة ولم تخلص لله، ثم قال شيخ الإسلام: وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه أو غير من المطالب قد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص وإرادة وجهه كان متناقضاً، لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته، والأول يراد لكونه وسيلة إليه، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة، أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك، فهو هنا لم يرد الله، بل جعل الله وسيلة إلى ذلك المطلوب الأدنى» =

. . . .

القلوب إلا الله ويسمىٰ أيضاً «شرك السرائر» وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿**يوم تبلىٰ السرائر**﴾[1]، لأن الحساب يوم القيامة على السرائر قال تعالى: ﴿**أفلا يعلم إذا بعثر مافي القبور وحصل ما في الصدور**﴾[2]، وفي الحديث الصحيح: «فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهىٰ عن المنكر ويفعله أنه يلقىٰ في النار حتىٰ تندلق أقتاب بطنه فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهي عن المنكر ويفعله»[3].

قوله: «**يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته**»، يتساوىٰ في ذلك الرجل والمرأة والتخصيص هنا يسمىٰ مفهوم اللقب: أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «**فيزين صلاته**»، أي يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك.

= درء تعارض العقل والنقل ٦/ ٦٦.

وثالثها: قال ابن رجب رحمه الله في شرح حديث: «**ماذئبان جائعان**»: وههنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: كفى بالنفس اطراء أنت تذمها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه».

(١) سورة الطارق، الآية: ٩.

(٢) سورة العاديات، الآيتان: ٩، ١٠.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق/ باب صفة النار ٢/ ٤٣٦، ومسلم في الزهد/ باب عقوبة من يأمر بمعروف ولايفعله ٤/ ٢٢٩٠.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف، **الثانية**: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله. **الثالثة**: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى. **الرابعة**: أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء. **الخامسة**: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء. **السادسة**: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.

قوله: «**لما يرى من نظر رجل إليه**»: «ما» موصولة، وحذف العائد أي للذي يراه من نظر رجل وهذه هي العلة لتحسين الصلاة فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل وهذا شرك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف: وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا أدخلته شيء لغير الله:

وذلك لقوله: «تركته وشركه» وصار عظيماً لأنه ضاع على العامل خساراً، وفحوى الحديث تدل على غضب الله عز وجل من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى: يعني الموجب للرد هو كمال غنى الله عز وجل عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل لكن العمل الصالح يقبله ويثيبه عليه.

الرابعة: أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء: أي من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحداً، أي: الله خير الشركاء، فلا ينازع من جعل شريكاً له فيه.

. . . .

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء: وذلك لقوله ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال**». وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه فالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى.[1]

---

(١) لما كان الرياء من أسباب حبوط العمل، ومقت الله، وأنه من المهلكات، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته، وهذا شيء من علاج الرياء:

أ ـ معرفة أنواع التوحيد، وتحقيقها، والتعبد لله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فإن معرفة الله بأسمائه وصفاته تنقي القلب من الضعف، فإذا علم العبد أن الله وحده هو الذي ينفع ويضر طرح من قلبه الخوف من الناس حيث زين له الشيطان تزيين عبادته أمامهم خشية ذمهم، وطمعاً في ثنائهم، ومتى علم أن الله سميع بصير يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور طرح مراقبة الناس وأطاع الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

ب ـ أن يعلم المكلف علماً يقيناً بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضاً ولا أجرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر تفضل وإحسان إليه لا معاوضة.

ج ـ مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه، وأنه بالله لا بنفسه، فكل خير فهو مجرد فضل الله ومنته.

د ـ مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره في عمله، ومافيه من حظ النفس، ونصيب للشيطان.

هـ ـ خوف مقت الله تعالى.

و ـ الإكثار من العبادات غير المشاهدة، وإخفاؤها كقيام الليل، وصدقة السر، والبكاء من خشية الله.

ز ـ تذكر الموت وسكراته، والقبر وأهواله، واليوم الآخر.

ح ـ معرفة الرياء ومداخله وخفاياه حتى يحترز منه.

ي ـ النظر في عاقبة الرياء في الدنيا والآخرة.

ك ـ دعاء الله بالخلاص من هذا الداء، ومن ذلك حديث أبي موسى مرفوعا رضي الله عنه، =

. . . .

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله ، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه : وهذا التفسير ينطبق تماماً على الرياء فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته[1].

= وفيه : «قولوا : اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه».
أخرجه الإمام أحمد ٤/٤٠٣ ، وغيره.
ك ـ مصاحبة أهل الإخلاص والتقوى.

(١) وهناك أمور لا تعد من الرياء منها :
أ ـ تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند كل خروج ، وكذلك كل تجمل لأجلهم.
ب ـ كتمان الذنوب وعدم إظهارها.
ج ـ النشاط في العبادة عند رؤية العابدين.
د ـ إذا عمل العمل لأجل الله ، ثم ألقى الله الثناء له في قلوب المؤمنين ففرح لم يضره ذلك ، ولم يعد ذلك من الرياء.



باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها﴾[1] الآية.

قوله: «من الشرك»: من للتبعيض أي بعض الشرك.

قوله: «الدنيا» مفعول بإرادة؛ لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعل، وإذا أردت أن تعـرف المصدر إن كان مضافاً إلى فاعله أو مفعوله فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا، فالإنسان فاعل وإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون مكرراً مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنىً واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله، أخص من هذا الباب، وهذا أعم وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعاً مستقلاً عن الباب الذي قبله وهذا هو الظاهر؛ لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العباده فيقال هو عابد، ولايريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لايريد أن يمدح بعبادته ولايريد المراءاة، بل يعبد الله

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

. . . .

مخلصاً له ولكنه يريد شيئا من الدنيا كالمال والمرتبة والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك فهو يريد بعمله نفعاً في الدنيا غافلاً عن ثواب الآخرة(١).

---

(٢) قال القرافي رحمه الله في الفروق ٣/٢٢: «الفرق الثاني والعشرون والمائة بين قاعدة الرياء في العبادة، وبين قاعدة التشريك فيها.

اعلم أن الرياء شرك وتشريك مع الله تعالى في طاعته، وهو موجب للمعصية والإثم والبطلان في تلك العبادة فالرياء: أن يعمل العمل المأمور به المتقرب به إلى الله تعالى ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يعظمه الناس أو يعظمهم فيصل إليه نفعهم أو يندفع به ضررهم.

وأما مطلق التشريك كمن يجاهد لتحصيل طاعة الله بالجهاد وليحصل له المال من الغنيمة فهذا لا يضيره ولا يحرم عليه بالإجماع، لأن الله جعل له هذا في العبادة، ففرق بين جهاده ليقول الناس: هذا شجاع، أو ليعظمه الإمام فيكثر عطاؤه من بيت المال هذا ونحوه رياء وحرام، وبين أن يجاهد لتحصيل السبايا والكراع والسلاح من جهة أموال العدو مع أنه قد أشرك، ولايقال لهذا: رياء بسبب أن الرياء أن يعمل ليراه غير الله من خلقه.

وكذلك من حج وأشرك في حجه غرض المتجر، وكذلك من صام ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض من الأمراض التي ينافيها الصوم، ولا يقدح هذا في صومه، بل أمر به صاحب الشرع في قوله: «**يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» أي قاطع فأمر الرسول، ﷺ، بالصوم لهذا الغرض، ولو كان ذلك قادحاً لم يأمر به، ﷺ، في العبادة.

فهذا الأعراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك ولا للتعظيم، ولا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب».

وقال العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ١/١١٧: «إن قيل: هل يكون انتظار الإمام المسبوق ليدركه في الركوع شركاً في العبادة أم لا؟ قلت: ظن بعض العلماء ذلك، وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين لما فيه من الإعانة على إدراك الركوع، وهي قربة أخرى، =

. . . .

أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

١- أن يريد المال كمن أذن ليأخذ راتب المؤذن أو حج ليأخذ المال.

٢ - أن يريد المرتبة كمن تعلم في كلية ليأخذ الشهادة فترتفع مرتبته.

٣ - أن يريد دفع الأذىٰ والأمراض والآفات عنه كمن تعبد لله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له، ودفع السوء عنه وما أشبه ذلك.

٤ - أن يتعبد لله يريد صرف وجوه الناس إليه بالمحبة والتقدير وهناك أمثلة كثيرة.

= والإعانة على الطاعات من أفضل الوسائل عند الله . . .».

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله في القول السديد ص (١٠٩):

«وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا القصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن وإن كان ضعيف الإيمان لابد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإن ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً لكنه يأخذ على عمله جعلاً معلوماً يستعين به على العمل والدين كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يرتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ماحصل له معيناً على قيام الدين، ولهذا جعل الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءاً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة».

. . . .

تنبيـه :

هل يدخل فيه من يتعلمون في الكليات أوغيرها يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم؟ والجواب: أنهم يدخلون في ذلك إذا لم يريدوا غرضاً شرعياً مثل من أذن ليأخذ الراتب ومن حج ليأخذ المال فنقول لهم:

أولاً: لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية بل اتخذوا هذه الشهادات وسيلة للعمـل في الحقـول النـافعة للخلق؛ لأن الأعمال في الوقت الحاضر مبنية على الشهادات والناس لايستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة.

ثانياً: أن من أراد العلم لذاته قد لايجده إلاَّ في الكليات، وأما بالنسبة للمرتبة فإنها لاتهمه.

ثالثاً: أن الإنسان إذا أراد بعمله الحسنيين حسن الدنيا والآخرة فلا شيء في ذلك؛ لأن الله يقول: **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب﴾**[1].

فإن قيل من أراد بعمله الدنيا كيف يقال إنه مخلص مع أنه أراد المال مثلاً؟

أجيـب: أنه أخلص العبادة ولم يرد بها الخلق إطلاقاً فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم بل قصد أمراً مادياً، فإخلاصه ليس كاملاً؛ لأن فيه شركاً ولكن ليس كشرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله، وهذا لم يرد مدح الناس بل أراد شيئاً دنيئاً أقل من الرياء.

ولا مانع أن يدعو الإنسان في صلاته ويطلب أن يرزقه الله المال ولكن

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٢، ٣.

لايصلي من أجل هذا الشيء هذه مرتبة دنيئة.

أما طلب الخير في الدنيا بأسبابه الدنيوية كالبيع والزراعة فهذا لاشيء فيه والأصل أن لانجعل في العبادات نصيباً من الدنيا. وقد سبق البحث في حكم العبادة وإذا خالطها الرياء في باب الرياء .

ملاحظة :

بعض الناس عندما يتكلمون على فوائد العبادات يحولونها إلى فوائد دنيوية.

فمثلاً يقولون في الصلاة رياضة وإفادة للأعصاب، وفي الصيام فائدة وإزالة الرطوبة وترتيب الوجبات.

والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل؛ لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه بل ذكر أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وعن الصوم أنه سبب للتقوى، فالفوائد الدينية في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانوية لكن عندما نتكلم عند عامة الناس فإننا نخاطبهم بالنواحي الدينية، وعندما نتكلم عند من لايقتنع إلا بشيء مادي فإننا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية ولكل مقام مقال.

قوله: **﴿من كان يريد الحياة﴾** أي البقاء في الدنيا.

قوله: **﴿وزينتها﴾** أي المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة. كما قال الله تعالى: **﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾**[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٤).

. . . .

قوله: ﴿**نوف إليهم**﴾، فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة ـ الياء ـ لأنه جواب الشرط.

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لايسعون إلا للدنيا وزينتها ولذلك عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا كما قال تعالى: ﴿**ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها**﴾[1].

ولهذا لما بكىٰ عمر حين رأىٰ النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش فقال: ما يبكيك؟ قال: يارسول الله كسرىٰ وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت علىٰ هذه الحال فقال رسول الله ﷺ: «**أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم**»[2]، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم صار أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

قوله: ﴿**وهم فيها لايبخسون**﴾ البخس النقص أي لاينقصون مما يجازون فيه؛ لأن الله عدل لا يظلم فيعطون ما أرادوا.

قوله: ﴿**أولئك**﴾ المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿**ليس لهم في الآخرة إلا النار**﴾ فيه حصر طريقه النفي والإثبات وهذا يعني أنهم لم يدخلوا الجنة لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة. والعياذ بالله.

---

(١) سورة الأحقاف، الآية: (٢٠).

(٢) أخرجه البخاري في المظالم/ باب الغرفة والعلية المشرفة ٢/١٩٧ ـ ١٩٩، ومسلم في الطلاق/ باب في الإيلاء واعتزال النساء ٢/١١٠٥ ـ ١١٠٨.

قوله: ﴿**وحبط ما صنعوا فيها**﴾ الحبوط الزوال والترك أي زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قولـه: ﴿**وبـاطـل ما كانـوا يعملون**﴾ باطل خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات، والمبتدأ «ما» في قوله ﴿ما كان يعملون﴾ فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: ﴿**من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون**﴾. مخصوصة بقوله تعالى: ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً**﴾[1].

فإن قيل لماذا لا نجعل آية الإسراء حاكمة على آية هود، ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء؟

أجيب أن هذا المعنى لايستقيم لأمرين:

أولاً: أن القاعدة الشرعية في النصوص أن الأخص مقدم على الأعم وآية هود عامة؛ لأن كل من أراد الحياة الدنيا وزينتها وفى إليه العمل وأعطي ما أراد أن يعـطىٰ أمـا آية الإسراء فهي خاصـة: ﴿**عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**﴾[1]، ولا يمكن أن يحكم بالأعم على الأخص.

الثـاني: أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء، لأن في فقراء الكفـار من هو أفقـر من فقراء المسلمين فيكون عموم آية هود مخصوصاً بآية

(١) سورة الإسراء، الآية: (١٨).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»**(1).

الإسراء، فالأمر موكول إلى مشيئة الله وفيمن يريده.

واختلف فيمن نزلت فيه آية هود:

١ - قيل: نزلت في الكفار لأن الكافر لايريد إلا الحياة الدنيا، ويدل لهذا سياقها والجزاء المرتب على هذا، وعليه يكون وجه مناسبتها للترجمة أنه إذا كان عمل الكافرين يراد به الدنيا فكل من شاركهم في شيء من ذلك ففيه شيء من شركهم وكفرهم.

٢ - وقيل نزلت في المرائين لأنهم لا يعملون إلا للدنيا فلا ينفعهم يوم القيامة.

٣ - وقيل: نزلت فيمن يريد مالاً بعمله الصالح.

والسياق يدل للقول الأول لقوله تعالى: **﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾**(2).

قوله: «**تعس**» بفتح العين أو كسرها أي خاب وهلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب الحراسة في الغزو ٢/٣٢٧.

(٢) سورة هود، الآية: ١٦.

. . . .

قوله : «**عبدالدينار**» الدينار من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبدالدينار؛ لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال في عبدالدرهم ما قيل في **عبدالدينار**. والدرهم هو النقد من الفضة وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل.

وقد أراد المؤلف بهذا الحديث أن يبين أن من الناس من يعبد الدنيا أي يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت ولهذا سمى النبي ﷺ من هذا شأنه عبداً لها، وهذا من يُعنى بجمع المال من الذهب والفضة.

قوله : «**تعس عبد الخميصة تعس عبدالخميلة**» وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه؛ لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فرش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر فإذا كان عابداً لهذه الأمور؛ لأنه صرف لها جهوده وهمته، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئاً من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا فهذا أعظم؟

قوله : «**إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**» يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدرياً أي إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله كأن يقول: لماذا كنت فقيراً وهذا غنياً؟ وما أشبه ذلك فيكون ساخطاً على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

والله سبحانه وتعالىٰ يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره إن أعطىٰ شكر وإن منع صبر.

. . . .

ويحتمل أن يراد بالإعطاء هنا الشرعي أي إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي وإن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له ولهذا سماه الرسول ﷺ عبداً له.

قوله: «**تعس وانتكس**» تعس أي خاب وهلك، وانتكس: أي انتكست عليه الأمور بحيث لاتتيسر له فكلما أراد شيئاً انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد ولهذا قال:

قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**» أي إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

وهذه الجمل الثلاث يحتمل أن تكون خبراً منه ﷺ عن حال هذا الرجل وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حاله، لأنه لايهتم إلا للدنيا فدعا عليه أن يهلك وأن لايصيب من الدنيا شيئاً وأن لايتمكن من إزالة مايؤذيه، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له.

قوله: «**طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**» هذا عكس الأول فهو لايهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

و «طوبى» فعلى من الطيب وهي: اسم تفضيل أطيب للمنكر، وطوبى للمؤنث، والمعنى أطيب حال تكون لهذا الرجل.

وقيل: إن طوبى شجرة في الجنة والأول أعم كما قالوا في ويل كلمة وعيد. وقيل: وادٍ في جهنم، والأول أعم.

وقوله: «**آخذ بعنان فرسه**» أي ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: «**في سبيل الله**» ضابطه أن يقاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلداً

. . . .

إسلامياً فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل حماية لنفسه أو ماله أو أهله فإن النبي ﷺ قال: «**من قتل دون ذلك فهو شهيد**».

قوله: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**» أي رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله فهو لايهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجاً عن طاعة الله عز وجل، وقدماه مغبرة من السير في سبيل الله، وهذا دليل على أن أهم شيء عنده هو الجهاد في سبيل الله. أما أن يكون شعره أو ثوبه أو فراشه نظيفاً فليس له هم فيه.

قوله: «**إن كان في الحراسة فهو في الحراسة وإن كان في الساقة فهو في الساقة**»، الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته وللجملتين معنيان:

١ ـ أنه لايبالي أين وضع إن قيل له احرس حرس، وإن قيل له كن في الساقة كان فيها فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلاً.

٢ ـ إن كان في الحراسة أدى حقها وكذا إن كان في الساقة، والحديث صالح لمعنيين، يحمل عليهما جميعاً والله أعلم.

قوله: «**إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**» أي هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف حتى إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة فإن شفع لم يشفع، ولكنه شفيع عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان طلب في الدخول، أو غيره.

والحديث قسم الناس إلى قسمين:

الأول: ليس له هم إلاَّ الدنيا، إما لتحصيل المال، أو لتجميل الحال، فقد

فيـه مسائـل :

الأولـى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. **الثانية** : تفسير آية هود. **الثالثة** : تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة . =

استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته .

الثاني : أكبر همه الآخرة، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله ، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه.

ويستفاد من الحديث :

١ ـ أن الناس قسمان كما سبق.

٢ ـ أن الـذي ليس له هم إلاّ الـدنيا قد تتقلب عليه الأمـور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة بخلاف الجازم الذي لا تهمه الدنيا، بل أراد الآخرة، ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له.

٣ ـ أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألاّ تكون همه المراتب بل يكون همه القيام بما يجب عليه إما في الحراسة أو الساقة أو القلب أو الجنب حسب المصلحة.

٤ ـ إن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لايستلزم منه دنو مرتبته عند الله عز وجل فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول ﷺ : «**طوبىٰ له**»، ولم يقل إن سأل لم يعط بل لاتهمه الدنيا حتىٰ يسأل عنها لكن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة.

فيـه مسائـل :

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة :

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي: وإن لم يعط سخط. **الخامسة**: قوله: «تعس وانتكس». **السادسة**: قوله «وإذا شيك فلا انتقش». **السابعة**: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

وهذا من الشرك لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا فيطغىٰ على قلبه حب الدنيا حتىٰ يقدمها على الآخرة والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود: وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. وهذه العبودية لا تدخل في الشرك ما لم يصل بها إلىٰ حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله عز وجل ومحبة أعمال الآخرة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط.

هذا تفسير لقوله ﷺ: «**عبدالدينار، عبدالدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**». وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعاً لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «إذا شيك فلا انتقش».

يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبراً أو دعاء، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فقوله في الحديث: «**طوبىٰ لعبد...**» يدل على الثناء عليه وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.



باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون قال أبو بكر وعمر»[1]

قوله: **«من أطاع العلماء»**، «من» يحتمل أن تكون شرطية بدليل قوله: «فقد اتخذهم»، لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة أي: «باب الذي أطاع العلماء».

وقوله: **«فقد اتخذهم»** خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم وعلى الأول تقرأ «بابٌ» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله.

وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾[2] فجعل الله طاعته مستقلة وطاعة رسوله مستقلة وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد ١/٣٣٧، والخطيب في الفقيه والمتفقه ١/١٤٥، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٣٩، وابن حزم في حجة الوداع ص (٢٦٨ - ٢٦٩).

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

. . . .

ما جيء بالفعل «وأطيعوا» فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وأولـو الأمـر هم أولوا الشأن وهم العلماء؛ لأنه يسند إليهم أمر الشرع والعلم به، والأمراء لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمـراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور؛ لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة، والأمراء أهل الإلزام والولاية.

قوله في تحريم ما أحل الله وكثيرمن ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، وكلاهما خطأ، ومع ذلك فإن تحليل الحرام أهون من تحريم الحلال؛ لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل ورحمة الله سبحانه سبقت غضبه فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبـين تحريمـه، ولأنه أضيق وأشد والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم.

أما في العبادات فيشدد؛ لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع.

والأصل في الأشياء حل، والمنع عبادة إلا بإذن الشارع[1].

قوله: «**أرباباً**» جمع رب وهو المتصرف المالك.

والتصرف نوعان تصرف قدري، وتصرف شرعي.

فمن أطاع العلماء في مخالفة أمر الله ورسوله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله باعتبـار التصرف الشرعي لأنـه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعاً يعمل به.

قوله: «**حجارة من السماء**» أي من فوق تنزل عليكم عقوبة لكم؛ ونزول

---

(١) أصول الفقه وقواعده، ص: (٢).

. . . .

الحجارة من السماء ليس بالأمر المستحيل بل هو ممكن قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل**﴾[1]، وقال تعالى في قوم لوط: ﴿**إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر**﴾[2].

والحاصب: الحجارة تحصبهم من السماء.

قوله: «**وتقولون قال أبو بكر وعمر**»، أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب قال النبي ﷺ: «**إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا**». رواه مسلم[3]، وروي عنه ﷺ أنه قال: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[4] وقال ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ**»[5]، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصاً في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإن يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن

---

(١) سورة الفيل، الآيتان: (٣، ٤.

(٢) سورة القمر، الآية: ٣٤.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد/ باب قضاء الصلاة الفائتة ١/٤٧٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في كتاب فضائل الصحابة ١/١٨٦، وفي المسند ٥/٣٩٩ والبخاري في الكنى ص(٥٠)، والترمذي في المناقب/ باب في مناقب أبي بكر وعمر ٩/٢٧٠، وقال: حديث حسن»، وابن ماجة في المقدمة ١/٣٧، وابن سعد ٢/٣٣٤، والحميدي ١/٢١٤، والخطيب في الفقيه والمتفقه ١/١٧٧، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٢/٢٢٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٢٦، ١٢٧، وأبو داود في السنة/ باب في لزوم السنة ٥/١٣ ـ ١٥، والترمذي في العلم/ باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدعة ٧/٣١٩ وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجة في المقدمة ١/١٥، والدارمي (١٩٦)، وابن حبان ـ موارد (١٠٢)، وأبونعيم في الضعفاء ص (٤٦) وقال: «حديث جيد صحيح من حديث الشاميين».

وقال أحمد بن حنبل: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[1]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

هو دون أبي بكر وعمر والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض، فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى، والتعصب المذهبي الذي ليس مبنياً على أساس سليم.

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشاً إذا قيل له قال رسول الله ﷺ قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: ﴿**ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين**﴾[1]، أما صاحب الكتاب فإنه إن علم أنه يحب الخير ويريد الحق فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ ولا يقال إنه معصوم يعارض بقوله قول الرسول ﷺ.

قوله: «**عجبت**» العجب نوعان:

الأول: عجب استحسان كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان الرسول ﷺ يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله».

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٥.

. . . .

الثاني: عجب إنكار كما في قوله تعالى: ﴿**بل عجبت ويسخرون**﴾[1]، والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار.

قوله: «**الإسناد**»: المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه، أي عَرَفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.

قوله: «**يذهبون إلى رأي سفيان**»، أي سفيان الثوري؛ لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم اندثروا.

فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث.

قوله: «**فليحذر**» الفاء عاطفة واللام للأمر ولهذا سكنت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر لالتقاء الساكنين.

قوله: «**عن أمره**» الضمير يعود للرسول ﷺ بدليل أول الآية قال تعالى: ﴿**لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره**﴾[2].

فإن قيل: لماذا عدي الفعل (بعن) مع أن (يخالف) يتعدىٰ بنفسه؟

أجيب: أن الفعل ضمن الإعراض أي يعرضون عن أمره زهداً فيه وعدم مبالاة به.

و (أمره): واحد الأوامر وليس واحد الأمور لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف فيعم جميع الأوامر.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٦٣.

وعن عدي بن حاتم: (أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾[1] **الآية**: فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟** فقلت: بلى، قال: **فتلك عبادتهم**». رواه أحمد والترمذي وحسنه[2].

قوله: «**اتخذوا**» الضمير يعود للنصارىٰ، لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلها بل ادعو أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارىٰ جميعاً ويختص النصارىٰ باتخاذ المسيح ابن مريم وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها.

قوله: «**أحبارهم ورهبانهم**»، الأحبار جمع حِبر وحَبر؛ وهو العالم الواسع العلم، والرهبان جمع راهب وهو العابد الزاهد.

قوله: «**أرباباً من دون الله**»: أي مشاركين لله عز وجل، في التشريع؛ لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن/ تفسير سورة التوبة ٨/٢٤٨، وقال: «غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغطيب بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، وابن جرير ١٠/٨٠، ٨١، والبهقي ١٠/١١٦، والمزي في تهذيب الكمال ٢/١٠٩، وانظر الدر المنثور/ للسيوطي ٣/٢٣٠.
وقد حسنه شيخ الإسلام في الإيمان ص(٦٤).

. . . .

قوله: «**والمسيح ابن مريم**» أي: اتخذوه إلـهاً مع الله بدليل قوله تعالى: ﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا إلـهاً واحداً**﴾ والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي[1].

قوله: ﴿**إلـهاً واحداً**﴾ هو الله عز وجل، وإلـه أي مألوه معبود مطاع، وليس بمعنىٰ آلـه أي قادر على الاختراع، فإن هذا معنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم فيكون معنى ﴿**لا إلـه إلا الله**﴾ علىٰ هذا القول لا رب إلا الله وهذا ليس بالتوحيد إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ موحدين لأنهم يقولون لا رب إلا الله قال تعالى: ﴿**قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله**﴾[2]، وهذه إحدىٰ القراءتين وهي سبعيه.

قوله: ﴿**سبحانه عما يشركون**﴾ «سبحان» اسم مصدر وهي معمول أو

---

(١) قال الشيخ ابن تيمية رحمه الله في معنى هذه الآية في الفتاوى ٧/ ٧٠: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ماحرم الله، وتحريم ماأحل الله يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ماحرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركا وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم فكان من اتبع غيره في خلاف الدين واعتقد ماقاله ذلك دون ماقاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

والثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم مايفعله من المعاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيح عن النبي، ﷺ، أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**».

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

. . . .

مفعول لفعل محذوف وجوباً تقديره يسبح سبحاناً أي تسبيحاً؛ لأن اسم المصدر بمعنى المصدر فسبحان مفعول مطلق عاملها محذوف وجوباً وهي ملازمة للإضافة إما إلى مضمر كما في الآية: ﴿سبحانه﴾ أو إلى مظهر كما في ﴿سبحان الله﴾.

والتسبيح: التنزيه أي تنزيه الله عن كل نقص ولايحتاج أن نقول ومماثلة المخلوقين؛ لأن المماثلة نقص، ولكن إذا قلناها فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لايظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين.

وقوله: ﴿عما يشركون﴾ أي مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان فهو منزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

وقوله: ﴿عما يشركون﴾، هذا من البلاغة في القرآن لأنها جاءت محتملة أن تكون «ما» مصدرية فيكون المعنى عن شركهم، أو موصولة ويكون المعنى سبحان الله عن الذين يشركون به وهي صالحة للأمرين فتكون شاملة لهما؛ لأن الصحيح جواز استعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهما تعارض. فيكون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به.

قوله: «**إنَّا لسنا نعبدهم**» أي لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان، وأما بالنسبة للمسيح ابن مريم فإنهم يعبدونه بدليل قوله: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه».

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبداً؛ لأنه رسول الله فما أحله فقد أحله الله، وما حرمه فقد حرمه الله وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث

. . . .

لهذا المعنى مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

ويجاب عن التعليل المذكور بأن قول عدي لسنا نعبدهم يعود على الأحبار والرهبان، أما عيسىٰ ابن مريم فالمعروف أنهم يعبدونه.

وبدأ بتحريم الحلال؛ لأنه أعظم من تحليل الحرام وكلاهما محرم؛ لقوله تعالى: **﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. . . ﴾**[1].

قوله: «**فتلك عبادتهم**» ووجه كونها عبادة: أن من معنىٰ العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كان في طاعة الله فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله كما لو أمرك بالصلاة فصليت فلا تكون قد عبدت أبوك بطاعتك له، ولكن عبدت الله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله، ولأن أمر غير الله بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله.

ويستفاد من الحديث:

١ ـ أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة.

٢ ـ أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطاع، أما في عبادة الله فهي عبادة لله.

٣ ـ أن اتباع العلماء والعباد في مخالفة شرع الله من اتخاذهم أرباباً.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٦.

. . . .

واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يتابعهم في ذلك راضياً بقولهم مقدماً له ساخطاً لحكم الله، فهو كافر، لأنه كره ما أنزل الله فأحبط الله عمله ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر، فكل من كره ما أنزل الله فهو كافر.

الثاني: أن يتابعهم في ذلك راضياً في حكم الله وعالماً بأنه أمثل وأصلح للعباد والبلاد ولكن لهوىً في نفسه اختاره كأن يريد مثلاً وظيفة، فهذا لايكفر ولكنه فاسق.

الثالثة: أن يتابعهم جاهلاً فيظن أن ذلك حكم الله فينقسم إلى قسمين:

أ ـ أن يمكنه أن يعرف الحق بنفسه فهو مفرط أو مقصر فهو آثم؛ لأن الله أمر بسؤال أهل العلم عند عدم العلم.

ب ـ أن لايكون عالماً ولا يمكنه التعلم فيتابعهم تقليداً ويظن أن هذا هو الحق فهذا لا شيء عليه لأنه فعل ما أمِرِ به وكان معذوراً بذلك ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أن من أفتي بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه**»[1] ولو قلنا بإثمه بخطأ غيره للزم من ذلك الحرج والمشقة، ولم يثق الناس بأحد لاحتمال خطئه.

فإن قيل لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني؟ أجيب: أننا لو قلنا بكفرهم لزم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٢/٣٢١، ٣٦٥، وأبو داود في العلم/ باب التوقي في الفتيا ٤/٦٦، وابن ماجة في المقدمة/ باب اجتناب الرأي ١/٢٠، والدارمي في المقدمة ١/٥٣، والحاكم في العلم ١/١٢٦ وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولا أعرف له علة»، ووافقه الذهبي.

. . . .

من ذلك تكفير كل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله[1].

---

(١) وقال الشيخ محمد بن إبراهيم في رسالته تحكيم القوانين ص (٥ ـ ٨): «فانظر كيف سجل الله تعالى على الحاكمين بغير ما أنزل الله الكفر والظلم والفسوق، ومن الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ولا يكون كافراً، بل هو كافر مطلقاً إما كفر عمل، وإما كفر اعتقاد، وماجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية من رواية طاووس وغيره يدل أن الحاكم بغير ماأنزل الله كافر إما كفر اعتقاد ناقل عن الملة، وإما كفر عمل لا ينقل عن الملة.

أما الأول: وهو كفر الاعتقاد فهو أنواع:

أحدهما: أن يجحد الحاكم بغير ماأنزل الله أحقية حكم الله ورسوله.. وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل العلم، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه، أو أنكر حرفاً مما جاء الرسول، ﷺ، قطعياً فإنه كافر الكفر الناقل عن الملة.

الثاني: ألا يجحد بغير ما أنزل الله كون حكم الله ورسوله حقاً، لكن اعتقد أن حكم غير الرسول، ﷺ، أحسن من حكمه وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس من الحكم بينهم عند التنازع، إما مطلقاً أو بالنسبة لما استجد من الحوادث... وهذا لا ريب أنه كفر.

الثالث: ألا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله، لكنه اعتقد أنه مثله فهذا كالنوعين اللذين قبله في كونه كافراً الكفر الناقل عن الملة لما يقتضيه ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

الرابع: ألا يعتقد كون حكم الحاكم بغير ما أنزل الله مماثلاً لحكم الله ورسوله... لكن اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهذا كالذي قبله لاعتقاده جواز ماعلم بالنصوص الصحيحة الصريحة القاطعة تحريمه.

الخامس: وهو أعظمها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ولرسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية إعداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً وحكماً وإلزاماً،

. . . .

فائدة :

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف:

١ - قال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾[١].

٢ - وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[٢].

٣ - وقال تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾[٣].

واختلف أهل العلم في ذلك:

فقيل إن هذه الأوصاف لموصوف واحد؛ لأن الكافر ظالم لقوله تعالى:

= ومراجع ومستمدات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات مرجعها كلها إلى كتاب الله وسنة رسوله، ﷺ، فلهذه المحاكم مراجع هي القانون الملفق من شرائع شتى وقوانين كثيرة كالقانون الفرنسي والقانون الأمريكي، والقانوني البريطاني وغيرها من القوانين. . . فأي كفر فوق هذا الكفر، وأيُّ مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله، بعد هذه المناقضة.
السادس: مايحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم التي يسمونها «سلومهم» يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به. . عند النزاع بقاءاً على أحكام الجاهلية وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله.
وأما القسم الثاني من قسمي كفر الحاكم بغير ما أنزل الله وهو الذي لا يخرج من الملة، فقد تقدم أن تفسير ابن عباس رضي الله عنهما لقول الله عز وجل في قوله رضي الله عنه: «كفر دون كفر». . . وذلك بأن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى، وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر، كالزنا وشرب الخمر، والسرقة، فإن معصية سماها الله كفراً أعظم من معصية لم يسمها كفرا».

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٧.

. . . .

﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾[1]، وفاسق لقوله تعالى: ﴿**وأما الذين فسقوا فمأواهم النار**﴾[2]، أي كفروا.

وقيل إنها لموصفين متعددين، وإنها على حسب الحكم:

فيكون كافرا في ثلاثة أحوال:

أ ـ إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾[3] فكل ما خالف حكم الله فهو من حكم الجاهلية، بدليل الإجماع القطعي على أنه لايجوز الحكم بغير ما أنزل الله، فالمحل والمبيح للحكم بغير ما أنزل الله مخالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن.

ب ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله مثل حكم الله.

جـ ـ إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله.

بدليل قوله تعالى: ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[4] فتضمنت الآية أن حكم الله أحسن الأحكام بدليل قوله تعالى مقرراً ذلك: ﴿**أليس الله بأحكم الحاكمين**﴾[5]، فإذا كان الله أحسن الحاكمين أحكاماً وهو أحكم الحاكمين فمن ادَّعىٰ أن حكم غير الله مثل حكم الله أو أحسن الأحكام فهو كافر؛ لأنه مكذب للقرآن.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٥) سورة التين، الآية: ٨.

. . . .

ويكون ظالما :

إذا اعتقد أن الحكم بغير ما أنزل الله أحسن الأحكام وأنه أنفع للعباد والبلاد وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله فهو ظالم.

ويكون فاسقا :

إذا كان لهوىً في نفسه، مثل: أن يحكم لشخص لرشوة رشي إياها، أو لكونه قريباً، أو صديقاً، أو يطلب من ورائه حاجةً وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه، فهذا فاسق وإن كان أيضاً ظالماً لكن وصف الفسق في حقه أولىٰ من وصف الظلم[1]. والراجح: هو القول الثاني أي أن هذه الأوصاف لموصوفين متعددين بحسب الأحوال.

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله، وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين فهو كافر؛ لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه خير للعباد والبلاد من شريعة الله، وعندما نقول بأنه كافر فمعنىٰ ذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر.

---

(١) قال القرطبي في تفسير ٦/١٩١: «إن حكم به ـ أي بغير ماأنزل الله ـ هوى ومعصية، فهو ذنب تدركه المغفرة على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين».
وقال شيخ الإسلام في منهاج السنة ٥/١٣١: «أما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً، لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة».
وقال ابن القيم في مدارج السالكين ١/٣٣٦: «إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر».

. . . .

ولكن قد يكون الواضع له معذوراً مثل أن يغرر به كأن يقال إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلىٰ الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون إن مسألة المعاملات لا دخل للإسلام فيها، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضىٰ الحال أن نضع بنوكاً للربا أو ضرائب علىٰ الناس فهذا لاشيء فيه.

وهذا لاشك في خطئه فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لاشك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها فالشرع كامل من جميع الوجوه قال تعالى: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم**﴾[1].

وكيف يقال: إن المعاملات ليست من الشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع لفسد الناس.

وأنا لا أقول نأخذ بكل ما قاله الفقهاء لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم وهذا قصور، أو نقص التدبر وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق فلابد أن يصل إليه حتى في المعاملات قال تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون**

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

. . . .

القـرآن﴾[1]، وقال تعالى: **﴿أفلم يدبروا القول﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿كتاب أنـزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾**[4]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه فإن القرآن بينه.

ومن سن قوانـين تخالف الشريعة وادَّعىٰ أنها من المصالح المرسلة فهو كاذب في دعواه لأن المصالح المرسلة والمقيدة إن اعتبرها الشرع ودل عليها فهي حق، ومن الشرع، وإن لم يعتبرها فليست مصالح ولا يمكن أن تكون كذلك ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة، بل ما اعتبره الشرع فهو مصلحة وما نفاه فليس بمصلحة وما سكت عنه فهو عفو.

والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس فأدخل فيها بعض المسائل المنكـرة من البـدع وغيرها كعيد ميلاد الرسول فزعموا أن فيه شحذاً للهمم وتنشيطاً للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله ﷺ وهذا باطل؛ لأن جميع المسلمين في كل صلاة يشهدون أن محمداً عبده ورسوله ويصلون عليه والذي لا يحي قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحي قلبه بساعة يؤتي فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله ﷺ، فهذه مفسدة وليست بمصلحة.

فالمصالح المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار، فلا شك أن مرادهم نصر الله ورسوله ولكن استخدمت هذه المصالح في غير ما أراده

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٨.

(٣) سورة (ص)، الآية: ٢٩.

(٤) سورة النحل، الآية: ٨٩.

. . . .

أولئك العلماء وتوسع فيها، وعليه فإنها تقاس بالمعيار الصحيح فإن اعتبرها الشرع قبلت وإلا كما قال الإمام مالك: «كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر»، وهناك قواعد كليات تطبق عليها الجزئيات.

وليعلم: أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة ويطلقون بدون تفكير ولا رويه مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له عاد ذلك إلىٰ قائله، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة فيكون مباح الدم والمال ويترتب عليه جميع أحكام الكفر، وكذا يجب ألا نجبن في تكفير من كفره الله ورسوله، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١ ـ ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢ ـ انطباق شروط التكفير عليه، وأهمها العلم بأن هذا مكفر فإن كان جاهلاً فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم وهذا إقامة حد وليس بكفر والتحرز من التكفير أولىٰ وأحرىٰ.

قال تعالى: **﴿لئلا يكون للناس علىٰ الله حجة بعد الرسل﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾**[3]، ولابد مع توفر الشروط من عدم الموانع فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراهاً أو ذهولاً لم يكفر لقوله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١١٥.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور. **الثانية**: تفسير آية براءة. **الثالثة**: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي. **الرابعة**: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان. **الخامسة**: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

تعالى: ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾[1] ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكه: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[2].

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية النور:

وهي قوله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾[3].

الثانية: تفسير آية براءة، وهي قوله تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً**

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات/ باب التوبة ٤/١٥٤، ومسلم في التوبة/ باب في الحض على التوبة ٤/٢١٠٣ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) سورة النور، الآية: ٦٣.

من دون الله﴾[1] الآية وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادات التي أنكرها عدي، لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود، والنذر وما أشبهه لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم هي طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان: أي إذا كان أبو بكر وعمر لايمكن أن يعارض قول النبي ﷺ بقولهما؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقولهما؟ فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟ فهو أشد وأقبح، وكذلك مثّل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره**﴾ الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال... إلخ. يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال.... وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر، ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين» أي يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بمالا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لايستحقون أن يكون بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين»: وهو الطاعة والاتباع، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحلَّ الله كما يوجد في

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

. . . .

بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئاً فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف فكيف بزماننا؟ وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «**لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**»[1]، وقال النبي ﷺ للصحابة: «**ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً**»[2]، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم.

والناس لايحسون بالتغير؛ لأن الأمور تأتي رويداً رويداً ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء لوجد التغير الكثير المزعج ـ نسأل الله السلامة ـ فعلينا الحذر وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمى وأن يصان، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحلَّ الله أبداً مهما كانت منزلته، وأن الواجب أن نكون عباد الله عز وجل تذللاً وتعبداً وطاعة.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن/ باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه ٣١٥/٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) سبق ٢١١/١.

باب قول الله تعالى:

﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾[1]. الآيات.

هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله.

قوله: **﴿ألم تر﴾** الاستفهام يراد به التقرير والتعجب من حالهم والخطاب للنبي ﷺ.

قوله: **﴿يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾** هذا يعين أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا؛ لأنهم لم يؤمنوا بل يزعمون ذلك وهم كاذبون.

والـذي أنزل إلى النبي ﷺ الكتاب والحكمة قال تعالى: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾**[2]، قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون أنهم آمنوا بذلك لكن أفعالهم تكذب أقوالهم حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

قوله: **﴿إلى الطاغوت﴾** صيغة مبالغة من الطغيان ففيه اعتداء وبغي.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠، وما بعدها من الآيات.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

. . . .

والمراد به هنا كل حكم خالف حكم ورسوله، وكل حاكم يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله. أما الطاغوت بالمعنى الأعم فقد حده ابن القيم بأنه: «كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع». وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد[1].

قوله: ﴿**وقد أمروا أن يكفروا**﴾ أي أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمراً ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه فهذه الإرادة على بصيرة إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: ﴿**ويريد الشيطان**﴾ جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿**أن يضلهم ضلالاً بعيداً**﴾ أي يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿**بعيداً**﴾ أي ليس قريباً لكن بالتدريج شيئاً فشيئاً حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

قوله: ﴿**وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول**﴾، أي قال لهم الناس أقبلوا: ﴿إلى ما أنزل الله﴾ من القرآن ﴿وإلى الرسول﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿**رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾.

الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر بدليل قوله: ﴿تعالوا﴾ فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنىٰ كأنما تشاهدهم.

---

(١) ١/٢٢.

. . . .

وقوله: ﴿**يصدون عنك صدودا**﴾ يعرضون عنك إعراضاً.

وقوله: ﴿**رأيت المنافقين**﴾ إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد:

الأولى: أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين.

الثانية: أن هذا لا يصدر إلا من منافق؛ لأن المؤمن حقاً لابد أن ينقاد لأمر الله ورسوله.

الثالثة: التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه فإذا تغير حصل له انتباه.

وقوله: ﴿**رأيت المنافقين**﴾ جواب «إذا». وكلمة «صد» تستعمل لازمة، أي توصف للشخص يتعداه إلى غيره، ومصدرها صدود، ومتعدية أي صد غيره، ومصدرها صد.

وقوله: ﴿**فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً**﴾.

الاستفهام هنا يراد به التعجب أي كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة.

والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعدم تضاد المعنيين:

فالدنيوية مثل: الفقر والجدب، وما أشبه ذلك فيأتون يشكون إلى النبي ﷺ فيقولون: أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

والشرعية: إذا أظهر الله رسوله على أمرهم خافوا وقالوا: يارسول الله ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق.

قوله: ﴿**بما قدمت أيديهم**﴾ الباء هنا للسببية. و﴿**ما**﴾ اسم موصول و﴿**قدمت**﴾ صلته والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير ويراد به نفس الفاعل أي بما قدموه من الأعمال السيئة.

. . . .

وقوله: ﴿إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ ﴿إن﴾ بمعنى: «ما» أي ما أردنا إلا إحساناً بكوننا نسلم من الوضيعة والعار، وتوفيقاً بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان أي نمشي معكم ونمشي مع الكفّار وهذه حال المنافقين، فهم قالوا: أردنا أن نحسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين.

قوله: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع فالله علاّم الغيوب قال ـ تعالى ـ: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾[1]، بل الله أعلم بك بما فيك قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾[2]، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه، ولهذا قيل لأعرابي: «بم عرفت ربك»؟ قال: «بنقض العزائم وصرف الهمم».

فالإنسان يعزم على الشيء ثم لايدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر.

قوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار.

قوله: ﴿وعظهم﴾ أي ذكرهم وخوفهم لكن لا تجعلهم أكبر همك، فلا تخافهم وقم بما يجب عليك من الموعظة، لتقوم عليهم الحجة.

قوله: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾.

اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال:

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

. . . .

الأول: أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم أي يبلغ في أنفسهم.

الثاني: أن المعنى انصحهم سراً.

الثالث: أن المعنى قل لهم في أنفسهم أي في شأنهم وحالهم قولاً بليغاً في قلوبهم يؤثر عليها، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة؛ لأن اللفظ صالح لها جميعاً ولا منافاة بينها. وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبه لها وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض فإنه يؤخذ بجميع المعاني.

وبلاغة القول تكون في أمور:

الأول: هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر.

وكان النبي ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشاً يقول صبحكم ومساكم[1].

الثاني: أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محدودة بالموضوع.

الثالث: أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان بأن يكون كلامه سليم التركيب موافقاً للغة العربية مطابقاً لمقتضىٰ الحال.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن هذه الآيات تنطبق تماماً على أهل التحريف والتأويل في صفات الله لأن هؤلاء يقولون إنهم يؤمنون بالله ورسوله، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول يعرضون ويصدون ويقولون نذهب إلى فلان وفلان وإذا اعترض عليهم قالوا نريد الإحسان والتوفيق وأن

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٢ من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

قولـه: ﴿وإذا قيـل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾[1] وقوله: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾[2]

نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع»، ذكره رحمه الله في الفتوى الحموية.

قوله: **﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾**:

الأول: إفساد حسي مادي، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي فهي من أكبر الفساد في الأرض قال تعالى: **﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾**، وقال تعالى: **﴿ولو أن أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾**[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

. . . .

قوله: ﴿**إنما نحن مصلحون**﴾ وهذه دعوى من أبطل الدعاوى حيث قالوا ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح.

قولـه: ﴿**ألا إنهم هم المفسـدون**﴾، ﴿**ألا**﴾ أداة استفتـاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات وهي: ﴿ألا﴾ و﴿إن﴾ وضمير الفصل ﴿هم﴾ والجملة الإسمية، فالله قابـل حصرهم بأعظم منه فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، وذلك أن الحكم بغير ما أنزل الله من أكبر أسباب الفساد في الأرض.

قوله: ﴿**ولا تفسدوا في الأرض**﴾ يشمل الفساد.المادي والمعنوي كما سبق.

قوله: ﴿**بعد إصلاحها**﴾: من قبل المصلحين ومن ذلك الوقوف ضد دعـوة أهل العلم، والوقوف ضد دعوة السلف، وضد من ينادي بأن يكون الحكم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿**بعد إصلاحها**﴾: من باب تأكيد اللوم والتوبيخ إذ كيف يفسد الصـالـح؟ وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر ؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب من الجميع هو الإصلاح بعد الفساد.

وقـوله: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ الآية[1] وعن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[2]، قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح[3].

مناسبة الآية للباب:

أن الحكم بما أنزل الله إصلاح والحكم بغير ما أنزل الله إفساد. قوله: ﴿أفحكم الجـاهلية يبغون﴾: الاستفهام للتوبيخ، و﴿حكم﴾ مفعول مقدم «ليبغون» وقدم لإفادة الحصر والمعنى: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و﴿يبغون﴾ يطلبون، والإضافة في قوله: ﴿حكم الجاهلية﴾ تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنىٰ أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة ومنها: البحائر والسوائب، وقتل الأولاد وغيرها.

ثانيها: أن يكون المعنى أفحكم الجهل الذي لا يبنى على العلم يبغون سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم لم تكن وهذا أعم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب في التأريخ ٤/٣٦٩، والبغوي في شرح السنـة ١/٢١٢، وابن الجـوزي في ذم الهوى ص١٨. وانظر كلام ابن رجب على سند الحديث في جامع العلوم والحكم ص (٣٣٨).

(٣) الأربعون النووية حديث رقم (٤١).

. . . .

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع فهو جهل. والجهالة هي العمل بالخطأ سفهاً لا جهلاً قال تعالى: **﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾**[1]، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه لكن عليه أن يتعلم.

قوله: **﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾** **﴿من﴾** اسم استفهام بمعنىٰ النفي أي لا أحد أحسن من الله حكماً، وهذا النفي مشرب معنى التحدي فهو أبلغ من قول: **﴿لا أحسن من الله حكماً﴾** لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: **﴿حكماً﴾** تمييز؛ لأنه بعد اسم التفضيل، وهو مبهم فبيَّن هذا المبهم وميزه.

والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي.

فإن قيل: يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها فأين الحسن في ذلك؟

أجيب: أن الغايات المحمودة في هذه الأمور تجعلها حسنةً، كما يضرب الإنسان ولده تربية له فيعد هذا الضرب فعلاً حسناً، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين: **﴿فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾**[2]، وهذا الحسن في حكم الله ليس مبيناً لكل أحد. كما قال تعالى: **﴿لقوم**

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٦.

. . . .

يوقنون﴾، وكلما ازداد إيماناً ازداد معرفة بحسن أحكام الله، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلاً لحسن أحكام الله، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضاً وعلى هذا فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية.

وقوله: **﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾** خبر لا يدخله الكذب إطلاقاً، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص. وقالوا: **﴿كل من عند ربنا﴾**[1].

قوله: **«لا يؤمن أحدكم»** أي إيماناً كاملاً إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى: **﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾**[2].

قوله: **«حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»** الهوىٰ بالقصر هو الميل، وبالمد وهو الريح، والمراد الأول.

و (حتى) للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ، هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ لزم من ذلك أن يوافق تصديقاً بالأخبار، وامتثالاً للأوامر.

واعلم أن أكثر ما يطلق الهوىٰ على هوى الضلال لا على هوى الإيمان قال تعالى: **﴿أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿واتبعوا**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة محمد، الآية: ٩.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة، فيتحاكما إليه فنزلت ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون**﴾[1] الآية[2].

أهواءهم﴾[3]، وغيرها من الآيات الدالة، على ذم من اتبع هواه، ولكن إذا كان الهوى تبعاً لما جاء به النبي ﷺ محموداً وهو من كمال الإيمان.

وقد سبق بيان أن من اعتقد أن حكم غير الله مساو لحكم الله، أو أحسن، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير الله فهو كافر.

وأما من لم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ فإن كان كارهاً فهو كافر، وإن لم يكن كارهاً ولكن آثر محبة الدنيا على ذلك فليس بكافر، لكن يكون ناقص الإيمان.

قوله: «**قال النووي حديث صحيح**» صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» ولكن معناه صحيح.

قوله: «**وقال الشعبي**» أي في تفسير الآية.

قوله: «**رجل من المنافقين**» هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر وسمي

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ٥/٩٧ عن الشعبي مرسلاً.

(٣) سورة محمد، الآية: ١٤.

. . . .

منافقًا من النافقاء وهي جحر اليربوع، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء ـ أي يحفر إلى الأرض ويحفر إلى أعلى فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف ـ فإذا حجر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله: «**ورجل من اليهود**» اليهود هم المنتسبون إلى دين موسىٰ عليه السلام، وسموا بذلك إما من قوله: ﴿**إنَّا هدنا إليك**﴾ أي رجعنا، أو نسبة إلى أبيهم يهوذا ولكن بعد التعريب صارت بالدال.

قوله: «**إلىٰ محمد**» أي النبي ﷺ ولم يذكره بوصف الرسالة؛ لأنهم لايؤمنون برسالته ويزعمون أن النبي الموعود به سيأتي.

قوله: «**عرف أنه لايأخذ الرشوة**» تعليل لطلب التحاكم إلى النبي ﷺ.

والرشوة: مُثَلْثَةُ الراء فيجوز الرِّشوة، الرَّشوة، والرُّشوة، وهي: المال المدفوع للتوصل إلى شيء.

قال أهل العلم: لاتكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطلٍ أو دفع حق، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه فليست حراماً على الباذل أما على آخذها فحرام».

قوله: «**فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة**» كأنه صار بينهما خلاف وأبىٰ المنافق ـ والله أعلم ـ أن يتحاكما إلى النبي ﷺ.

والكاهن: من يدَّعي علم الغيب في المستقبل، وكان للعرب كهان تنزل عليهم الشياطين بخبر السماء، فيقولون: سيحدث كذا وكذا فربما أصابوا مرة من المرات، وربما أخطأوا، فإذا أصابوا ادعوا علم الغيب فكان العرب يتحاكمون إليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون....**﴾ الآية.

وقيل: «نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهم: نترافع إلى النبي ﷺ وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحـدهم القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله»[1].

قولـه: «**رجلين**» مبهمـين فيحتمـل أن يكـونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المسلمين المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: «**إلى كعب بن الأشرف**» وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «**أكذلك**» خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «**فضربه بالسيف**» الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فإن قيل: كيف يقتله عمر رضي الله عنه والأمر إلى الإمام وهو النبي ﷺ؟

أجيب: أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقوة غيرته فقتله؛ لأنه عرف أن هذا ردة عن الإسلام وقد قال النبي ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»[2].

---

(١) علقه الواحدي في أسباب النزول ص (١٠٧، ١٠٨)، والبغوي في تفسيره ١/٥٥٢.
وقد أشار الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلى ضعفه بقوله: «وقيل...»، وانظر تيسير العزيز ص (٥٧٣).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد/ باب لايعذب بعذاب الله ٤/٣٦٣ من حديث ابن عباس.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت، **الثانية** : تفسير آية البقرة: ﴿**وإذا قيل لهم لاتفسدوا في الأرض**﴾ . الآية . **الثالثة** : آية الأعراف : ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾ **الرابعة** : تفسير: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ **الخامسة** : ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى . **السادسة** : تفسير الإيمان الصادق والكاذب . **السابعة** : قصة عمر مع المنافق، **الثامنة** : كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ .

فيه مسائل :

الأولى : «تفسير آية النساء ومافيها من الإعانة على فهم الطاغوت» .

وهي قوله تعالى : ﴿**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك**﴾ .

وقوله : «وما فيها من الإعانة على الطاغوت» أي أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك فيشمل كل ماتجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع، فالأصنام والأمراء والحكام الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت .

الثانية : تفسير آية البقرة : ﴿**وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون**﴾ ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض؛ لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي .

الثالثة : تفسير آية الأعراف : ﴿**ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**» .

وقد سبق .

. . . .

الرابعة: تفسير: ﴿**أفحكم الجاهلية يبغون**﴾ وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه وأنه مبني على الجهل والضلال.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولىٰ، وقد سبق.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب: فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والايمان الكاذب ما سوىٰ ذلك.

السابعة: قصة عمر مع المنافق: حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحاً لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ: وهذا واضح من الحديث.



باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:

الأول: إنكار تكذيب وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحداً أنكر اسماً من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة مثل أن يقول ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه أو ليس له عين فهو كافر بإجماع المسلمين؛ لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.

الثاني: إنكار تأويل وهو أن لايذكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها وهذان نوعان:

الأول: أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية فهذا لايوجب الكفر.

الثاني: أن لايكون له مسوغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيباً، مثل أن يقول المراد بقوله تعالى: ﴿**تجري بأعيننا**﴾[1]، تجري بأراضينا، فهذا كافر لأنه نفاها نفياً مطلقاً فهو مكذب.

ولو قال في قوله تعالى: ﴿**بل يداه مبسوطتان**﴾[2]، المراد بيديه السموات والأرض فهو كفر أيضًا لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولاهو مقتضى الحقيقة الشرعية فهو منكر ومكذب، لكن إن قال المراد باليد النعمة أو القوة فلا

---

(١) سورة القمر، الآية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

. . . .

يكفر؛ لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة قال الشاعر:

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب

فقوله: (من يد) أي من نعمة؛ لأن المانوية يقولون إن الظلمة لاتخلق الخير، وإنما تخلق الشر.

قوله: (من الأسماء) جمع اسم واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو وهو الارتفاع ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.

وقيل: من السمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.

والمراد بالأسماء هنا: أسماء الله عز وجل، وبالصفات صفات الله عز وجل، والفرق بين الإسم والصفة أن الإسم ما تسمى به الله والصفة مااتصف به.

البحث في أسماء الله:

المبحث الأول:[1]

أن أسماء الله أعلام وأوصاف، وليست أعلامًا محضة فهي من حيث دلالتها على ذات الله تعالى أعلام ومن حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف، بخلاف أسمائنا فالإنسان يسمي ابنه محمداً وعليًّا دون أن يلحظ معنى الصفة فقد يكون اسمه عليًّا وهو من أوضع الناس أو عبدالله وهو من أكفر الناس بخلاف أسماء الله؛ لأنها متضمنة للمعاني فالله هو العلي لعلو ذاته وصفاته، والعزيز يدل على العزة، والحكيم يدل على الحكمة وهكذا.

---

(١) انظر باب احترام أسماء الله تعالى.

. . . .

ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: دلالة مطابقة، وهي دلالته على جميع معناه المحيط به.

الثاني: دلالة تضمن وهي دلالته على جزء معناه.

الثالث: دلالة التزام وهي دلالته على أمر خارج لازم.

مثال ذلك: الخالق يدل على ذات الله وحده، وعلى صفة الخلق وحدها دلالة تضمن، ويدل على ذات الله وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقة، ويدل على العلم والقدرة دلالة التزام.

كما قال الله تعالى: **﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾**[1]، فعلمنا القدرة من كونه خلق السموات والأرض، وعلمنا العلم من ذلك؛ لأن الخلق لابد فيه من علم فمن لايعلم لا يخلق وكيف يخلق شيئاً لا يعلمه.

المبحث الثاني:

أن أسماء الله مترادفة متباينة، المترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناها، والمتباين: ما اختلف لفظه ومعناه، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله عز وجل؛ لأنها تدل على مسمى واحد، فالسميع، البصير، العزيز، الحكيم كلها تدل على شيء واحد هو الله، ومتباينة باعتبار معانيها؛ لأن معنى الحكيم غير معنى السميع، وغير معنى البصير، وهكذا.

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

. . . . ; . . . .

المبحث الثالث:

أسماء الله ليست محصورة بعدد معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ في حديث ابن مسعود الحديث الصحيح المشهور: «**اللهم إني عبدك ابن عبدك وابن أمتك - إلى أن قال - أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[1]، ومما استأثر الله به في علم الغيب لايمكن أن يعلم به، وما ليس بمعلوم ليس بمحصور.

وأما قوله ﷺ: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»[2]، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة فقوله: «من أحصاها» تكميل للجملة الأولى، وليست استئنافية منفصلة، ونظير هذا قول القائل: عندي مائة فرس أعددتها للجهاد في سبيل الله، فليس معناه أنه ليس عنده إلا هذه المائة بل معناه أن هذه المائة معدة لهذا الشيء.

---

(١) أخرجه أحمد ١/٣٩١، ٤٥٢، وابن حبان (٢٣٧٢)، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢)، والحاكم ١/٥٠٩ وقال: «صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه فإنه مختلف في سماعه من أبيه»، وأخرجه أيضا البيهقي في الأسماء ص(٦).
والحديث صححه ابن القيم كما في بدائع الفوائد ١/١٦٦، وحسّنه الحافظ في تخريج الأذكار كما في الفتوحات الربّانية ٤/١٣.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد/ باب إن لله مائة اسم إلا واحد ٤/٤٨٢، ومسلم في الذكر والدعاء/ باب في أسماء الله تعالى ٤/٢٠٦٣، من حديث أبي هريرة.

. . . .

المبحث الرابع:

الاسم من أسماء الله يدل على الذات وعلى المعنى كما سبق فيجب علينا أن نؤمن به اسماً من الأسماء، ونؤمن بما تضمنه من الصفة، ونؤمن بما تدل عليه هذه الصفة من الأثر والحكم إن كان الاسم متعدياً، فمثلاً السميع نؤمن بأن من أسمائه السميع، وأنه دال على صفة السمع، وأن لهذا السمع حكماً وأثرًا وهو أنه يسمع به كما قال تعالى: **﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾**[1]. أما إن كان الاسم غير متعد كالعظيم والحي والجليل، فنثبت الاسم والصفة لأنه لاحكم له يتعدى.

المبحث الخامس:

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى فهو غير الله عز وجل، وإن أريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ فهو المسمى.

فمثلاً: الذي خلق السموات والأرض هو الله فالاسم هنا هو المسمى فليست «اللام ـ والهاء» هي التي خلقت السموات والأرض، وإذا قيل اكتب بسم الله الرحمن فكتبت الله.

فالمـــراد الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيداً فضربت زيداً المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلاً؛ لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم، فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١.

البحث في صفات الله :

المبحث الأول:

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ذاتية ويقال معنوية.

والثاني: فعلية.

والثالث: خبرية.

فالصفات الذاتية هي الملازمة لذات الله، والتي لم يزل ولا يزال متصفاً بها، مثل: السمع والبصر وهي معنوية، لأن هذه الصفات معاني.

والفعلية هي التي تتعلق بمشيئته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها مثل النزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والكلام من حيث آحاده، والخلق من حيث آحاده، لا من حيث الأصل فأصل الكلام صفة ذاتية، وكذلك الخلق.

والخبرية: هي أبعاض وأجزاء بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله فلا يقال هكذا، بل يقال صفات خبرية ثبت بها الخبر من الكتاب والسنة، وهي ليست معنىً ولا فعلاً مثل: الوجه والعين والساق واليد.

المبحث الثاني :

الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة تكون اسماً، وهناك صفات كثيرة تطلق على الله وليست من أسمائه فيوصف الله بالكلام والإرادة، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد.

. . . .

المبحث الثالث:

أن كل ما وصف الله به نفسه فهو حق على حقيقته، لكن ينزه عن التمثيل والتكييف، والتعبير بالتمثيل أحسن من التعبير بالتشبيه لوجوه ثلاثة:

أحدها: أن التمثيل هو الذي جاء به القرآن وهو منفي مطلقاً بخلاف التشبيه فلم يأت القرآن بنفيه.

الثاني: أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصح، لأن كل موجودين فلابد أن يكونا بينهما قدر مشترك يشتبهان فيه ويتميز كل واحد بما يختص به فـ «الحياة» مثلاً وصف ثابت في الخالق والمخلوق، فبينهما قدر مشترك ولكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق تليق به.

الثالث: أن الناس اختلفوا في مسمى التشبيه حتى جعل بعضهم إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه تشبيهاً فإذا قلنا من غير تشبيه فهم هذا البعض من هذا نفي الصفات التي أثبتها الله لنفسه.

وكذلك لايجوز أن نكيف صفات الله بل ننزه عن ذلك فمن كيَّف صفة من الصفات فهو كاذب عاص، كاذب لأنه قال بما لا علم عنده لأن المخلوق لايحيط بالخالق قال تعالى: ﴿**ولا يحيطون به علماً**﴾[1]. وقال تعالى: ﴿**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**﴾[2]. وقال تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون**﴾. بعد قوله: ﴿**قل**

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٠.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وقول الله تعالى: ﴿وهم يكفرون بالرحمن. . . ﴾ الآية[1].

إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن. . . . الآية﴾[2] وعاص لأنه قال في الله بغير علم.

وسواء كان التكييف باللسان تعبيراً أو بالجنان تقديراً أو بالبنان تحريراً، ولهذا قال مالك رحمه الله حين سئل عن كيفية الاستواء (الكيف مجهول والسؤال عنه بدعة) وليس معنى هذا أن لا نعتقد أن لها كيفية، بل لها كيفية ولكنها ليست معلومة لنا؛ لأن ما ليس له كيفية ليس بموجود، فالاستواء والنزول واليد والوجه والعين لها كيفية لكننا لا نعلمها، ففرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقديراً وبين أن نؤمن بأن لها كيفية غير معلومة، وهذا هو الواجب فنقول لها كيفية لكن غير معلومة.

فإن قيل: كيف يتصور أن نعتقد للشيء كيفية ونحن لانعلمها؟ أجيب:

أنه متصور فالواحد منا يعتقد أن لهذا القصر كيفية من داخله، ولكن لايعلم هذه الكيفية إلا إذا شاهدها، أو شاهد نظيرها، أو أخبره شخص صادق عنها.

قوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾:

﴿وهم﴾: أي كفار قريش، ﴿يكفرون بالرحمن﴾ المراد: أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى فهم يقرون به قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق

---

(1) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(2) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

. . . .

السموات والأرض ليقولن الله﴾[1]، وفي حديث سهيل بن عمرو «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب كتاب الصلح في غزوة الحديبية قال: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال: أما الرحمن الرحيم، فوالله ما أدري ما هما وامتنع أن يكتب الرحمن الرحيم وكتب باسم اللهم»[2] وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

وقد قال الله تعالى: **﴿قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيًّامّا تدعو فله الأسماء الحسنى﴾**[3]، أي بأي اسم من أسمائه تُدعونه فإن له الأسماء الحسنى فكل أسمائه حسنى فادعوا بما شئتم من الأسماء ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسمائه تعالى فإنه يكفر لقوله تعالى: **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾**[4]، ولأنه مكذب لله ولرسوله وهذا كفر، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية.

قوله: (لا إلـه إلا هو):

خبر «لا» النافية للجنس محذوف، والتقدير: لا إلـه حق إلا هو، وأما المعبود بالباطل فكثير قال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾[5].

قوله: **«عليه توكلت»**:

أي عليه وحده؛ لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، فإذا قلت مثلاً:

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط / باب الشروط في الجهاد ٢/ ٢٧٩، ٢٨٣.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٣٠.

. . . .

«ضربت زيداً» فإنـه يدل على أنك ضربته ولكن لايدل على أنك لم تضرب غيره، وإذا قلت: «زيداً ضربت» دلت على أنك ضربت زيداً ولم تضرب غيره.

قوله: **«وإليه متاب»**:

أي إلى الله، و«متـاب» أصلهـا متابي، فحذفت الياء تخفيفاً، والمتاب بمعنى: التوبة فهو مصدر ميمي أي وإليه توبتي.

والتوبة: هي الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، ولها شروط خمسة:

١ ـ الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد، أو محاباة أو شيء من الدنيا.

٢ ـ أن تكون في وقت قبول التوبة وذلك قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل حضور الموت.

٣ ـ النـدم على ما مضى من فعله، وذلـك بأن يشعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن.

٤ ـ الإقلاع عن الذنب، وعلى هذا فإذا كانت التوبة مظالم الخلق فلابد من رد المظالم إلى أهلها واستحلالهم منها.

٥ ـ العزم على عدم العودة والتوبة التي لا تكون إلا لله هي توبة العبادة، كما في الآية السابقة، وأما التوبة التي بمعنى الرجوع فإنها تكون غيره، ومنه قول عائشة حين جاء النبي ﷺ فوجد نمرقة فيها صور فوقف بالباب ولم يدخل وقالت: «أتوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت»[1] فليس المراد بالتوبة هنا العبادة؛ لأن توبة العبادة لاتكون للرسول ﷺ ولا لغيره من الخلق بل

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح/ باب دهان النساء والصبيان إلى العرس ٢/ ٣٨١، ٣٨٢.

وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله»[1].

لله وحده، ولكن هذه توبة رجوع، ومن ذلك أيضًا حين يضرب الإنسان ابنه لسوء أدبه يقول الابن: أتوب.

قوله: «**حدثوا الناس**»: أي كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

قوله: «**بما يعرفون**»: أي بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لايفتتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[2] ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لايمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويداً رويداً حتى تستقر عقولهم، وليس معنى «بما يعرفون» أي بما يعرفونه من قبل؛ لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»:

الاستفهام للإنكار أي أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله؟ لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا، قالوا: هذا كذب إذا كانت عقولهم لاتبلغه، وهم لايكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله لامباشرة، ولكن بواسطة القائل.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم/ باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ١/ ٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ١/ ١١.

. . . .

فإن قيل: أن ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس؟

أجيب: لا ندعه ولكن نحدثهم عن طريق تبلغه عقولهم، وذلك بأن ننقلهم رويداً رويداً حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه، ولا ندع مالا تبلغه عقولهم ونقول هذا شيء مستنكر لا يتكلم به.

ومثل ذلك العمل بالسنة التي لا يعتادها الناس.

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل، وأنه يجب على الداعية أن ينظر في عقول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته.

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات:

مناسبته: ظاهرة لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة، فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيء عليهم، كحديث النزول إلى السماء الدنيا[1]، مع ثبوت العلو، فلو حدثت العام بأنه ينزل إلى السماء الدنيا بذاته مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذانزل صارت السموات فوقه وصار العرش خالياً منه وحينئذ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبين لهم أن الله عز وجل ينزل نزولاً لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «**من يدعوني فأستجيب له**. . .» الحديث.

والعامي يكفيه أن يتصور مطلق المعنى، وأن المراد بذلك بيان فضل الله عز وجل في هذه الساعة من الليل.

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٥).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك فقال ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه». انتهى[1].

قوله: **(انتفض)** أي اهتز جسمه، والرجل مبهم، والصفة التي حدث بها لم تبين، وبيان ذلك ليس مهما، وهذا الرجل انتفض استنكاراً لهذه الصفة لا تعظيماً لله وهذا أمر عظيم صعب، لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: **(ما فرق)**:

فيها: ثلاث روايات:

١ - (فَرَقُ).

٢ - (فَرَّقَ).

٣ - (فَرَقَ).

فعلى رواية (فَرَقُ) تكون (ما) استفهامية مبتدأ و(فرق) خبر المبتدأ، أي ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد/ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٥٦، ومسلم في صلاة المسافرين/ باب الترغيب في الدعاء ١/٥٢١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وهو عند مسلم أيضاً عن حديث أبي سعيد الخدري في الموضع السابق ١/٥٢٢.

. . . .

عز وجل كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله وهذا ينصب تماماً على أهل التعطيل والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه.

وعلى رواية: (فَـرّق أو فَرَقَ) بمعنى ما فرّقهم كقوله تعالى: ﴿**وقرآناً فرقناه**﴾[1]، أي فرقناه و(فرق) تكون فعلاً ماضياً و(ما) يحتمل أن تكون نافية، والمعنى ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: (**يجدون رقة عند محكمه**)، الرقة: اللين والقبول، و(**محكمه**) أي محكم القرآن.

قوله: (**ويهلكون عند متشابهه**)، أي متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا كان المحكم مفرداً دون المتشابه فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل لا كذب في أخباره ولا جور في أحكامه قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً**﴾[2]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**تلك آيات الكتاب الحكيم**﴾[3]، وقال تعالى: ﴿**كتاب أحكمت آياته**﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ١.

(٤) سورة هود، الآية: ١.

وإذا أفـرد المتشـابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض قال تعالى: ﴿**الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني**﴾[1]. والتشابه نوعان:

تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف على قوله تعالى: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم**﴾[2]، فالوقف على (إلا الله) يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل (إلا الله والراسخون في العلم) يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القـول الأول: بالوقف على (إلا الله) وعليه أكثر السلف، وعلى هذا فالمراد بالمتشابه المتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق ما أخبر الله به من نعيم الجنة وعذاب النار قال الله تعالى في نعيم الجنة ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾[3]، أي لا تعلم حقائق ذلك ولذلك قال ابن عباس: (ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء)[4].

والقول الثاني: بالوصل فيقرأ (إلا الله والراسخون في العلم)، وعلى هذا

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٤) أخرجه ابن حزم في الفصل ٢/١٠٨، وقال: «هذا سند غاية في الصحة»، وقال المنذري في الترغيب ٤/٥٦٠: «رواه البيهقي موقوفاً بإسناد جيد».

. . . .

فالمراد بالمتشابه المتشابه النسبي وهذا يعلمه الراسخون في العلم ويكون عند غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن ابن عباس أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه، فالقرآن معانيه كلها بينة لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعاً فإنها تحمل عليهما جميعاً.

وبعض أهل العلم يظنون أن في القرآن ما لا يمكن الوصول إلى معناه فيكون من المتشابه المطلق، ويحملون آيات الصفات على ذلك، وهذا من الخطأ العظيم إذ ليس من المعقول أن يقول تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته**﴾[1]، ثم تستثنى آيات الصفات وهي أعظم وأشرف وأكثر من آيات الأحكام، ولو قلنا بهذا القول لكان مقتضاه أن أشرف مافي القرآن يكون خفيا ويكون معنى قوله: ﴿**ليدبروا آياته**﴾. أي آيات الأحكام فقط، وهذا غير معقول بل جميع القرآن يفهم معناه إذ لايمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله ﷺ إلى آخرها لا تفهم معنى القرآن، وعلى رأيهم يكون الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر وجميع الصحابة يقرأون آيات الصفات، وهم لايفهمون معناها، بل هي عندهم بمنزلة الحروف الهجائية ا، ب، ت... والصواب: أنه ليس في القرآن شيء متشابه على جميع الناس من حيث المعنى، ولكن الخطأ في الفهم

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٩.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾[1][2].

فقد يقصر الفهم عن إدراك المعنى أو يفهمه على معنى خطأ، وأما بالنسبة للحقائق فما أخبر الله به من أمر الغيب، فمتشابه على جميع الناس.

قوله: «**ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن**»: أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: «أما الرحمن فلا والله ما أدري ما هو، وقالوا: إننا لا نعرف رحماناً إلَّا رحمٰن اليمامة فأنكروا الاسم دون المسمى فأنزل الله: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾»، أي بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسماً من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة فهو كافر لقوله تعالى: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾.

وقوله: «**ولما سمعت قريش**»: الظاهر ـ والله أعلم ـ أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك بل طائفة منهم، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر صح أن ينسب لهم جميعاً، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي ﷺ ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿**وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم**

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه ابن جرير ١٣/١٠١ عن مجاهد مرسلاً.

فيه مسائل: الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات. **الثانية**: تفسير آية الرعد. **الثالث**: ترك التحديث بما لا يفهم السامع. **الرابعة**: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر. **الخامسة**: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه.

بقوة﴾[1]، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين.

فيه مسائل: الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات: «عدم» بمعنى انتفاء أي انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية: تفسير آية الرعد: وهي قوله تعالى: **﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾** وسبق تفسيرها.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع: وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر: ذكر العلة في عدم التحديث، وهو أن الذي لايبلغ عقله ما حدث به يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن وهذا يوجد في أشياء كثيرة كما أخبر النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة وكما أخبر النبي ﷺ: **«أن الأرض يوم القيامة كخبزة في يد الله عز وجل يتكفؤها بيده كما يتكفأ الإنسان**

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٦٣.

. . . .

خبزته»[1]، وما أشبه ذلك، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعر وغير هذه الأمور لو حدَّثنا بها إنساناً عامياً لأوشك أن ينكر، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثلما نعلم الصبي شيئاً فشيئاً.

وقوله: **«ولو لم يتعمد المنكر»** أي: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه أهلكه: وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة - أي ليناً - عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه» فينكرونه.

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق/ باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ٤/١٩٥، ومسلم في المناقين/ باب نزل أهل الجنة ٤/٢١٥٠.



باب قول الله تعالى :
﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾[1]

قوله : «**يعرفون**» : أي يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله .

قوله : «**نعمة الله**» : واحدة والمراد بها الجمع فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى قال تعالى : ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**﴾[2]، والقاعدة الأصولية : أن المفرد الصفاف يعم، والنعمة تكون بجلب المحبوبات، وتطلق أحياناً على رفع المكروهات .

قوله : (**ثم ينكرونها**) :

أي ينكرون إضافتها إلى الله لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله سبحانه، وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا : ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله متناسين الذي خلق السبب فوجد به المسبب .

قوله : (**الآية**) أي إلى آخر الآية، وهي منصوبة بفعل محذوف تقديره أكمل الآية .

قوله : «**وأكثرهم الكافرون**» أي الذين كفروا بالله عز وجل .

وقوله : «**أكثرهم**» بعد قوله (يعرفون) الجملة الأولى أضافها إلى الكل،

---

(١) سورة النحل، الآية : ٨٣ .

(٢) سورة إبراهيم، الآية : ٣٤ .

قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن آبائي» وقال عون بن عبدالله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا» وقال ابن قتيبة: «يقولون هذا بشفاعة آلهتنا».

والثانية أضافها إلى الأكثر، وذلك لأن منهم من هو عامي لا يعرف ولا يفهم، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون.

مناسبة هذا الباب للتوحيد:

أن من أضاف نعمة الخالق إلى غيره فقد جعل معه شريكاً في الربوبية؛ لأنه أضافها إلى السبب على أنه فاعل هذا من وجه، ومن وجه آخر أنه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات وترك الشكر مناف للتوحيد؛ لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم سبحانه وتعالى، فصارت لها صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد العبادة، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنه فاعل هذا إخلال بتوحيد الربوبية، ومن حيث ترك القيام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية.

قوله: «**قال مجاهد**» هو إمام المفسرين في التابعين عرض المصحف على ابن عباس رضي الله عنه يقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، أي كافيك، ومع هذا فليس معصوماً عن الخطأ.

قوله: «**هو قول الرجل**» هذا من باب التغليب والتشريف؛ لأن الرجل أشرف من المرأة وإلا فالمرأة مثله.

قوله: «**هذا مالي ورثته عن آبائي**» ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها،

. . . .

فلو قال لك واحد من أين لك هذا البيت؟ قلت: ورثته عن آبائي فليس فيه شيء لأنه خير محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملك هذا الشيء إلى السبب الذي هو الإرث متناسياً المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله عز وجل أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله عز وجل انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم، فمن هنا صار هذا القول نوعاً من كفر النعمة.

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق فلا شيء في ذلك، ولهذا ثبت أن النبي ﷺ قيل له يوم الفتح: «أتنزل في دارك غداً؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع»[1] فبين ﷺ أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث.

فتبين أن هناك فرقاً بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر، وبين إضافته إلى سببه متناسياً المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: **«وقال عون بن عبدالله: يقولون لولا فلان لم يكن كذا»** إن أراد بها الخبر وكان الخبر صدقاً مطابقاً للواقع فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سبباً خفياً لا تأثير له إطلاقاً كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا كذا، فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفاً في الكون مع أنه ميت فهو تصرف سري خفي.

---

(١) أخرجه البخاري في الحج / باب توريث دور مكة وبيعها ١/ ٤٨٩، ومسلم في الحج / باب النزول بمكة للحاج ٢/ ٩٨٤ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

. . . .

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعاً أو حساً فهذا جائز بشرط أن لايعتقد أن السبب مؤثر بنفسه أو أن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً لا شرعاً ولا حساً فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التولة والقلائد التي يقال إنها تمنع العين وما أشبه ذلك؛ لأنه أثبت سبباً لم يجعله الله سبباً فكان مشاركاً لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة [لولا] إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيداً لله تعالى، فأضاف النبي ﷺ الشيء إلى سببه لكنه شرعي حقيقي وأنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه، فكان في ضحضحاح من النار عليه نعلان يغلي منهما دماغه لا يرى أن أحداً أشد منه عذاباً؛ لأنه لو يرى أن أحداً أشد منه عذاباً هان عليه بالتسلي، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم ـ رحمه الله ـ وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به. قال في الميمية يمدح الصحابة:

أولئك أتباع النبي وحزبه ... ولولاهمو ما كان في الأرض مسلم

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار/ باب قصة أبي طالب ٣/ ٦٢، ومسلم في الإيمان/ باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب ١/ ١٩٤ من حديث العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «أن الله تعالى قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» الحديث[1]، وقد تقدَّم: وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثيرة».

ولولاهمو كادت تميد بأهلها ... ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولاهمو كانت ظلاماً بأهلها ... ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف [لولا] إلى سبب صحيح.

قوله: «**وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا**»: هؤلاء أخبث من الأولين؛ لأنهم مشركون يعبدون غير الله ثم يقولون إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلاً شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سبباً من أبطل الأسباب، لأن الله عز وجل لا يقبل شفاعة آلهتهم قال تعالى: ﴿**يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً**﴾[2] والله عز وجل لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

١ - الشرك بهذه الأصنام.

٢ - إثبات سبب غير صحيح.

قوله: «**وقال أبو العباس**»: هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

قوله: «**وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى**

---

(١) سبق ص (١٢٧).

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٩.

. . . .

غيره. . . » وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذموماً؛ لأنه لو أتىٰ إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد كان هذا سوء أدب مع السيد وكفراناً لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق لما يأتي:

١ ـ أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

٢ ـ أن السبب قد لايؤثر كما ثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «ليس السنة أن لا تمطروا، بل السنة أن تمطر ثم لاتنبت الأرض»[١].

٣ ـ أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف ضعف إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

قوله: **«كانت الريح طيبة»** هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح قال تعالى: **﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾**[٢] فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة وكان الملاح ـ وهو قائد السفينة ـ حاذقاً أي مجيداً للقيادة.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن/باب في سكنى المدينة ٤/٢٢٢٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) سورة يونس، الآية: (٢٢).

فيه مسائل : الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها. **الثانية** : معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة. **الثالثة** : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة. **الرابعة** : اجتماع الضدين في القلب.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها وسبق ذلك.

الثانية : معرفة أن هذا جار على السنة كثيرة، وذلك مثل قول بعضهم : كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً وما أشبه ذلك.

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة، يعني إنكاراً لتفضل الله تعالى بها وليس إنكاراً لوجودها لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة : **اجتماع الضدين في القلب** : وهذا من قوله : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.



باب قول الله تعالى

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾[1]

قوله: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾: لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره: ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾[2]. فكل من أقرَّ بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له لأنه لايستحق العبادة من لا يفعل ذلك، ولاينبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك، ولذلك أتى بالفاء الدالة على التفريع والسبب، أي: فبسبب ذلك لا تجعلوا لله أنداداً.

و[لا] هذه ناهية، فلا تجعلوا له أنداداً في العبادة، كما أنكم لم تجعلوا له أنداداً في الربوبية، وأيضاً لا تجعلوا له أنداداً في أسمائه وصفاته؛ لأنهم قد يصفون غير الله بأوصاف الله عز وجل كاشتقاق العزى من العزيز، وتسميتهم رحمن اليمامة.

قوله: (**أنداداً**) جمع ند وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أنداد في العبادة.

قوله: (**وأنتم تعلمون**)

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٢١، ٢٢.

وقال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلان، وحياتي، تقول لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم[1].

الجملة في موضع نصب حال من فاعل «تجعلون» أي والحال أنكم تعلمون، والمعنى: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له يعني في الربوبية؛ لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أنداداً وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية فيجعلون له أنداداً قالوا للنبي ﷺ: **﴿أجعل الآلهة إلـٰهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾**[2]، ويقولون في تلبيتهم: «**لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك**». وهذا من سفههم فإنه إذا صار مملوكاً فكيف يكون شريكاً، ولهذا نفى الله عنهم عقولهم في قوله: **﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾** إذ الأنداد بالمعنى العام ـ بقطع النظر عن كونه يخاطب أقواماً يقرون بالربوبية ـ يشمل الأنداد في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات.

قوله: «**وقال ابن عباس في الآية**» أي في تفسيرها.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير ١/٥٧. وقال الشيخ سليمان في تيسير العزيز ص(٥٨٧): «وسنده جيد».

(٢) سورة ص، الآية: ٥.

. . . .

قوله: «**هو الشرك**»: هذا تفسير بالمراد لأن التفسير تفسيران:

١ ـ تفسير بالمراد.

٢ ـ تفسير بالمعنى، وهو الذي يسمى تفسير الكلمات. فعندنا الآن وجهان للتفسير أحدهما التفسير اللفظي وهو تفسير الكلمات وهذا يقال فيه معناه كذا وكذا، والثاني التفسير بالمراد، فيقال المراد بكذا كذا، والأخير هو المراد.

فإذا قلنا: الأنداد الأشباه والنظراء فهو تفسير بالمعنى، وإذا قلنا الأنداد الشركاء أو الشرك فهو تفسير بالمراد، والمعنى يقول رضي الله عنه: «الأنداد هو الشرك» فإذاً الند الشريك المشارك لله سبحانه وتعالى فيما يختص به أو فيما يجب له.

قوله: «**دبيب**» أي أثر دبيب النمل، وليس فعل النمل.

قوله: «**على صفاة**» وليس على تراب.

قوله: «**سوداء**» وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء لتلوث البياض مع كثرة التردد.

قوله: «**في ظلمة الليل**» وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفىٰ من هذا فنسأل الله أن يعين على التخلص منه ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص»، ويروي عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا! قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك ونحن نعلم ونستغفرك مما لا نعلم»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٤٠٣، والطبراني في الأوسط والكبير كما في المجمع ١٠/٢٢٣، =

. . . .

قوله: «**والله وحياتك**» فيها نوعان من الشرك:

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: إشراك مع الله بقوله والله وحياتك، فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة فهو شرك أكبر، وإلا فهو شرك أصغر.

قوله: «**وحياتي**» فيه حلف بغير الله فهو شرك.

قوله: «**لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص**» كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «**لولا كليبة هذا**» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم فقد تقدم أنه لا بأس به وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]، لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو ما كان

= ٢٢٤، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال المنذري في الترغيب ١/٧٦: «ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان ولم أر أحداً جرحه»، وكذا قال الهيثمي في المجمع.

وأخرجه المروزي في مسند أبي بكر (١٧)، وأبو يعلى كما في المجمع ١٠/٢٢٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٧) من حديث أبي بكر، وفيه ليث بن أبي سليم وقد اختلط.

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) وفيه ليث بن أبي سليم مع رجل من أهل البصرة.

وأخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/٣٠، وأبو نعيم في الحلية ٧/١١٢ وفيه يحيى بن كثير البصري مجمع على ضعفه.

(١) سبق ص (٣١٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»** رواه الترمذي وحسنه وصححه **الحاكم**[1] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: **«لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقاً»**[2].

كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب وهو الله عز وجل.

قوله: **«لولا البط في الدار لأتى اللصوص»** إذا دخل اللص البيت وفيه بط فإنه يصرخ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص.

قوله: **«وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت»** فيه شرك لأنه شرك غير الله مع الله بالواو، فإن اعتقد أنه يساوي الله عز وجل في التدبير والمشيئة فهو شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك واعتقد أن الله سبحانه وتعالى فوق كل شيء فهو شرك أصغر.

قوله: **«هذا كله شرك»** المشار إليه ما سبق، وهو شرك أكبر أو أصغر حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك.

قوله: **«وعن عمر»**: صوابه عن ابن عمر.

---

(١) أخرجه الطيالسي (١٨٩٦)، وأحمد ٢/٣٤، ٨٦، وأبو داود في الإيمان/ باب كراهة الحلف بالآباء ٣/٥٧٠، والترمذي في الأيمان/ باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله ٥/٢٥٣، وحسنه، وابن حبان (١١٧٧)، والحاكم ١/١٨، ٤/٢٩٧ وصححه على شرط الشيخين وأقره الذهبي، والبيهقي ١٠/٢٩.
وقال الزين العراقي في أماليه إسناده ثقات كما في التيسير ص(٥٨٩).

(٢) سبق ص (١٢٤).

. . . .

قوله: «**من حلف بغير الله**» من شرطية فتكون للعموم.

قوله: «**أو أشرك**» شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث (أشرك).

وقوله: «**من حلف بغير الله**» يشمل كل محلوف به سوى الله سواء بالكعبة أو الرسول ﷺ أو السماء أو غير ذلك، ولا يشمل الحلف بصفات الله؛ لأن الصفة تابعة للموصوف، وعلى هذا فيجوز أن تقول وعزة الله لأفعلن كذا.

قوله: «**بغير الله**» ليس المراد بغير هذا الاسم، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع فهو حلف بالله.

والحلف: تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة، بالباء أو التاء أو الواو.

وحروف القسم ثلاثة: الباء، التاء، الواو:

الباء أعمها لأنها تدخل على الظاهر والمضمر، وعلى اسم الله وغيره، ويذكر معها فعل القسم ويحذف، فيذكر معها فعل القسم كقوله تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم**﴾(1)، ويحذف مثل قولك: بالله لأفعلنَّ، وتدخل على المضمر مثل قولك: الله عظيم أحلف به لأفعلنَّ. وعلى الظاهر كما في الآية، وعلى غير لفظ الجلالة مثل قولك: بالسميع لأفعلن، وأما الواو فإنه لا يذكر معها فعل القسم ولا تدخل على الضمير ويحلف بها مع كل اسم، وأما التاء فإنه لا يذكر معها فعل القسم وتختص بالله وربّ. قال ابن مالك: «والتاء لله ورب».

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

. . . .

والحلف بغير الله شرك أكبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر.

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء إن قوله تعالى: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به**﴾.[1] أي الشرك الأكبر ﴿**ويغفر ما دون ذلك**﴾ أي الشرك الأصغر والكبائر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: إن الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر[2] لأن قوله: ﴿**أن يشرك به**﴾ مصدر مؤول فهو نكرة في سياق النفس فتعم الأصغر والأكبر والتقدير: لا يغفر شركاً به أو إشراكاً به.

وأمـا قوله تعالى: ﴿**والشمس وضحاها**﴾[3]. وقوله: ﴿**لا أقسم بهذا البلد**﴾[4]، وقوله: ﴿**والليل إذ يغشى**﴾[5]، وما أشبه ذلك من المخلوقات التي أقسم الله بها فالجواب من وجهين:

الأول: أن هذا من فعـل الله والله لايسئـل عما يفعـل، وله أن يقسم سبحانه بما شاء من خلقه وهو سائل غير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه.

الثـاني: أن قسم الله بهذه الآيات دليل على عظمتـه وكـمال قدرتـه وحكمته، فيكون القسم بها الدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمناً للثناء على الله عز وجل بما يقتضيه من الدلالة على عظمته.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) انظر: الرد على البكري (تلخيص كتاب الاستغاثة) ص (١٤٦).

(٣) سورة الشمس، الآية: ١.

(٤) سورة البلد، الآية: ١.

(٥) سورة الليل، الآية: ١.

وأما نحن فلا نقسم بغير الله؛ لأننا منهيون عن ذلك.

وأما ماثبت في صحيح مسلم من قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[1].

فالجواب من وجوه:

الأول: أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة، وقال: إنها لا تثبت في الحديث، لأنها مناقضة للتوحيد، وما كان كذلك فلا تصح نسبته إلى رسول الله ﷺ فيكون باطلاً.

الثاني: أنها تصحيف من الرواة والأصل: «أفلح والله إن صدق».

وكانوا في السابق لا يشكلون الكلمات و«أبيه» تشبه «الله» إذا حذفت النقط السفلى.

الثالث: أن هذا مما يجري على الألسنة بغير قصد وقد قال تعالى: ﴿**لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان**﴾.[2] وهذا لم ينو فلا يؤاخذ.

الرابع: أنه وقع من النبي ﷺ وهو أبعد الناس عن الشرك فيكون من خصائصه وأما غيره فهم منهيون عنه، لأنهم لا يساوون النبي ﷺ في الإخلاص والتوحيد.

الخامس: أنه على حذف مضاف والتقدير «أفلح ورب أبيه».

السادس: أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل وهذا أقرب الوجوه. ولو قال قائل: نحن نقلب عليكم الأمر، ونقول: إن المنسوخ هو النهي

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان/ باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١/ ٤٠ من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٩.

. . . .

لأنهم لما كانوا حديثي عهد بشرك نهوا أن يشركوا به كما نهي الناس حين كانوا حديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها(1)؟

فالجواب عنه: أن هذا اليمين كان جارياً على ألسنتهم فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهوا عنه ونظيره إقرارهم على شرب الخمر أولاً ثم أمروا باجتنابه(2).

أما بالنسبة للوجه الأول فضعيف؛ لأن الحديث ثابت وما دام يمكن حمله على وجه صحيح فإنه لايجوز إنكاره.

وأما الوجه الثاني فبعيد، وإن أمكن فلا يمكن في قوله ﷺ لما سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: «**أما وأبيك**».

وأما الوجه الثالث فغير صحيح؛ لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي ﷺ(3)، ولو صحّ هذا لصح أن يقال لمن فعل شركاً اعتاده لا ينهىٰ لأن هذا من عادته وهذا باطل.

---

(1) أخرجه مسلم في الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه زيارة أمه **٢/٦٧٢** من حديث بريدة رضي الله عنه.

(2) كما في قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٩٠.

(3) حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «حلفت مرة باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «**قل: لا إلـه إلا الله وحده لاشريك له ثم انفث عن يسارك ثلاثًا ثم تعوذ ولا تعد**».

أخرجه أحمد ١/١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، والطحاوي في المشكل ١/٣٦٠، وعنده الأمر بالاستغفار بدلاً من التعوذ، وابن حبان (١١٧٨).

والحديث ضعيف كما في إرواء الغليل ٨/١٩٣.

. . . .

وأما الرابع فدعوى التخصيص تحتاج إلى دليل، وإلا فالأصل التأسي به.

وأما الخاص فضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهماً باطلاً ولا يمكن أن يتكلم الرسول ﷺ بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد، وعلى هذا يكون أقربها الوجه السادس أنه منسوخ ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم، وإن كان النووي رحمه الله ارتضىٰ أن هذا مما يجري على اللسان بدون قصد، لكن هذا ضعيف لايمكن القول به.

قوله: «**لأن أحلف بالله كاذباً**»: اللام لام الابتداء، و«أن» مصدرية فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولاً بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «**أحب إليَّ**»: خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿**وأن تصوموا خير لكم**﴾.[1]

قوله: «**كاذباً**» حال من فاعل أحلف.

قوله: «**أحب إليَّ**» هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتاً في المفضل وفي المفضل عليه، وأحياناً في المفضل دون المفضل عليه، وأحياناً لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لايحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذباً أهون عليه من الحلف بغيره صادقاً، فالحلف كاذباً بالله محرم من وجهين:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

. . . .

---

١ ـ أنه كذب والكذب محرم لذاته.

٢ ـ أن هذا الكذب قرن باليمين، واليمين تعظيم لله عز وجل، فإذا كان على كذب صار فيه شيء من تنقص لله عز وجل حيث جعل اسمه مؤكداً لأمر كذب، ولذلك كان الحلف بالله كاذباً عند بعض أهل العلم من اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم في النار.

وأما الحلف بغير الله صادقاً فهو محرم من وجه واحد وهو الشرك، لكن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذباً، وأعظم من اليمين الغموس إذا قلنا إن الحلف بالله كاذباً من اليمين الغموس؛ لأن الشرك لا يغفر قال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾**[1]، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا لإبطال الشرك فهو أعظم الذنوب قال تعالى: **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**[2] وسئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم قال: **«أن تجعل لله نداً وهو خلقك»**[3]، والشرك متضمن للكذب فإن الذي جعل غير الله شريكاً لله كاذب؛ لأن الله لا شريك له.

قوله: «لاتقولوا»: (لا) ناهية ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون.

قولـه: «مـاشاء الله وشاء فلان»: والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسوياً مشيئةالله

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير/ باب: ﴿والذين لايدعون مع الله إلـهاً آخر﴾ ٣/ ٢٧١، ومسلم في الإيمان/ باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٩١ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لاتقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»**. رواه أبو داود بسند صحيح[1]، وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول بالله ثم بك. قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

بمشيئة المخلوق، وهذا شرك ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق أو أنه مساو له فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»: لما نهى عن اللفظ المحرم بيَّن اللفظ المباح، لأن (ثم) للترتيب والتراخي فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: (ما شاء الله فشاء فلان)، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم) فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة ولكن التعبير بـ (ثم)

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨، وأبو داود في الأدب/ باب لا يقال: خبثت نفسي ٥/٢٥٩، والطيالسي (٤٣٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٩١)، وابن السني في عمل اليوم والليل (٦٧١)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٣٤١)، والطحاوي في المشكل ١/٩٠، والبيهقي في السنن ٣/٢١٦، وفي الأسماء والصفات ص(١٤٤)، وفي الاعتقاد ص(١٥٦).

والحديث صححه النووي في الأذكار (٣٠٨)، وفي الرياض (١٧٤٨). وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: «بسند صحيح».

. . . .

أولى، لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وأبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

ويستفاد من هذا الحديث:

١ ـ إثبات المشيئة للعبد لقوله: (ثم شاء فلان) فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار.

٢ ـ أنه ينبغي لمن سد على الناس بابا محرماً أن يفتح لهم الباب المباح لقوله: (ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان)، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا**﴾[1]. وكذلك النبي ﷺ لما جيء له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه آخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة قال: (لا تفعل ولكن بع الجمع بالدراهم ثم اشتر بالدراهم جنيباً)[2]، أي تمراً جيداً فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

قوله: «عن إبراهيم النخعي»: من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث كما ذكر ذلك حماد بن زيد.

قوله: «يكره أعوذ بالله وبك»: العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص هو اللجوء إليه لطلب المحبوب قال الشاعر:

يامن ألوذ به فيما أأمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلاً لكن كما قال ابن كثير رحمه الله: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع/ باب إذا أراد بيع تمر بتمر ١٠٦/٢ ومسلم في المساقاة/ باب بيع الطعام مثلاً بمثل ١٢١٥/٣ عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد. الثانية : أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر. الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك. الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس. الخامسة : الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

وقوله : «أعوذ بالله وبك» : هذا محرم ؛ لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو [الواو].

ويجوز بالله ثم بك، لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي ، فإن قيل سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله ، وعلى هذا يكون قوله أعوذ بالله ثم بك محرماً؟

أجيب : أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة؛ لقوله ﷺ في صحيح مسلم : «**من وجد ملجأ فليعذ به**»[1]. لكن لو قال: أعوذ بالله ثم بفلان وهو ميت فهذا شرك أكبر؛ لأنه لايقدر على أن يعيذك، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله ﷺ : «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»[2]، ثم قال رحمه الله : والاستعاذة لاتكون بمخلوق، فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق وهو كلام الله، و الكلام تابع للمتكلم به إن كان مخلوقاً فهو مخلوق وإن كان غير مخلوق فهو غير مخلوق.

فيه مسائل :

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد، وقد سبق.

---

(١) سبق ص ١ / ٢٥٦ .

(٢) سبق ص ١ / ٢٥٤ .

. . . .

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر»:
لأن قوله تعالى: ﴿**فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾، نازلة في الأكبر؛ لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر؛ لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق، أو في بعض الأمور.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك، لحديث ابن عمر.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس، واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذباً، وقال بعض العلماء ـ وهو الصحيح ـ أن يحلف كاذباً ليقتطع بها مال امرىء مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ، لأن الواو تقتضي المساواة فتكون شركاً، و(ثم) تقتضي الترتيب والتراخي فلا تكون شركاً.

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمـر أن رسول الله ﷺ قال: **«لاتحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصـدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»**. رواه ابن ماجة بسند حسن[1].

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أن الاقتناع بالحلف بالله من تعظيم الله؛ لأن الحالف أكَّد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهو تعظيم المحلوف به، فيكون من تعظيم المحلوف به أن تصدَّق ذلك الحالف وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شيء من نقص تعظيم الله وهذا ينافي كمال التوحيد، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين:

الأول: أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنه يجب الرضـا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمـين على المدعىٰ عليه فحلف، فيجب الرضـا بهذا الحكم الشرعي.

الثاني: أن يكون ذلك من الناحية الحسية فإن كان الحالف موضع صدق وثقة فإنك ترضىٰ بيمينه، وإن كان غير ذلك فلك أن ترفض الرضـا بيمينه،

---

(١) أخرجه ابن ماجة في الكفارات/ باب من حلف له بالله فليرض ١/ ٦٧٩ وقال في الزوائد: «رجال إسناده ثقات».

وحسنه الحافظ في الفتح ١١/ ٥٣٦.

وحسنه أيضاً الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله.

وصححه الشيخ سليمان رحمه الله في التيسير ص (٩٥٦) على شرط مسلم.

. . . .

ولهذا لما قال النبي ﷺ لحويصة ومحيصة: «**تبرئكم يهود بخمسين يميناً قالوا: كيف نرضىٰ يارسول الله بأيمان اليهود؟**»[1]، فأقرهم النبي ﷺ على ذلك.

قوله: «لا»: ناهية ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون و«آباؤكم» جمع أب ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم لأنه شرك وقد سبق بيانه[2].

قوله: «من حلف بالله فليصدق ومن حلف له بالله فليرض»: هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف أن يكون صادقاً، والصدق هو: الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب وهو: الإخبار بما يخالف الواقع فقوله: (من حلف بالله فليصدق) أي فليكن صادقاً في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقاً للواقع أو يكفي الظن؟ الجواب: يكفي الظن فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه، وقد سبق لنا من ذلك أمثلة.

وقوله: «**فيصدق**» اللام لام الأمر.

الثاني: «من حلف له بالله فليرض»، إذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني ينزل على ماإذا كان الحالف صادقاً، لأنه جمع أمرين أمر موجه للحالف، وأمر موجه للمحلوف له فإذا كان الحالف صادقاً وجب الرضا، فإن قيل إن كان صادقاً فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟

أجيب: أن اليمين تزيده تأكيداً.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب/ باب إكرام الكبير ٤/١١٧، ومسلم في القسامة/ باب القسامة ٣/١٢٩٢ ـ ١٢٩٥ عن رافع بن خديج وسهل بن أبي حثمة.

(٢) ٣٢٥.

فيه مسائل : **الأولى** : النهي عن الحلف بالآباء. **الثانية** : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى. **الثالثة** : وعيد من لم يرض.

قوله: (**ومن لم يرض فليس من الله**)؟، أي من لم يرض بالحلف إذا حلف له فليس من الله فهنا تبرأ منه، فتدل على أن عدم الرضا من كبائر الذنوب، ولكن لابد من ملاحظة ما سبق وقد أشرنا أن في حديث القسامة دليلاً على أنه إذا كان الحالف غير ثقة فلك أن ترفض الرضا به، لأنه غير ثقة لو أن أحداً حلف لك، وقال والله إن هذه الحقيبة من خشب، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه والشرع لايأمر بشيء يخالف الحس والواقع، بل لا يأمر إلا بشيء يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن وإن كان العقل لا يدرك أحياناً مدى حسن هذا الشيء الذي أمر به الشرع، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[1]، فإذا اشتبه عليك حسن شيء من أحكام الشرع فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير، أما أن تتهم الشرع فهذا لا يمكن، وما صح عن الله ورسوله فهو حق وهو أحسن الحكم.

فيه مسائل :

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء، لقوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**»، والنهي للتحريم.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

. . . .

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى، لقوله: (ومن حلف له بالله فليرض).

الثالثة: وعيد من لم يرض، لقوله: (ومن لم يرض فليس من الله).

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف: أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين فكيف باليمين، وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم وقال بعض العلماء إنها اليمين الغموس.

وأما بالنسبة للمحلوف له هل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمسة:

الأولى: أن يعلم كذبه فلا أحد يقول إنه يلزم تصديقه.

الثانية: أن يترجح كذبه فكذلك لا يلزم تصديقه.

الثالثة: أن يتساوى الأمران فهذا يجب تصديقه.

الرابعة: أن يترجح صدقه فيجب أن يصدق.

الخامسة: أن يعلم صدقه فيجب أن يصدقه.

وهذا في الأمور الحسية أما الأمور الشرعية في باب التحاكم فيجب أن يرضى باليمين ويلتزم بمقتضاها لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي.



باب قول ما شاء الله وشئت

عن قتيلة: «أن يهوديا أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه(1).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن قول ما شاء الله وشئت من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأنه إن اعتقد أن المعطوف مساو لله فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ فهو أصغر، وقد ذكر بعض أهل العلم: أن من جملة ضوابط الشرك الأصغر أن ما كان وسيلة للأكبر فهو أصغر.

قوله: «**أن يهوديا**»: اليهودي هو المنتسب إلى شريعة موسى عليه السلام، وسموا بذلك من قوله تعالى: ﴿**إنا هدنا إليك**﴾ أي: رجعنا، أو لأن جدهم اسمه يهوذا بن يعقوب، فتكون النسبة من أجل النسب، وفي الأول تكون النسبة من أجل العمل، ولا يبعد أن تكون من الاثنين جميعا.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد ٦/٣٧١، ٣٧٢، والنسائي في الأيمان/ باب الحلف بالكعبة ٧/٦، والطحاوي في المشكل ١/٩١، ٣٥٧، والحاكم ٤/٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي ٣/٢١٦، والمزي في تهذيب الكمال ٣/١٦٩٤، وصححه الحافظ في الإصابة ٤/٣٨٩

. . . .

قوله: «**إنكم تشركون**»: أي تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: «**ماشاء الله وشئت**»: الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويا للمعطوف عليه وهو الله عز وجل.

قوله: «**والكعبة**»:

الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي بل أمر بتصحيح هذا الكلام فيقال: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله.

ويقال: ما شاء الله، ثم شئت فيكون الترتيب بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق وبذلك يكون الترتيب صحيحاً أما الأول؛ فلأن الحلف صار بالله وأما الثاني فلأنه جعل بلفظ يتبين به تأخر مشيئة العبد عن مشيئة الله وأنه لا مساواة بينهما.

ويستفاد من الحديث:

١ - أن النبي ﷺ لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي ﷺ وأصحابه؛ لأن ما قاله حق.

٢ - مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبه عليه ليس محقا.

٣ - أنه ينبغي أن يغير الشيء إلى شيء قريب منه؛ لأن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا: «**ورب الكعبة**» ولم يقل احلفوا بالله وأمرهم أن يقولوا: «**ماشاء الله ثم شئت**».

فيه إشكال:

وهو أن يقال كيف لم ينبه على هذا العمل إلا هذا اليهودي؟

وجوابه: أنه يمكن أن الرسول ﷺ لم يسمعه ولم يعلم به.

ولكن يقال: بأن الله يعلم فكيف يقرهم؟ فيبقى الإشكال، لكن يجاب

وله أيضا عن ابن عباس: «أن رجلا قال للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله ندا؟ بل ما شاء الله وحده»(1).

أن هذا من الشرك الأصغر دون الأكبر فتكون الحكمة هي ابتلاء هؤلاء اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركا أكبر ولا يرون عيبهم.

قوله: **«أن رجلا قال للنبي ﷺ»**:

الـظاهر أنه قاله للنبي ﷺ تعظيماً، وأنه جعل الأمر مفوضا لمشيئة الله ومشيئة رسوله.

قوله: **«أجعلتني لله ندا»**:

الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندا فقد أتى شيئا عجابا.

والند هو النظير والمساوي أي أجعلتني لله مساويا في هذا الأمر.

قوله: **«بل ما شاء الله وحده»**:

أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت.

يستفاد من الحديث:

١ - أن تعظيم النبي ﷺ بلفظ يقتضي مساواته للخالق شرك، فإن كان يعتقد المساواة فهو شرك أكبر، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك فهو أصغر وإذا كان هذا شركا فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول ﷺ؟ هذا أعظم لأنه ﷺ ليس

---

(١) سبق ص (١٢٦).

. . . .

له شيء من خصائص الربوبية، بل يلبس الدرع ويحمل السلاح، ويجوع ويتألم ويمرض ويعطش، كبقية الناس ولكن الله فضله على البشر لما أوحي إليه من هذا الشرع العظيم قال تعالى: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾ فهو بشر وأكد هذه البشرية بقـولـه: «**مثلكم**» ثم جاء التمييز بينه وبين بقية البشر بقوله تعالى: ﴿**يـوحى إلي أنـما إلهكم إلـه واحد**﴾[1] ولا شك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضلة التي بها الكمالات من كل وجه: أعطاه من الصبر العظيم وأعطاه من الكـرم ومن الجـود لكنهـا كلها في حدود البشرية أما أن تصل إلى خصائص الربوبية فهذا أمر لا يمكن، ومن ادعى ذلك فقد كفر بمحمد ﷺ وكفر بمن أرسله.

فالمهم أننا لا نغلو في الرسول عليه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها ولا نهضم حقه الذي يجب علينا فنعطيه ما يجب له، ونسأل الله أن يعيننا على القيام بحقه، ولكننا لا ننزله منزلة الرب عز وجل.

٢ ـ إنكار المنكر، وإن كان في أمر يتعلق بك لقوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندا**» مع أنه فعل ذلك تعظيماً للنبي ﷺ، وعلى هذا إذا انحنى لك شخص عند السلام فالواجب عليك الإنكار.

٣ ـ أن من حسن الدعوة إلى الله عز وجل أن تذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم؛ لأنه ﷺ لما منعه من قول: «**ماشاء الله وشئت**» أرشده إلى الجائز وهو قوله: «**بل ما شاء الله وحده**».

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

ولابن ماجة عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ـ قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير بن الله. قالوا: وأنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ماشاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم. قال: **فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم. وأنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ماشاء الله وحده**»[1].

قوله: «**كأني أتيت على نفر من اليهود**»: أي رؤيا في المنام.

وقوله: «**كأن**» اسمها الياء، وجملة «**أتيت**» خبرها.

وقوله: «**على نفر**»: من الثلاثة إلى التسعة.

واليهود أتباع موسى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الكفارات/ باب النهي أن يقال: ماشاء الله وشئت ١/ ٦٨٥ وقال البوصيري: «رجال الإسناد ثقات على شرط البخاري».

وهو عند ابن ماجه من طريق أبي عوانة اليشكري، وقد تابعه شعبة عند الدارمي ٢/ ٢٩٥، والخطيب في الموضح ١/ ٣٠٣، وحماد بن مسلمة عند أحمد ٥/ ٧٢، والطبراني في الكبير=

. . . .

قوله: «**لأنتم القوم**» كلمة مدح كقولك هؤلاء هم الرجال.

وقوله: «**عزير هو**»: رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم وهو كفر، واليهود لهم مثالب كثيرة لكن خصت هذه لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «**ماشاء الله وشاء محمد**»: هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا لاشك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقد عليهم تسوية مشيئة الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ.

قوله: «**تقولون المسيح ابن الله**»:

هو عيسى بن مريم وسمي مسيحـا بمعنى ماسح، فهو فعيل بمعنى فاعل؛ لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا بريء بإذن الله كالأكمه والأبرص.

والشيطان لعب بالنصارى فقالوا: هو ابن الله؛ لأنه أتى بدون أب ولا سيما إذا كان في الإنجيل كما في القرآن: ﴿**فنفخنا فيها من روحنا**﴾[1] قالوا: هو جزء من الله؛ لأن الله أضافه إليه والجزء هو الابن، وقد سبق الجواب عن هذه الشبهة.

= (٨٢١٤) والمزي في تهذيب الكمال ٢/٦٢٦، ٦٢٧، وزيد بن أبي أنيسة عند الطبراني في الكبير (٨٢١٥).

وخالف سفيان بن عيينة فأخرجه أحمد ٥/٣٩٣، وابن ماجه ١/٦٨٥ من طريقه عن حذيفة ابن اليمان.

وكذا معمر بن راشد فأخرجه الطحاوي في المشكل ١/٩٠ من طريقه عن جابر بن سمرة رضي الله عنهم.

وقد رجح الحافظ أن الحديث من رواية الطفيل.

انظر فتح الباري ١١/٥٤٠.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩١.

. . . .

والروح: على الراجح عند أهل السنة ذات لطيفة تدخل الجسم وتحل فيه كما يحل الماء في الطين اليابس، ولهذا يقبضها الملك عند الموت وتكفن ويصعد بها ويراه الإنسان عند موته، فالصحيح أنها ذات وإن كان بعض الناس يقول إنها صفة ولكنه ليس كذلك، والحياة صحيح أنها صفة لكن الروح ذات، إذاً نقول لهؤلاء النصارى إن الله أضاف روح عيسى إليه كما أضاف البيت والناقة إليه وما أشبه ذلك على سبيل التشريف والتعظيم، ولاشك أن المضاف إلى الله يكتسب شرفا وعظمة حتى إن بعض الشعراء يقول في معشوقته:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

قوله: «**فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت**»: المقصود بهذه العبارة الإبهام كقوله تعالى: ﴿**فغشيهم من اليم ماغشيهم**﴾[1] والإبهام وقد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنى آخر.

قوله: «**هل أخبرت بها أحداً**»:

سأل النبي ﷺ هذا السؤال لأنه لو قال: لم أخبر أحدا، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدا. هذا هو الظاهر، ثم يبين له الحكم عليه الصلاة والسلام لكن لما قال إنه أخبر بها صار لابد من بيانها للناس عموما؛ لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصا فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «**فحمد الله**»: الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٨.

فيه مسائل: الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى. الثالثة: قوله ﷺ: «**أجعلتني لله ندا**» فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك والبيتين بعده؟ الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «**يمنعني كذا وكذا**». الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي. السادسة: أنها قد تكون سببا لشرع الأحكام.

قوله: «**وأثنى عليه**»: أي كرر ذلك الوصف.

قوله: «**أما بعد**»: سبق أنها بمعنى مهما يكن من شيء بعد، أي: بعد ماذكرت فكذا وكذا.

قوله: «**يمنعني كذا وكذا**»:

أي يمنعه الحياء كما في رواية أخرى، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك، هذا الذي يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظة، أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكار؛ لأن الرسول ﷺ لا يستحي من الحق ولكن الحياء من أن ينكر شيئا قد درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار مثل الخمر بقي الناس يشربونها حتى حرمت في سورة المائدة، فالرسول ﷺ لما لم يؤمر بالنهي عنها سكت، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأى ﷺ أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين.

قوله: «**قولوا ماشاء الله وحده**»: نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل:

الأولى: «**معرفة اليهود بالشرك الأصغر**»: لقوله: «إنكم لتشركون».

. . . .

الثانية: «**فهم الإنسان إذا كان له هوى**»: أي إذا كان له هوى فهم شيئاً، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه فاليهود ـ مثلاً ـ أنكروا على المسلمين قولهم: «ماشاء الله وشئت». وهم يقولون أعظم من هذا يقولون: عزير ابن الله.

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على ما يوافق هواه، ولذلك تجده يحمل النصوص على ما يوافق مذهبه ويحملها من الدلالات ما لا تحتمل، كذلك أيضا بعض العصريين يحملون النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشفه العلم الحديث في الطب والفلك وغير ذلك، كل هذا من الأمور التي لا يحمد الإنسان عليها، فالإنسان يجب أن يفهم النصوص على ما هي عليه ثم يكون فهمه تابعا لها، لا أن يخضع النصوص لفهمه أو لما يعتقده ولهذا يقولون: استدل ثم اعتقد، ولا تعتقد ثم تستدل؛ لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقادك على أن تحرف النصوص إلى ما تعتقده كما هو ظاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه، والحاصل: أن الإنسان إذا كان له هوى، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه.

الثالثة: «**قوله ﷺ**: «**أجعلتني لله ندا**» فكيف بمن قال: ياأكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك. والبيتين بعده»؟

قوله: «**أجعلتني لله ندا**»: هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «**فكيف بمن قال: ياأكرم الخلق . . .**»: يشير رحمه الله إلى بيتين للبوصيري في البردة ـ القصيدة المشهورة يقول:

ياأكـرم الخلق ما لي من ألـوذ به	سواك عنـد حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخـذا يوم المعـاد يدي	عفـوا وإلا فقـل يازلـة القـدم

. . . .

فإن من جودك الــدنـيا وضرتهــا ومن علومــك علم اللوح والقلم

وهـذا غاية الكفر والغلو فلم يجعل لله شيئا، والنبي ﷺ شرفه بكونه رسول الله، لا لأنه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «**يمنعني كذا وكذا**»: لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي:

تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة**»[1] وهذا موافق للواقع بالنسبة للوحي الذي أوحى إلى النبي ﷺ لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان وهذا ستة أشهر فإذا نسبت هذا إلى بقية زمن الوحي كان جزءًا من ستة وأربعين جزء لأن الوحي كان ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر.

والرؤيا الصالحة: هي التي تتضمن صلاح الرجل، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام.

أما أضغاث الأحلام فإنها مشوشة غير منظمة، وذلك مثل التي قصها رجل على النبي ﷺ قال: «إني رأيت رأسي قد قطع وإني جعلت اشتد وراءه سعيا، فقال النبي ﷺ: «**لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك**»[2] والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان قال تعالى: ﴿**ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله**﴾[3]، ولذلك أرشد النبي ﷺ لمن رأى ما يكره أن يتفل عن يساره، أو ينفث ثلاث مرات وأن يقول: «**أعوذ بالله من شر**

(١) أخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المنام ٤/٣٠٣، ومسلم في الرؤيا ٤/١٣٧٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الرؤيا/ باب لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام ٤/١٧٧٦ من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

. . . .

الشيطان ومن شر ما رأيت وأن يتحول إلى الجانب الآخر وأن لا يخبر أحداً»[1]، وفي رواية: «أمره أن يتوضأ وأن يصلي»[2].

السادسة: أنها قد تكون سببا لشرع بعض الأحكام: من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله بن زيد في الأذان وقال النبي ﷺ: **«إنها رؤيا حق»**[3] وأبو بكر رضي الله عنه أثبت رؤيا من رأى ثابت بن قيس بن شماس، فقال للذي رآه: إنكم ستجدون درعي تحت برمة، وعندها فرس يستن فلما أصبح الرجل ذهب إلى خالد بن الوليد وأخبره فذهبوا إلى المكان ورأوا الدرع تحت البرمة عندها الفرس[4]، فنفذ أبو بكر وصيته، لوجود القرائن التي تدل على صدقها.

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وفيه: «... وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» أخرجه البخاري في التعبير/ باب الرؤيا من الله ٤/٢٩٦، وحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا، وليستعذ من الشيطان ثلاثا، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه»**.
أخرجه مسلم ٤/١٧٧٣.

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «... **فمن رأى شيئاً يكرهه فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل**».
أخرجه البخاري في التعبير/ باب القيد في المنام ٤/٣٠٣.

(٣) أخرجه أحمد ٤/٤٣، وأبو داود في الصلاة/ باب كيف الأذان ١/٣٣٧، والترمذي أخرج آخره دون صفة الأذان ١/٢٣٦، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه في الأذان/ باب بدء الأذان وقال النووي في المجموع ٣/٧٦: «رواه أبو داود بإسناد صحيح وروى الترمذي بعضه بطريق أبي داود».

(٤) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٣٢١ وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».



باب من سب الدهر فقد آذى الله

السب: الشتم والتقبيح والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم، أو برده وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات واللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: «**هذا يوم عصيب**»[1].

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقا لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقا فهو كافر كما أن من اعتقد أن مع الله إلها يستحق أن يعبد فإنه كافر.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل لكن يسبه؛ لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك؛ وذلك لأن سبه إياه لا يخلو إما أن يعتقد أنه هو الفاعل وهذا شرك، وأما ألَّا يعتقد أن الله هو الفاعل فتكون حقيقة السب لله عز وجل لأن الله تعالى هو الذي يصرفه ويكون فيه ما أراد من خير أو من شر، فليس الدهر فاعلا فسبه في الحقيقة يعود إلى سب الله عز وجل؛ فيكون هذا محرما، وليس

(١) سورة هود، الآية: ٧٧.

وقول الله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر...﴾[1] الآية.

بشرك لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.

قوله: «**فقد آذى الله**»:

لا يلزم من الأذية الضرر، فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن قال تعالى: ﴿**إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهيناً**﴾[2] وفي الحديث القدسي: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»[3]. ونفى عن نفسه التضرر قال تعالى: ﴿**إنهم لن يضروا الله شيئا**﴾[4] وفي الحديث القدسي: «**ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني**»[5] رواه مسلم.

قوله: «**وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا**»:

المراد المشركون الموافقون للدهرية ـ بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغير فيه الحركة ـ والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا، فليس هناك آخرة بل يموت بعض ويحيا آخرون هذا يموت فيدفن، وهذا يولد فيحيا، ويقولون إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: «**وما يهلكنا إلا الدهر**»:

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٣) يأتي ص (٣٥٤).

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٦.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة/ باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٤ من حديث أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه.

. . . .

أي: ليس هلا كنا بأمر الله وقدره، بل طول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته.

قوله: «**وما لهم بذلك من علم**»:

«ما»: نافية و«علم»: مبتدأ وأكد بمن فيكون للعموم، أي مالهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: «**إن هم إلا يظنون**»:

«إن»: هنا نافية لوقوع «إلا» بعدها، أي ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم فليس ظنهم مبنيا على دليل يجعل الشيء مظنونا، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له فلا حجة لهم إطلاقا وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضا يستعمل بمعنى العلم واليقين كقوله تعالى: ﴿**الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم**﴾(1).

الرد على قولهم بما يلي:

أولا: قولهم: «ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا»:

هذا يرده المنقول والمعقول، أما المنقول فالكتاب والسنة تدل على ثبوت الآخرة ووجوب الإيمان باليوم الآخر، وأن للعباد حياة أخرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخرى تقرر ذلك وتؤكده.

وأما المعقول فإن الله فرض على الناس الإسلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة الله مع ما في ذلك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك ترابا لا بعث ولا حياة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هذا قال تعالى: ﴿**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾(2) أي: الذي أنزل عليك القرآن وفرض العمل به والدعوة

---

(1) سورة البقرة، الآية: ٤٦. (2) سورة القصص، الآية: ٨٥.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم يسب الـدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار**»[1] وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**»[2].

إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى عليه ويجازي عليه كل من بلغته الدعوة.

ثانيا: قولهم: «**وما يهلكنا إلا الدهر**»:

هذا يرده المنقول والمحسوس، فأما المنقول فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله عز وجل كما قال الله تعالى: ﴿**هو يحيي ويميت وإليه ترجعـون**﴾[3] وقال عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿**وأحيي الموتى بإذن الله**﴾[4] وأما المحسوس فإننا نعلم من يبقى سنين طويلة على قيد الحياة كنوح عليه السلام وغيره ولم يهلكه الدهر، ونشاهد أطفالاً يموتون في الشهر الأول من ولادتهم، وشبابا يموتون في قوة شبابهم فليس الدهر هو الذي يميتهم.

مناسبة الآية للباب:

إن في الآية نسبة الحوادث إلى الدهر ومن نسبها إلى الدهر فسوف يسب الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

قوله: «**وفي الصحيح عن أبي هريرة... إلى آخره**»:

هذا الحديث يسمى الحديث القدسي أو الإلهي أو الرباني، وهو كل ما

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير/ تفسير سورة الجاثية ٣/٢٩١، ومسلم في الأدب/ باب النهي عن سب الدهر ٤/١٧٦٢.

(٢) أخرجها مسلم في الموضع السابق ٤/١٧٦٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

. . . .

يرويه النبي ﷺ عن ربه عز وجل والأحاديث القدسية لا تثبت لها أحكام القرآن:

- فيجوز مسها بلا طهارة.
- ويجوز للجنب والحائض قراءتها.
- ولا تقرأ في الصلاة.
- ويصح بيعها.
- والسفر بها إلى أرض العدو.
- ولا يتعبد بتلاوتها.
- وتروى بالمعنى.

واختلف هل هي منسوبة إلى الله لفظاً ومعنى، أو لفظاً فقط؟.

والصحيح أنها من كلام الله معنى، واللفظ من الرسول ﷺ، فاللفظ مخلوق والمعنى غير مخلوق، إذ لو كانت من كلام الله لفظاً لكانت معجزة؛ لأن كلامه تعالى لا يشبه كلام البشر، وأيضا لو كانت من كلام الله لما حصل الاختلاف في ألفاظ روايتها؛ لأن كلامه تعالى محفوظ، ولهذا لا يزاد في القرآن ولا ينقص.

فإن قال قائل: إن النبي ﷺ ينسب القول فيها إلى الله، وإذا نسب القول إلى قائله كان قولا له لفظاً ومعنى؟. فالجواب: أن هذا صحيح، وأن هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع وهنا قد منع منه مانع وهو أنه لو كان كلام الله لفظاً ومعنى لثبتت له أحكام القرآن؛ لأن الشريعة لا تفرق بين متماثلين ولا غرابة أن ينسب القول إلى قائله باعتبار معناه فإن جميع ما في القرآن من الأقوال المنسوبة إلى الرسل السابقين وأممهم كلها منسوبة لهم باعتبار المعنى؛ لأنها بلفظ عربي وتلك الأمم السابقة ليس لسانهم عربيا، وأيضا فإن الله يذكر القول عن

. . . .

قائله بلفظ مختلف لمناسبة أسلوب القرآن كما في قوله عن سحرة آل فرعون: ﴿**قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون**﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿**فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى**﴾[2] فقدم هارون على موسى لتناسب رؤوس الآي.

قوله: «**قال الله تعالى**»: «تعالى» من العلو وجاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترفعه جل وعلا عن كل نقص وسفل، فهو متعال بذاته وصفاته، وهي أبلغ من كلمة علا أي ترفع وتنزه عما يشركون علوا كبيرا.

قوله: «**يؤذيني ابن آدم**»: أي يلحق بي الأذى، فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها، لأن الله أثبتها لنفسها، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق بدليل قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[3] وقدم النفي على الإثبات، لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه فليس فيه احتمال للتمثيل إذ لو كان احتمال التمثيل جائزا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه لكان احتمال الكفر جائزا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «**ابن آدم**»: شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبوالبشر خلقه الله تعالى من طين وسواه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وعلمه من أسماء كل شيء.

اعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشأوا من قرد لا من طين ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) سورة طه، الآية: ٧٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

. . . .

ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن، فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يقال له بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه ابنيه بابنتيه في الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول ومثلك، كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له ... وفي غيره لغو كما جاء شرعنا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا، فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

الثانية: أيضاً مما يحذر عنه كلمة [فكر إسلامي] إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر.

قوله: **«يسب الدهر»**: الجملة تعليلية للأذية، أو تفسيرية للأذية أي بكونه يسب الدهر أي يشتمه ويقبحه ويلومه وربما يلعنه ـ والعياذ بالله ـ والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: **«وأنا الدهر»**: أي مدبر الدهر ومصرفه قال تعالى: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾[1] ولقوله في الحديث: **«أقلب الليل والنهار»** والليل والنهار هما الدهر.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

. . . .

ولا يقال بأن الله هو الدهر، ومن قال ذلك فقد جعل الخالق مخلوقا والمقلب مقلبا.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعا في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟.
أجيب: أن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام محذوف تقديره وأنا مقلب الدهر لأنه فسره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**» ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله كابن حزم رحمه الله، فإنه قال: إن الدهر من أسمائه الله، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في الأسماء، فالأصل في أسماء الله أن تكون حسنى أي بالغة في الحسن غايته، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسما جامدا أبدا؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى فيلزم من ذلك بأن تكون دالة على معانٍ، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن وعلى هذا فينتفي أن يكون اسم الله لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات فلا يحمل المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن ولكن مقلب الزمن هو الله ولهذا قال: «**أقلب الليل والنهار**».

قوله: «**أقلب الليل والنهار**»: أي ذواتهما وما يحدث فيهما، فالليل والنهار يقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي

فيه مسائل: الأولى: النهي عن سب الدهر. الثانية: تسميته أذى لله. الثالثة: التأمل في قوله: «**فإن الله هو الدهر**». الرابعة: أنه قد يكون سابا ولو لم يقصده بقلبه.

الأسبوع وفي الشهر وفي السنة قال تعالى: ﴿**قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير**﴾[1] وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله عز وجل، وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

قوله: «**وفي رواية لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر**»:

فائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «**فإن الله هو الدهر**»:

وفي نسخة: «**فإن الدهر هو الله**» والصواب فإن الله هو الدهر.

وقوله: «**فإن الله هو الدهر**»: أي فإن الله مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المعلل حكما.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر: لقوله: «**لا تسبوا الدهر**».

الثانية: تسميته أذى لله: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم**».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

. . . .

الثالثة: التأمل في قوله: فإن الله هو الدهر: فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مقلب الدهر ومصرفه وليس معناه أن الله هو الدهر وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون سابا ولو لم يقصده بقلبه: تؤخذ من قوله: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**» ولم يذكر قصدا ولو عبر بقوله: أنه قد يكون مؤذيا لله ولم يقصده لكان أوضح وأصح؛ لأن الله صرح بقوله «يسب الدهر». والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على المؤلف بعض المسائل منها: تفسير آية الجاثية وقد سبق ذلك.

تم الجزء الثاني ولله الحمد

ويليه الجزء الثالث وأوله

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

فهرس الآيات
الجزء الثاني

الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمــران

سورة النساء

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

الآيـــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البروج		
إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات	١٠	١٧٣
سورة الطلاق		
يوم تبلىٰ السرائر	٩	٢٣٦
سورة البلد		
لا أقسم بهذا البلد	١	٣٢٥
سورة الشمس		
والشمس وضحاها	١	٣٢٥
سورة الليل		
والليل إذا يغشىٰ	١	٣٢٥
سورة التين		
أليس الله بأحكم الحاكمين	٨	٢٦٧
سورة العلق		
كلا إن الإنسان ليطغى	٦	١٢١
أن رآه استغنى	٧	١٢١

فهرس أحاديث الجزء الثاني



فهرس الجزء الثاني
من كتاب القول المفيد

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة